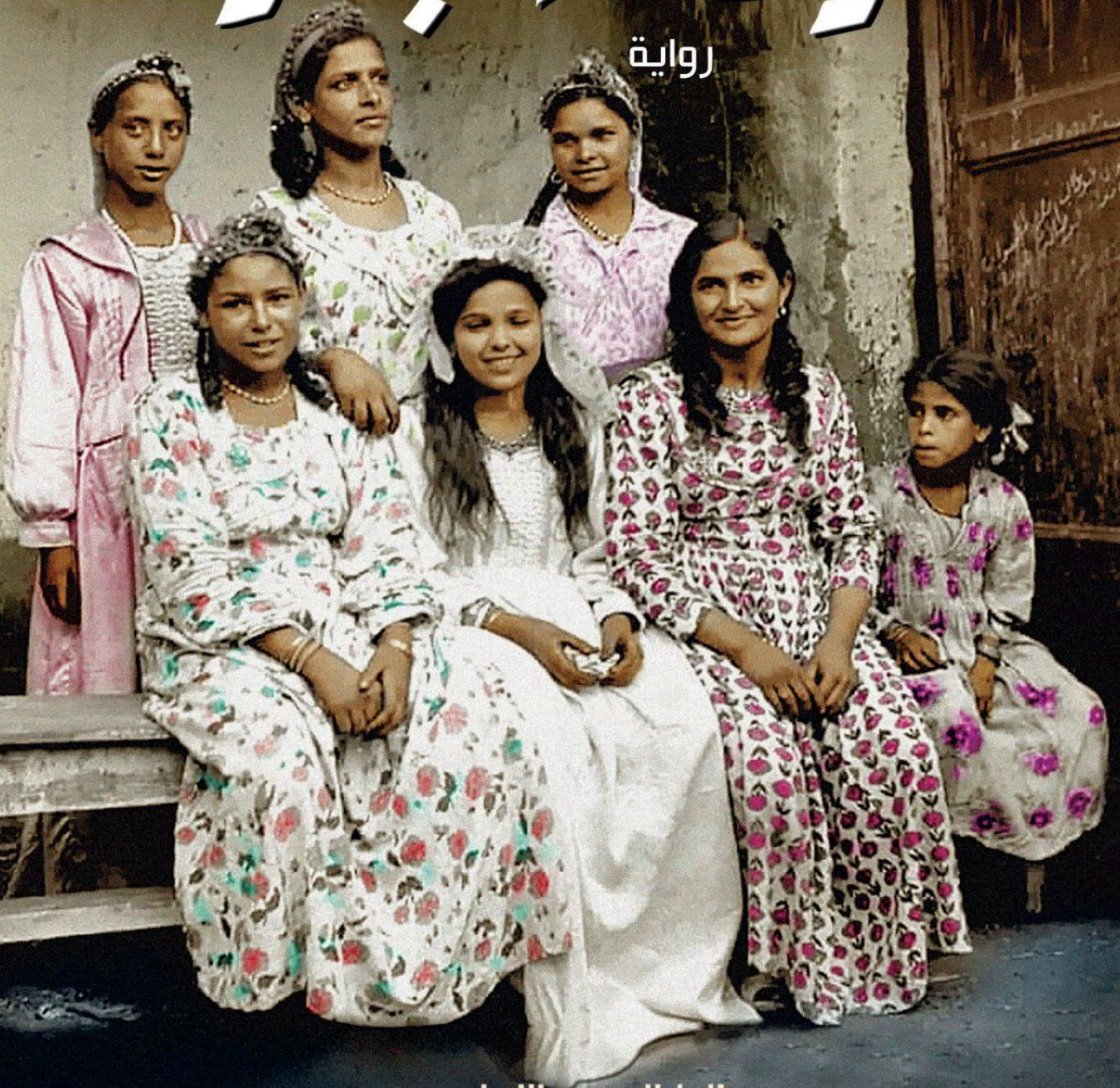




أشرف العشماوي

بيت القبطية

رواية



الدار المصرية اللبنانية



لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا



لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

sa7eralkutub.com

او زيارة موقعنا

"لا يوجد مكان لحفظ السرّ"

أفضل من رواية غير مكتملة"

Italo Calvino

روائي إيطالي

1

داعب النُّعاس جفوني ببطءٍ فقاومته بتكاسل، لا
يتغلَّب أحدنا على الآخر، حتى انحرفنا فجأة إلى
أقصى اليمين عن الطريق السريع فانتبهت، سُحِب
الخريف الداكنة تملأ السماء.. تتسابق.. تتلاحم..
سرعان ما تتجمّع متأهبة لإنزال المطر، تتراجع في آخر
لحظة.. تنسحب.. تتفرَّق من جديد، الظلام يطاردها
ويحاصرها قبل أن يظفر بها ليبتلعها.

فتحت نافذة السيارة، تدفَّقت نسمة هواء باردة
منعشة، سرَّت قشعريرة بجسدي فأحكمت غلقها، أهتز
ويرتجُّ جسمي كله من طُرُق غير ممهدة نسلكتها وسط
الغيطان، ألمح لافتة يعلوها الصدا، حروفها شبه
ممحاة، قرأت ما عليها بصعوبة.. "قرية الطايعة"..
مكتوبة أو ما تبقى منها بخط جميل كبير، رَبَّتْ كتف
السائق سائلاً:

- باقي كثير على ما نوصل؟

أشار لمبنى قديم ثلثه متوارٍ خلف أشجار كافور
ضخمة وهو ينحرف ناحية اليسار قائلاً:

- وصلنا يا باشا.

أنزل السائق أمتعتي وسبقني بخطواتٍ واسعةٍ حتى
اختفى وراء الأشجار التي تلف المكان بعشوائية،
تحاول إخفائه عن العيون فلم تفلح، فيعاونها الليل
وهو يُنزل ستائره بهمةٍ لتتوارى مؤقتًا حتى الصباح.
بدت لي الاستراحة أقرب لبيتٍ مهجورٍ فانقبضتُ،
اقتربتُ لأرى محل إقامتي الجديد لسنةٍ قادمةٍ. على
ضوء القمر الذي تخلى بالكاد عن خسوفه هذه الليلة،
وجدتها فيلاً صغيرة شُيِّدت على طراز إنجليزي متميز،
وإن بهت لون جدرانها، ترتفع لطابقين، مسقوفة
بمظلات مُغطّاة بالقرميد المائل، أمامها حديقة كبيرة،
يحوطها سور خشبي قصير يمكنني القفز من فوقه
بسهولة.. فقفزت.

شعرت بنشوة طفل شقي، رأيت على الأطراف في
مرمى بصري مبنيين، خَمَّنت من معمارهما وتمائلهما

أنهما مخصصان لخدمة الاستراحة.. شقَّ السكون نُباح كلب يبدو مُقيدًا، أعقبه سِباب مُتقطِّع لرجل، مؤكد أنه ينهر الكلب أو يحاول قذفه بحجرٍ كما هي العادة، تقطَّع النُّباح وخفَّت، ثم سكت.

- حمد الله على السلامة يا باشا، نوَّرت "التايهة" كلها!

من وسط الأشجار الكثيفة ظهر رجل مبتسم ابتسامة محايدة، تقدَّم نحوي بخُطى واسعة، تنفرج معها ابتسامته بالتوازي لتصير مُرْحبة، تعجَّبت من نطقه لاسم القرية لكني تجاوزت دهشتي، لا بد وأنه يعرف حكايتها مثلي.

تفرَّست فيه جيدًا على ضوء مصباحه الذي يرفعه قرب وجهه، تخطى الكهولة بسنواتٍ كثيرة، شاب شعره لكنه لم يسقط بعد، بنيانه يَشِي بصحة متواضعة تفي بأقل ضروريات الحياة، أنفه شبه معقوف طويل كقامته ورفيع كساقيه، على شفثيه بقايا ابتسامة مُربكة نوعًا ما، لا تخفت حتى وهو يتكلم، لا شك أنه رمسيس حاجب الاستراحة العجوز، حدَّثني زميلي

وكيل النيابة عنه قبل أسبوعين، شارحًا ما سيكون عليه مسار حياتي هنا بقرية الطايعة على أطراف المدينة، الذي نُقلت إليه بدلًا منه دون سابق إنذار، مع أنه لم يمضِ على فترة عملي بالنيابة العامة أكثر من ثلاثة أعوام.

انصرف السائق مُخلفًا وراءه ضوضاء عالية من سيارته القديمة سرعان ما خفتت، حمل رمسيس الحقائق بسهولة رغم وهن جسده، مضى أمامي بخطواتٍ واثقة كحرس شرف. شردت لوهلة في حالي، انتابني هاجس غريب بوحشة المكان مرة ثانية، لكن ما إن أضاء رمسيس أنوار الاستراحة حتى شعرت بسكينة مؤقتة.

صافحت عيني مكتبة فخمة من خشب الأرو ترتفع للسقف، تُغطي جدارين من غرفة الصالة لكنها شبه خاوية، إلا من طبقات سميكة من الأتربة وبعض مراجع القانون الجنائي، مجلدات مبادئ محكمة النقض التي لا تخطئها عيني أبدًا من ضخامتها وتجليدها السيئ، وألوانها البنية والخضراء الداكنة. بالكاد لمحت كتابين مختلفين، محشورين وسط الكتب الضخمة،

سُمكهما لا يشي بانتمائهما للقانون ولا حتى من بعيد..
فانجذبت.

جذبتهما برفقٍ من بين المجلدات التي تُطبق على
دفتيهما، الكتابان لتوفيق الحكيم، روايته الشهيرة
"يوميات نائب في الأرياف"، وثانيهما كتابه الذي لم
يلتفت له كثيرون وقت صدوره.. "عدالة وفن". أهي
مصادفة أن أجد هذين الكتابين تحديداً الآن؟ كأنهما
يُخبراني بما ينتظرني هنا!

أؤمن دائماً بالإشارات والعلامات، فنحن في متاهة،
وطرق الخلاص تشابهت علينا، والعلامات منحة لا تُرد
لنهتدي.

شقٌّ شرودي وشرذم أفكارٍ صوت رمسيس هاتفاً:

- الكتب موجودة هنا من يبجي خمسين سنة وأكثر
لكن ماحدث بيقرأها.

خمسون عامًا؟! ابتسمت متخيلاً أن توفيق الحكيم
نفسه خَدَم في ذات المكان وكتب أحدهما هنا، ثم ترك

الاثنين بالمكتبة، لعلَّ أحدنا يقرأ فيتعظ.

عاينت بقية الاستراحة كمسرح لجريمة لا أعرف تفاصيلها، في ركنٍ قصيٍّ آخر وجدت منضدة طعامٍ لتسعة أشخاص بعد لصق مقدمتها بالحائط، وإن كانت في حالٍ سيئةٍ لما رفعت مفرشها البلاستيكي الرديء، أعدته مكانه بلا مبالاة، ملتفتًا لرمسيس وقد أصابني سهم السأم في مقتل قائلاً:

- فين الأوضة المخصصة لي؟

- سعادتك تختار براحتك، عندنا أربع أوض نوم كبيرة، وكل واحدة فيها فراندة بثرحة ترد الروح، ودورة مية لا مؤاخذة ملوكي.

- أيوة مفهوم.. مفهوم.. لكن مين من بهوات المحكمة مُقيم هنا في الاستراحة يا رمسيس؟

- معاليك لوحدك يا باشا، البهوات القضاة بيحبوا البندر، بينزلوا في استراحة المحكمة هناك وسط الناس والمطاعم.. وئس وضحبة يعني، مآحدث نزل في

الاستراحة هنا يبجي من عشرين سنة وأكثر، كلهم
بيمشوا بعد أسبوع، آخر واحد كَمَل المدة كلها هنا كان
المستشار حنا بك فايز.. أكيد قريب سعادتك.. صح؟

- لأ موش قريبي وما عرفوش.

- عمومًا محدش بيقعد هنا أكثر من جمعة، وبعدها
يروح على استراحة البندر.

قالها رمسيس مرة ثانية ثم ضحك بخُبثٍ يليق
بسُخْنَتِه، استفسرت منه عن السبب فأجابني محاولاً
تصنُّع الجديَّة:

- أصل أهل البلد من زمان بيقولوا إن الاستراحة فيها
عفريت وبيسمعوا أصوات بالليل، وكل ده بسبب
الخواجة صاحبها اللي اتقتل فيها، والله لو تعمل خير
في وزارة العدل تقول لهم يبيعوها أحسن والمشتري
جاهز!

سكت رمسيس برهة ثم بَرَطَم بهميس مسموع:

- وأهي كلها يومين وتحصلهم.

2

غضبت أُمِّي ولعنتني كعادتها.. نظرت إلى الحائط
وشهقت مرة ثانية، حاولت فهم الخطوط التي نقشتها،
مالت برقبتهَا، تعثَّرت في النطق، ضربت صدرها بيدهَا،
مَرَّرت كفها فوق الكلمات في الفراغ ثم تحسستها،
التفتت نحوي وهَمَّمت بضربي وهي تخلع مركوبها، لكنها
تراجعت في آخر لحظة لَمَّا ظهر أبي قادمًا نحونا،
احتواني برفقٍ فلم يكن هناك خطر وشيك من أُمِّي في
وجوده، غابت أنيابها وتبخَّرت عاصفة غضبها، فقط
عادت تنظر للحائط مرددة بحسرة:

- حرام على دينك ده احنا لسة مبيضين الحيطان يا
بنت الكلب.

انبرى أبي مدافعًا كالعادة قبل أن أرد:

- ده كلام ربنا..

- طالما كلام ربنا يبقى خير.

رَدَدَتْهَا أُمِّي عَلَى مَضِضٍ بَغِيرِ اقْتِنَاعٍ وَانصَرَفْتُ وَهِيَ تَلْوِي شَفْتَيْهَا، كَيْفَ فَاتَ عَلَيْهَا أَنْ أَبِي لَا يُجِيدُ الْقِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ مِثْلَهَا، رُبَمَا تَغَاضَتْ عَنِ إِحْرَاجِهِ أَوْ خَافَتْ مِنْهُ، فَقَدْ كَانَ قَاسِيًا مَعَهَا وَعَلَى النَّقِيضِ مَعِي، تَبَخَّرَ الْأَمْرَ بِسُرْعَةٍ لَكِنَّهُ بَقِيَ بِذَاكِرْتِي مَعَ أَشْيَاءٍ أُخْرَى كَثِيرَةً بَعْدَهَا.

رَاحَتْ أُمِّي تُعِدُّ طَعَامَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ مَعًا فِي وَجِبَةٍ يَتِيمَةٍ، يَتَنَاوَلُهَا أَبِي مَعَنَا يَوْمِيًّا عِنْدَمَا يَعُودُ مِنَ الْغَيْطِ مَعَ زَوَالِ الشَّمْسِ، عُدْتُ لِحَجْرَتِي وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي حَفَرْتَهَا بِالْمَسْمَارِ تَرْنٌ فِي أذْنِي، تَعَلَّمْتُهَا فِي الْمَدْرَسَةِ وَلَا زَالَتْ عَصِيَّةً عَلَى فَهْمِي..

"اللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لِكُلِّ طَلِبَاتِنَا.. لَكِنَّهُ يَنْفِذُ وَعُودَهُ كُلِّهَا".

طَلَبْتُ مِنْهُ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا فِي صَلَاتِي أَنْ يُخَلِّصَنِي مِنْ شُرُورِ أُمِّي، لَكِنْ أَبِي هُوَ الَّذِي رَحَلَ مَبْكَرًا.

كلما أتيت إلى هنا تذكرت أمي، ما فعلته بي ومعني
 ينهش ذاكرتي، عشر سنوات مرّت أمام عيني كقطار
 سريع، فلم أستطع تمييز عدد عرباته ولا ركابها،
 يُذكّرني المكان بحزني، يُجسده أمامي كثعبانٍ يلدغني
 من ذات الجحر مرّات ومرّات، لم يَعد هناك ما يربطني
 ببيتي، فقدتُ بوصلتي لما صبرت حين كان يتحتم
 عليّ البكاء، وبكيت حين كان يتعين عليّ الصبر.

قبل زواجي طارت آمالي في الحفاظ على بكارتي من
 زوج أمي، افترسني بغتة وأنا نائمة في البيت وحدي،
 نزع عني جلبابي وجذب سروالي بقوة، كنت وقتها
 ضعيفة.. هشة.. مُستسلمة.. لم أجرؤ حتى على
 المقاومة، مثلما تطير أوراق الشجر فزعًا من رياح
 خريفية هبت فجأة.

عرفت بعدها أنه وضع لي مخدرًا خفيفًا بطعامي، أبقى
 على وعيي لكنه سلب إرادتي، ماتت أنوثتي من يومها
 حتى دفنها زوجي خضر من بعده. ربما لم أكن يومًا
 عذراء، فمنذ طفولتي وأنا حُبلى بوهم الحرية، أحلم بها
 وأتخيلها لكني لا أنام بعمق لأرى حلمي، مثلي مثل

خِضْر، كلانا ينتظر ما لم يحدث أبدًا، مع أننا من داخلنا نعلم علم اليقين أنه مستحيل الحدوث.

لا يتركني خضر بالبيت وحدي أبدًا بسبب غيرته، وكلما أتيت إلى هنا شعرت أنهم يعرضون قصة حياتي، يعيدون أهم مشاهدها وأكثرها قسوة، ليحفر الزمن كل مرة أخدودًا عميقًا من الجراح بقلبي.

- يا قوي يا رب..

يعلو صوت سائس الخيل بالعزبة للمرة الثالثة زاعقًا بينما قدماه غائصتان في روث الإسطبل، أسمعاه وأراه بوضوح من مكمني، يدفع مؤخرة الحصان بقوة مع زوجي خضر وقد وضع ذيل جلابه بين فكّيه، يُحَقِّزان الحصان على التزاوج من مُهرة متوترة، واقفة في ركن شبه معتم، شامخة في كبرياء، تبدو مُتقبلة لنصيبها من حصان بائس بانتصابه الضعيف الذي لا يُغري بَغلة على التزاوج، تلك هي المرة الثالثة التي يفشل فيها هذا الحصان الهَرَم في اعتلاء أنثاه، يبدو عقيمًا، هكذا ظن السائس، لكن خضر انبرى مدافعًا عنه وهو يهيم

بلطمه، وعبارات السباب تتطاير من بين شفثيه كالرذاذ، مثلما يفعل عندما يكون منفعلًا.

- اركب يا بتاع الكلب.. اركب..

تندفع الكلمات من فم خضر بالتوازي مع ضرباته، يُلهب مؤخرة الحصان بالعصا الرفيعة، يفلح الحصان بالكاد لثوانٍ معدودات ثم يخور فجأة، تبتعد الفُهرة عنه بخطواتٍ مترددةٍ وعيون قلقة، تلتفت له نصف التفاتة، ربما تحثه على محاولة رابعة لما تأججت رغبتها بعدما تحركت غريزتها، يُطرق الحصان بعيونٍ شبه دامعة، الزمن والهزال نالا منه، فترت الشهوة وصارت رفاهية فيما يبدو.

اقترب خضر من الحصان منادياً على السائس ليُساعده، تهاوى الأخير مُتعبًا، مُستندًا برأسه وظهره إلى جدار الزريبة بعدما نظف أسفله ليستريح، مال بجسده لليمين قليلاً وأطلق ريحًا متدافعًا من مؤخرته كأنما يُعلن رفضه، ثم أشاح بيده لخضر يائسًا من محاولة جديدة، راح بعدها في سباتٍ عميق، لكن خضر

عني لا ييأس، التفت ناحيتي وهو "يزغر" لي بعينه
 كي أساعده، ارتعد جسمي كله من نظراته، فيما يبدو
 لمح لمعة في عيني بعدما تلصت على المحاولة
 الفاشلة.

لا أعرف إن كنت أضحك أم أبكي.. في الحالتين ينفرج
 فمي وتضيق عيناى وقد يعلو صوتي أحيانًا، لكن
 حلقي دائمًا مملوء بالمرارة، تلك المرة تصعبت بشفتي
 ثم ابتسمت، كتمت ضحكة بالكاد بين ضلوعي حتى
 أفلتت مني.

سبني خضر كعادته وتلفت حوله باحثًا عن شيء
 يقذفني به، سبقته ممسكة بحجر قريب، ألقيته بغيظ
 صوب الحصان العاجز فصله وانتفض.

- بتعايريني يا فاجرة يا بنت الكلب!

بدا خضر كمن مسه الجنون فجأة، خلع مركوبه
 ليقذفني به وهو يهم بملاحقتي، فاحت رائحة الخوف
 مني، أدبرت مهرولة، بالكاد وصلت الدار قبله، لحقني

قرب القرن قبل أن أدور حوله، جذبني من طرحتي،
 طرحني بسهولة، تمكّن منّي مثل دُمية صغيرة، انهال
 عليّ صفعًا، أخفيت وجهي في حجري من كفيّه
 الكبيرتين، لم أعد أسمع سوى سبابه المتلاحق، ركّني
 في بطني فتكوّمت كالجنين، كتّمت آهاتي، فكلما
 صرخت زادت شراسته معي.

شعرت بسكون للحظات.. طالت قليلاً ثم صارت
 مصحوبة بخرفشة وطققة، فتحت نصف عين
 مترقبة، رأيته يعبث بمقطف قريب، شهقت، فالمكواة
 الحديد ستكون بين يديه بعد بُرهة، يُحمّيها ليكوي
 جسدي مثلما فعل العام الماضي والذي قبله لما تبين
 كذب حملي لمرّة ثالثة، لا يُصدق أبدًا أنه عقيم، مقتنع
 بأن العيب مني ويُعاقبني عليه كل مرّة، بحثت عن
 طريق النجاة وسط كراكيب الدار، لكن جسد خضر
 الأشبه بجدارٍ عالٍ من الطوب الأحمر صار يسد عليّ
 سكك الهروب.

راح خضر يُحمي المكواة وهو يُردد عبارات الوعيد،
 يبرطم بأنني سبب رفض المهرة للفرس، اعتدلت

برقدتي، شددت أعصابي، انتفضت فجأة بعدما لمحت
عصا الرحايا قريبة مني، أطبقت عليها بكفي، هويت
بها فوق رأسه فهشمت نافوخه وظللت أتابع نوافير
الدم المندفعة في زهول.

خضر لا يزال مُتسمِّراً في مكانه، عيناه تميلان
للجحوظ وترتفعان لأعلى، ندت منه آهة عالية وهوى
بعدها، ليرتفع صراخه عندما لفحت المكواة بطنه
وفخذه، تلوَّى فجأة لثوانٍ ثم سكن بلا حراك. مات
خضر.

برقت عيناى وأنا أتأمله مرتجفة، سرى الخوف
كجحافل نمل تحت جلدي، لا أصدق أنني قتلته، نيّتي
كانت ضربه فقط، جريت حافية وسط الغيطان، بكيت
بكاءً صامتاً حتى ابتلت مقدمة جلبابي، تشوّش نظري
فغشيت عيناى، فركتهما حتى كدت أقتلعهما من
محجريهما، وقفت في مفترق طرق، أذهب لمحطة
القطار أم أستقل سيارة أجرة؟ وفي غمار انشغالي
نسيت أن أطرح على نفسي السؤال الأهم: إلى أين
أذهب؟

بيت القبطية - 2



3

تظاهرت بأنني لم أسمع برطمة رمسيس بتوقعه
رحيلي مبكرًا من هنا، رحت أتفقد الاستراحة عاقدًا
يديّ خلف ظهري، رأيت أن أستعرض له معلوماتي عنها
بعدها لاحظت نظرة بعينيه تشي بأنني لا أدرك ما
ينتظرني هنا ، أعرف أنها في الأصل سُيدت لمهندس
ري إنجليزي كان مسئولًا عن شمال الصعيد، عاش فيها
سنوات طويلة حتى وجدوه مُلقى في حديقتهامقتولًا
بعيارٍ ناري، كان ذلك أوائل الأربعينيات بعد تولّي الملك
فاروق عرش مصر بسنواتٍ قليلة، قيل إنه قُتل بسبب
مشاجرة مع أحد فلاحي القرية واسمه عبد الله، لكن
ثبت بعد التحقيق وقتها أن عبد الله هذا كان يجلس
على مقهى بعيد طوال اليوم، وبالطبع شهد العشرات
معه فحُفظت القضية ضد مجهول.

قاطعني رمسيس بحماس من يعرف بقية القصة:

- ما همّا الإنجليز ماسكتوش و...

- أصبر ما أنا جايلك في الكلام يا عم رمسيس..

استرسلت في القصة شارحًا كيف أن قرار حفظ التحقيقات ضايق الإنجليز فضيَّقوا على أهل القرية، انتقموا لمهندس الري الذي مات مغدورًا وتفَرَّق دمه بين الأهالي، جفَّت أرضهم وماتت محاصيلهم، مع أن الحكايات تُروى عن عشق ابن الخواجة البريطاني لابنة الفلاح الجميلة "نور"، لكن المحبة ماتت أيضًا في قلب الابن ولم تشفع لهم. مع الوقت صار غالبية أهل القرية من الأقباط الذين وفدوا إليها من جنوب الصعيد، بعدما هجرها المسلمون للدلتا، فأسمها الناس قرية "أبو صليبة" وبعدها..

قاطعني رمسيس للمرة الثانية منفعلاً:

- صليب ده يبقى سيدي ، جالهم من أسبوط وعلمهم شغل الكليم اليدوي لغاية ما بقوا أشهر قرية في بر مصر في عمايله.. بس تقول إيه على قلة الأصل، بدل ما يشكروه راحوا يتمسخروا على اسمه..

تجاوزت غضب رمسيس وقصة جده لأمه وأكملت حكايتي ، قافراً بالأحداث حتى قيام ثورة يوليو وكيف سُميت القرية بالطايع نسبة إلى محمد طايع عمدتها آنذاك، لكنهم من وقتها يُصرون على نُطقها "التايهة"، يبدو أنها نكاية في عائلة العمدة محمد طايع، الذي يُروى عنه تأييده للثورة منذ يومها الأول رغم أنها نكّلت بالأهالي الأقباط من أصحاب الفدادين الكثيرة، لما قبضت على بعضهم وصادرت أرضهم وسجنتهم قبل مرور عامين على قيامها، ويُقال إن العمدة طايع ذبح عجلين كبيرين، سمّى أحدهما فاروق والآخر فؤاد، فزارها جمال عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وقتها، وأبقوه عمدة للقرية حتى مات، ومن بعده ورت أبناءه العموديّة حتى اليوم.

وضع رمسيس يداً على خده وأخرى بين ساقيه تركها تتأرجح في الفراغ، ثم مطّ شفتيه بامتعاضٍ قائلاً:

- وشربوا الشاي في بيته كمان يا نادر باشا، وباتوا ليلة لما حلف عليهم بالطلاق، وأخذوا معاهم زيارة مشّ وفطير وهما مروّحين!

التفتُ إلى رمسيس المتهم في رده، غير المقتنع بما رويته له عن تاريخ الاستراحة، بعدما طلبت منه الجلوس معي ليحكي لي عن طبائع أهل القرية من باب قتل الوقت، فالليل هنا يشي بأنه موحش طويل والنهار عمره قصير، فوجدتني الذي يحكي ورمسيس من يتسلى.

ضحكت على تعليقه، ثم استرسلت سائلاً إيّاه بجديّة:

- قول لي صحيح يا عم رمسيس هو أنت مش مصدق الحكاية كلها والا زيارة عبد الناصر والعجول هي اللي مش داخلة نافوخك؟

- أهي كلها حكايات يا باشا طالعة من بيت طابع.. وفي غيرها حكايات ياما على كل لون، فات عليها سنين وما حدش عارف أصلها، أصل الناس في بلدنا بتكذب الكدبة وتصدقها.

سكت قليلاً كمن يبتلع ريقه، ثم أردف بنبرة غامضة:

- نور بنت العمدة هي سبب المصايب اللي حصلت هنا زمان لما طارت زي حمامة النار، وتاهت واختفت من بعدها، يمكن علشان كده بنقول عليها قرية التايهة من وقتها، وأهي كلها حواديت، وطايعة من تايهة مش فارقة، الاتنين ما يملكوش من أمرهم حاجة.

هرش رمسيس مؤخرة رأسه، ثم سألني على استحياء:

- هو اسم الباشا الكريم بالكامل إيه؟ أصل المحكمة بلّغتنى في الإشارة بالاسم ثنائي بس.

- وبتسأل ليه يا عم رمسيس؟!

بدا الارتباك على الرجل، لكنه استدرك بسرعة فائقة، كأنما ارتبأكه مجرد ومضة عابرة، مُردفًا:

- علشان أصرف تموين الاستراحة على اسم سعادتك، يعني نبقى بتوع القانون ونخالفه ؟

- اسمي نادر فايز كمال والتموين كله على حسابي أنا.. من ماهيتي يا رمسيس، ده لو عاوز تمشي حسب

القانون زي ما بتقول.

- سعادتك أكيد من أسيوط.. صح؟

اكتفيت بابتسامة غامضة أقمتهأ له بسرعة، أنقده مائة جنيه مؤقتًا لزوم التموين الأسبوعي، أخبرته بميعاد إفطاري في الثامنة صباحًا، ذكرت له صنوف الطعام التي أحبها، سلّمني مفتاحين للبابين الأمامي والخلفي، وغادر بعدها إلى أحد المبنيين القرييين من الاستراحة.

ظللت أرقبه من بعيد وأسمع صوته وهو يدندن بموَالٍ غريبٍ لم أسمعهُ من قبل..

"شجرة محمد علي كبرت.. قطعها جمال

رقبتي كانت سمسمة.. رفعها جمال

يا مسا الجمال.. يا مسا الدلال "

ثم سكت تمامًا لَمَّا ابتلعه الظلام فجأة.

شقَّ السكونَ جرسَ هاتفي المحمول، وجدت خطيبتني
تطمئنُّ على وصولي، عاتبتي بحِدَّةٍ كعادتها لإغلاق
هاتفي، خرجت كلماتها مندفعة متلاحقة كطلقات
فأصابتني بالصداع بسرعة، عبثًا حاولت إفهامها أنني
لم أغلق الهاتف، وربما يكون الإرسال هُنا ضعيفًا، لكنها
لا تسمعني جيدًا أبدًا، اضطرتت لتكرار ما قُلت عدة
مرات، لتردهي في النهاية بعصبية:

- ما كنت تقول كده من الأول بدل ما تحرق دمي
وتقلقني عليك!

تبدَّلت وصارت نبرتها ناعمة، ذكَّرتني بضرورة متابعة
السؤال عن قِطْع الأراضي المخصصة لوزارة العدل
بالمدين الجديدة كي نحجز فيها قطعة أو اثنتين
لنبيعهما بعد ذلك لما يرتفع السعر، أو نبيع إحداها
ونبني على الأخرى فيلاً صغيرة، تمتت بكلمة "حاضر"
عدة مرات متتابعة لإنهاء النقاش. كنت كمن يسكب
الماء بغزارة على النار لتخمد، لكنها لم تسكت.

رحت أحكي لها عن روعة المكان هنا وهدوئه ولقائي
برمسيس فبدأت تتشاءب، ثم تغير صوت التثاؤب لما
حلّت سيرة الأرض مرة ثانية لتبتلع حكاياتي، ارتفع
صوتها مُذكرًا بزواج شقيقتها الذي تخرّج في كلية
الشرطة، ثم التحق لفترة قصيرة بالنيابة العامة ولم
يعجبه الحال بها ، فاستقال منها أيضًا، الآن صار
مستشارًا بهيئة قضايا الدولة.

راحت تُعدّد المزايا التي يحصل عليها من انتدابه بأربع
وزارات في وقتٍ واحد، سيارتان كل واحدة بسائق من
وزارتين وسيارة للبيت، وأربع بدلات للانتداب، كل منها
يُضاهي مرتبه الأصلي تقريبًا، فضلًا عن علاقاته التي
توطّدت بكل وزير بهذه الوزارات، خاصة وزير
الإسكان.

حاولت مقاطعتها فلم أفلح، جرّبت إسكاتها برفع
صوتي.. ففشلت، ضغطت زر إنهاء المكالمة فجأة، ثم
رفعت إصبعي وعاودت الضغط مرة أخرى لفترةٍ حتى
سكت الهاتف، لا توجد حلول ناجعة مع خطيبتني سوى
هذا الحل الباتر، وفي الصباح كعادتي سأرسل لها نص

الرسالة المخزنة على هاتفي قبل الاتصال بها، لأضمن أنها ستقرأ بلا مقاطعة..

"للأسف لقد فرغت بطارية هاتفي.. افتقدت حديثنا ليلة أمس بشدة"، ثم أعتذر لها ونتجاوز الأمر مثل كل مرة.

نفضت الموضوع برمته من رأسي، ألقيت نظرة خاطفة على معصمي، عقارب الساعة تقترب من المعانقة التامة احتفالاً بيومٍ جديد، تضاءلت وصعدت مَهِيئاً للنوم، اخترت إحدى غرف الاستراحة القبليّة. قبل أن أخلع رابطة عنقي، تناهى إلى سمعي طرقات متتالية على باب الاستراحة بلا توقّف، ترتفع مع كل دقة كأنها ستخلع ضلّفتيه بعد قليل.

تذكرت كلمات زميلي السابق وهو يؤكد على ضرورة إحضار سلاحه الناري الشخصي معي، تحسّست جانبي الأيسر، ارتبكت أكثر والطّرقات تتعالى وتيرتها بعنف، بالفعل معي طبنجتي.. لكنها بدون رصاصات.

بيت القبطية - 3



4

هرولت في الغيطان حتى وصلت إلى محطة القطارات، وقفت ألتقط أنفاسي وضلوعي تكاد تُمزق صدري، دسست كفي بين ثديي، أخرجت نقودًا من كيسي الصغير، تقدّمت بحذر نحو شباك التذاكر مرتبكة، أتلفت خلفي كل بُرهة.. التقط المُحصّل الورقة المالية مني ودون أن يرفع رأسه نحوي سألني عن وجهتي، أصابع يديه تهتز بسرعة فوق الدفاتر قبل أن تستقر على إحداها، ترددت حتى التقطت جملة عابرة من بائع جرائد مر مصادفة بجواري، لم أُميز منها إلا ما يفك طلاسم حيرتي، فقلت بصوتٍ خفيضٍ متردد: "بني سويف".

على مقعد بالدرجة الثانية جلست قرب بابٍ مفتوح، تجمّع حوله شباب ورجال يُدخنون، يتبادلون أحاديث عالية تغطي على ضوضاء أخرى آتية من احتكاك العجلات بالقضبان، مضى القطار ينهب الأرض من تحته بلا هوادة، أغمضت بقوة لأمنع دموعي، الصوت يعلو ويدق جنبات رأسي، القطار يُسرّع ويدهس كل ما

يعترض طريقه مثلما دهس خِضْر بضع سنين من عمري، لويت شفتي وأنا أغمغم: "المرحوم خِضْر".

رُحْتُ أصلي وأدعو ألا ينكشف سري، بعد نصف الساعة شعرت برأسي يسقط على صدري، حاولت إيقاظ نفسي فأحكمت ربطة المنديل على جبهتي حتى ضايقني، فجأة علّت صافرة القطار ثم أبطأ من سيره وتوقف.

تململت في جلستي، شعرت بحاجتي إلى هواء نقي، تقدمت بهدوء ناحية الباب المفتوح، أفسح لي الواقفون مجالاً به خصوصية مقبولة، عبّأت رئتي من النسيم المنعش بنهم، ما زال جسدي ينتفض ويدي ترتعش، سمعت جلبة فتلفتُ حولي، وقعت عيناى فجأة على ضابط شرطة بزيّه الميري الكاكي، خلفه صول بكرش متهدلة وعسكري نحيل كما القلم الرصاص في ذيلهما، يسألون كل راكب عن بطاقته، حتى صار بينهم وبينى صفّان من المقاعد، لمحت نظرة في عيني الضابط تشي بأنه اشتّم رائحة خوفي، فبدأ يتهيأ لتجاوز الصّفين المتبقيين والانقضاء عليّ.

لا أعرف ما الذي دار بعقلي، وهل صحيح أنني سمعت
 من يقول إنهم يبحثون عن قاتل خضر أم أنها مجرد
 تهيؤات، كل ما أدركه أنني هرولت نحو باب العربية، ثم
 قفزت من القطار وأطلقت لساقي العنان وسط زهول
 من كانوا يُدخنون، لم ألتفت لهم ولم أهتم لصياح
 أحدهم من بعيد:

- ارجعي يا ست.. هنا فيه ديابة!

ظللت أجري حتى عبرت غيطانًا كثيرة، اجتزت قناية
 ضيقة وبركة راكدة من بعدها لكنها أعرض قليلًا
 فتعثرت يُسراي، ملث للخلف وفقدت توازني ثم
 سقطت، غاص نصف جسدي بالوحل، حاولت تجفيف
 جلبابي دون جدوى، اسودَّ لونه وشعرت بثقله، بعد
 قليل اشتممت رائحة عطنة تفوح منه، أبت ألا تُفارق
 أنفي رغم أنني حكته بقوة.

واصلت السير وقدماي الحافيتان تؤلمانني حتى رأيت
 مسجدًا صغيرًا شبه مظلم، لكنني لمحت ضوءًا خافتًا
 ينبعث من المبنى المجاور له، تمتمت شفتاي لا إراديًا

باسم سُنَّا العدرا، استنجدتُ بها باكية، علا صوتي
مرددة: "تدعو فأنا أجيبك.. تدعو فأنا أجيبك".. سرت
في طريقي نحو النور حتى وجدت شيخًا مُعمَّمًا ظهر
أمامي فجأة من وسط العتمة قائلاً:

- إنتي مين وعاوزة إيه الساعة دي؟!!

ارتبكت قليلاً قبل أن أجيب بعفوية وأنا أصوّب بصري
نحو النور:

- أنا نور.. اسمي نور.

- نور؟! يا خفي الألفاف نجّنا ممّا نخاف، اللهم اصرف
عنا غضبك ومقتك.. معاكي بطاقة؟

ازداد ارتباكي لاختياري اسمًا تسبب في انزعاج الشيخ،
فتمتت بتلعثم قائلة:

- بطاقتي اتسرقت من فترة وأنا غريبة مش من هنا

و...

- إيبيه.. كلنا غرباء في الدنيا.. اسم أبوكي إيه وبلدكم
فين؟

- نور رزق.. أنا من أسيوط وأبويا كان عمدة هناك
ومات من زمان، كنت بازور جماعة قرايبي هنا والوقت
اتأخر وفاتني القطر ومحتاجة أبات للصبح في الجامع،
وبكره حاتصرف واسافر يا عمي الحاج.

- دي مضيقة ودار مناسبات مش جامع، صلي على
النبي الأول يا بنتي واهدي كده علشان نفهم حكايتك.

ارتعش جسدي كله، خفت من سهام نظراته التي
تخترق صدري، تكشف حقيقتي عارية أمام عينيه
الثابتين، منتظرًا بلهفة تأميني على كلماته، غمغمت
مضطرة بالصلاة على الرسول محمد وسلّمت، ثم
أكملت سرًا داعية العدرا لثنجيني، رغم ذلك امتعض
الشيخ وتقلّبت سحنته وبدا غير مصدق لحكايتي
وكوني تائهة، مع أنني كذلك بالفعل.

بالكاد سمح لي بالمبيت في المضيقة ولم يسألني أسئلة أخرى، ربما لم يشأ دفعي لكذبة جديدة، وربما أزعجه نواحي وبكائي فاشترى راحته حتى الصباح. التفت نحوي وهو يُسبِّح ويستغفر مقررًا بنبرة غاضبة حاسمة أنني لا بد وأن أغادر مع أول خيط نور، أومات بالإيجاب وأنا أقبض بأصابعي على طرف كُمِّي، خفت أن ينحسر فيظهر الصليب المدقوق برسغي، بعدما لاحظت أن الشيخ ينظر نحو كُمِّي، ثم علا صوته منادياً خادم المضيقة المقيم بحجرة مجاورة، لكنه همس له بما لم أسمع.

مضى الشيخ رجب حسبما ناداه الخادم مُتلمِّسًا طريقه على ضوء هاتفه المحمول حتى طواه الظلام بعد قليل، ظلت أتابعه من وراء نافذتي، تنهدت ومسحت دموعي شاكرة العدرا على استجابتها ونصرتها، لأفاجأ قبل أن ألتفت بيدٍ غليظة تُرَبِّت كتفي، انتفضت، رأيت خلفي وجه الخادم ضاحكًا في بلاهة، كاشفًا عن صفِّي أسنان متعوجة يعلوها سواد طفى على صُفرتها البنية، ارتعشت مبتعدة بخطوة، لتعلو ضحكة الخادم الذي لم

يخفض بصره نهائياً عن نهدي، وضع بطانية رقيقة من الصوف على السرير المعدني المرتفع قائلاً:

- والحلوة منين في أسيوط؟ أكيد من البداري.. طول عمرها بتولد حوريات.

لم أرد، لا أتذكر الآن اسم مركز من مراكز أسيوط، طارت من ذاكرتي فجأة، خفت أن أجاريه فأخطئ، هداني عقلي لكذبة أخرى، قلت وأنا أنظر نحو النافذة وأعيد نظري إليه بسرعة:

- يكون في معلومك أمي من هنا.. أومال إيه.. بس أنا زعلت شوية مع جوز أمي، وراجعة أسيوط لجوزي وعيالي من بكرة الصبح.

جلس الخادم على حافة الفراش، عبث في جيب جلبابه باحثاً عن علبة ثقاب يشعل بها سيجارته، زفرت في ضيق، فجلسته ستطول وقد تمتد لأكثر من سيجارة، لم يخب ظني، فقد طالت فترة صمت تفرّس

فيّ خلالها، حتى بادرنى بالقول وهو يستعد لإشعال
السيجارة الثانية:

- أعمل لك كوباية شاي معايا؟

- لأ شكرًا يا بن عمي.. أنا تعبانة وعاوزة أنام .

- هي أمك اسمها دُميانة ودارها غرب السوق كده؟

فاجأني سؤاله فأجبت بلا تفكير فاردة ذراعي عكس
الاتجاه الذي أشار إليه:

- لأ.. اسمها هدى.. ودارها بحري كده جنب الترعة.

بدت الحيرة على وجه الخادم فارتبكت من نظراته،
لوى شفّتيه وهو يتفّرّس في جسدي مليًا من أعلى
لأسفل، ثم عبث بإصبعه في فمه لفترة حتى عثر على
ما علق بين أسنانه، فركه وألقاه بعيدًا بالحجرة قائلاً:

- يبقى أكيد إنتي جارة أبونا صمويل؟

ترددت في الإجابة، لكن مع ملامح ابتسامة خفيفة على شفتي الخادم أومأت بالإيجاب، ابتسم لي نصف ابتسامة ثم "قطمها" فجأة وسلّمني مفتاح الغرفة منصرفًا دون أن ينطق بكلمة. ما كدت أغفو حتى طرق الخادم بابي مرة أخرى فانتبهت، سألته من وراء الباب عمًا يريد، أخبرني أن الشيخ رجب أوصاه بي، ثم أردف:

- يا ست نور أنا عملت لك كوباية شاي مضبوطة والسكر برة، ودي فطيرة مشلتة وشوية جبنة قديمة يستاهلوا بئقك، تلاقكي على لحم بطنك.. أنا سايب لك الصينية وماشي.

بعدها سمعت بابًا يُفتح ثم يُغلق ببطءٍ وصوت قدميه تبتعدان.

خاصم النوم جفني، تقلّبت على مدار الساعة في فراشي، في البداية ظننتها تهيئات من فرط خوفي، لكنني الآن متأكدة أنني أسمع همسًا قريبًا من حجرتي يدور بين رجلين، انسبت من فراشي بهدوء كقطة

مُتَنَمَّرَةً، اقتربت من الباب، وضعت أذني عليه حتى
ألصقتها به وأرهفت السمع، كان الخادم يحكي لآخر أنه
وضع لي منومًا بالشاي ومعه مفتاح آخر للغرفة،
وينتظر اكتمال الساعة حتى يدخل عليّ، ليهمس له
زميله محذرًا:

- ماليش صالح بيك.. لو الشيخ رجب عرف إني
سلمتك المفتاح الثاني حتبقى وقعتك سودة لوحدك..

- ما يعرف.. أنا جاهز له بالرد، ومن دقنه وافتلّه، ما هو
ليل نهار يقول لنا النصارى كفرة ونسوانهم حلال،
وحرام نعيّد عليهم، وبندعي عليهم وراه كمان كل
جمعة وقت الصلاة، خلاص يا حَيِّ مصر حتخرب يعني
لو ركبت البت النصرانية الكدابة دي؟ جت عليا أنا
ووقفت عندي؟!

ظل الرجل الآخر على حذره يحاول أن يثنيه عمّا يدور
برأسه ويهدي شيطانه، قائلاً بنبرة منفعة:

- ما يمكن البت غلبانة فعلاً واستنجدت بيكم، اعتقها لوجه الله وبطل طفاصة.

- إنت أصلك على نياتك، أنا لمحت الصليب الأخضر مدقوق على إيدها وأقطع دراعي إن ما كانت هربانة من جوزها لما مسكها مع عشيقها. اخرج من نافوخي أنا مكلفه الليلة، كل اللي عليك تأمن باب المضيقة وأنا مش حجب سيرتك، والخمسة جنيه رقدت في جيبك خلاص.. قلت إيه؟

- قلت حلال عليا الخمسة جنيه وماليش صالح بيك زي ما رسيتك.

لطمت خدي بلا صوت، تدافعت دموعي، تلفت حولي بالحجرة، نظرت إلى كوب الشاي والطعام قرب فراشي، شكرت ربنا لأنني لم أقربه، عقلي يدور بسرعة لما سمعت وقع أقدام تبتعد، ثم تعالت أخرى غيرها بالتدريج، أنفاس ثقيلة تلهث ببطء وتعلو وتقترب، أعقبها صوت مفتاح يُحشر محاولاً الاستقرار في ثقب الباب استعداداً للدوران.

"غيتيني يا عدرا.. غيتيني يا عدرا".. تمتمت بها مرتين
ثم أغمضت عيني.. اقتربت من النافذة، علا من خلفها
صوت غريب، مخيف ، مكتوم ، لكني لا أرى شيئاً،
فراعني ما سمعت.



5

اختلست نظرة عابرة من النافذة لعلها تطمئنني فهالني ما رأيت، أبصرت جمعًا من الفلاحين لا يقل عن عشرين، غالبيتهم يحملون مصابيح زيتية ومشاعل ترتفع ألسنة اللهب منها، همهمة عالية تصدر عن بعضهم لا أميزها، كبيرهم على ما يبدو هو الذي يتوسطهم، يحافظون على مسافة بينهم وبينه، تسمح له كل فينة وأخرى باستبدال عباءته على كتفيه وفرد ذراعيه. الكفوف لا تتوقف عن طرق باب الاستراحة حتى كادت تخلعه، هرولت مسرعًا على السلم الخشبي الذي يفصل بين طابقي الاستراحة، فتحت الباب راسمًا على ملامحي ضيقًا مضاعفًا، لأجد الجمع أكبر ممَّا توقعت، يتوسطهم رجل وقور أشيب، يضع نظارة قديمة سميقة على عينيه وله شارب رفيع. رفع كفه عاليًا فسكت الجمع المصاحب له، خرسوا في لحظة، فابتسم وهو يقول لي بثقة:

- أنا المستشار رضوان يا بني.. تسمح لنا بالدخول؟

لمحت رمسيس وسط الجمع، يُعافر كي يشق طريقه
بينهم، تلاقت عينانا فقرأت فيهما تحذيرًا لم أفهمه،
أفسحت الطريق للمستشار رغم ذلك قائلاً:

- أهلاً وسهلاً.. بس الحقيقة مفيش كراسي هنا تكفي
ضيوفاك يا معالي المستشار.

قهقه الرجل وهو يدخل مع رجاله في طوفان بشري
غمر الصالة في ثوانٍ قائلاً:

- واضح إن سعادتك جديد في الصعيد يا نادر بك،
الأرض واسعة والدار دارنا.

جلس الرجل متوسطًا الأريكة وافترش من معه أرضية
الصالة، عدا واحدًا عفيًا عريضًا وقف وراءه مستندًا
بكفيه الكبيرتين إلى عصا غليظة مثل ملامحه، بينما
ظل رمسيس واقفًا خلفي بكبرياء كأنه ملاكي
الحارس.

- ما اتشرفناش بالعيلة الكريمة يا نادر بك؟

التفتُ إلى رمسيس مبتسمًا، فوجدته يُجيب المستشار رضوان بدلًا مني وهو يضغط على مخارج حروفه:

- نادر بك فايز ومن أسيوط كمان!

الأخيرة من عنديّاته لكنني تجاوزتها مؤقتًا مثلما تجاوز هو اسم جدي، لا بأس حتى نرى ما مشكلة هذا المستشار، تحدثت معي بأريحية كمن يعرفني منذ زمن بعيد، سألتني عن أمور العمل العامة كما لو كان رئيسي الأعلى، استرسل في عنجهية لا تجد ما يُبررها.. تفادى تفاصيل في إجاباتي تعمّدت ذكرها عرضًا بالخطأ.. فساورني شك راح يكبر بسرعة لَمَّا وافقني عليها، قاطعته بلُطفٍ سائلًا عن المحكمة التي يعمل بها حاليًا، ببرودٍ جاء ردُّه أنه على المعاش، قبل أن يدخل في الموضوع الذي أتى من أجله وقد لاحت لي مقدماته، عُدت لسؤاله بإصرار عن آخر محكمة عمل بها، قال بصوتٍ خفيضٍ وهو يُدير عينيه بسرعةٍ بين رجاله:

- أنا يا بني الحبيب كنت مستشار قانوني في هيئة الصرف الصحي.. موش في القضاء.

- آه قول كده.. محامي الحكومة يعني، طيب
وحضرتك والرجالة بقى عاوزين تحجزوا على
استراحة وزارة العدل ولا إيه يا أستاذ رضوان؟

لم يبتسم لتهكمي سوى رمسيس، اسودّت الوجوه من
حولي وأظلمت أكثر من الليل الحالك خارج
الاستراحة، بدا المستشار رضوان متنمرًا، أدمت
كبريائه كلمة "أستاذ" فيما يبدو، فوضع ساقًا فوق
أخرى وهو يقول بثقةٍ لم تلتئم بعد:

- عاوز حقي وحق ناسي.. عاوز أرضي وطيني، عاوز
أحمي حقوقي من ولاد بيشوي يا نادر باشا.

- طيب.. حاضر.. الصُبح إن شاء الله حضرتك تنورنا
في المكتب ونشوف.

- صُبح مين يا باشا هو إحنا لسه حنستنى لما الشمس
تطلع علينا ونعمل محاضر؟! أنت النيابة ذات نفسها،
تلاتة بالله العظيم ما أنا قايم من هنا إلا ورجلي على
رجلك تعمل معاينة للأرض وتمكّني منها!

تبادلت نظرات بلا معنى مع رمسيس، وجدت وجهه مكفهرًا يكاد ينطق بالرفض، ظللت متراخيًا كسولًا كأنني لم أسمع ما قاله المستشار رضوان المنشغل بمكالمة في هاتفه المحمول أجراها خلسة، بعدما أخرجه من جيب عباءته في خفة. طالت حيرتي حتى تجاوزت صمتي، وبانت على ملامحي فيما يبدو لَمًّا علّت همهمات الجالسين من حولي. فجأة دق جرس هاتف الاستراحة الأرضي عاليًا مُعلنًا الخلاص من المأزق، هرول رمسيس للرد ثم أشار بالسماعة ناحيتي قائلاً بصوتٍ جهوري كأننا في المحكمة:

- معالي رئيس النيابة على التليفون يا نادر بك.

ساد الصمت احترامًا لهيبة القضاء حتى ولو عبر الهاتف، كان الرجل ودودًا معي، رَحَّب بي كثيرًا، حدد موعدًا للقاء غدًا في مكتبه، وكلما حاولت مقاطعته كي أصف له حالي بالاستراحة فشلت، حتى باغتني هو في نهاية المكالمة قائلاً:

- المستشار رضوان عندك أنا عارف، شوف.. ده من أعيان البلد، والمركز هنا له طبيعة خاصة غير شغلك في القاهرة، انزل اعمل معاينة وطلع قرار تمكين مؤقت للمستشار رضوان، وسلّمه صورة منه بس من غير ما تعلنه لعيلة بيشوي، وبكرة أشرح لك الموضوع بالتفصيل.

- لكن يا باشا الوقت متأخر ودي مش قضية قتل علشان أنتقل للمعاينة حالاً و...

اختفت النبرة الودود فجأة لَمَّا قاطعني بأخرى أمرة جافة قائلاً:

- ده شغل يا نادر بك مافيهوش نقاوة، ودي إشارة تليفونية رسمية إثبتها بمحضرك، وياريت تتعوّد من النهارده ما تقفلش تليفونك المحمول خصوصًا بالليل.. مع السلامة.

وضعت السماعة وأغلق رضوان هاتفه أيضًا في ذات اللحظة وهو يتمتم بعبارات شكر، إذن كنا ثلاثة على

الخطأ!

أسدل رمسيس جفونه وهو يُطرق ببطء، هذا العجوز المُحَنَّن لا بد وأنه فطن لما قاله رئيس النيابة لي، سكت رمسيس برهة ثم قال وهو يتحرك باتجاه الباب في تكاسل كمن ينتظر إشارة رجوع:

- أجهز العربية وكاتب النيابة يا باشا؟

طرح سؤاله بنبرة يائسة لا أملك معها ردًا أو جوابًا سوى بنعم، نهض رضوان وعلى الفور كان الجمع كله منتصبًا حوله، وقف بجواري وهو يبتسم ابتسامة نصر واثقة، وضع يده على كتفي قائلاً:

- منتظر معاليك في العربية علشان تمشي ورايا..
وأدلك على السكة.. لأنك جديد هنا.

سِرنا في طرقٍ غير ممهدة لكنها عريضة، وصلنا بعد نصف ساعة إلى مساحة شاسعة من الغيطان، القمر في طريقه إلى خسوف جزئي، الرؤية شبه منعدمة، ربما السماء غاضبة ممّا نفعله، عاينت على أضواء مصابيح

الغاز ومشاعل رجال رضوان حدودًا فاصلة بين
 قطعتي أرض، بالكاد أرى، على ضوء لهب شعلة طالعت
 خريطة قديمة قدّمها لي رضوان، لا يبدو صاحب حق
 رغم خاتم النسر الحكومي الذي يُزين خريطته، مع
 عشرات التوقيعات الزخرفية لمدرّاء الوحدة الزراعية
 ووكلاء وزارة الزراعة والأمناء عليها.

الكل صامت مترقب، تعلو الهمهمات الخفيفة كلما
 شعروا بضجري، لا أعرف كيف ينفذون إلى وجداني
 بهذه السهولة كل مرة. ومضت في رأسي حُجة ارتاح
 لها وجداني، طلبت مسّاح القرية وصمّمت على
 حضوره، قالوا إنه نائم الآن.. تراخيت وابتسمت فرحًا
 بباب الخروج الذي انفتح، انتصبت قامتي وطويت
 أوراقِي وهممت بالانصراف، لكن سرعان ما وُئدت
 فرحتي في مهدها، ارتفع صوت المستشار رضوان
 متعجلاً رجاله لإحضار المسّاح من داره القريبة ولو
 بجلباب النوم.

من بعيد لاحت أضواء لامعة قوية، تنبعث من بُرج
 عالٍ، قال رضوان كأنه يقرأ دهشتي على صفحة عيني

ويُفسر ما عجز عنه عقلي:

- تخيّل كل دي كنيسة يا باشا وفي ثلاثة غيرها كمان في البلد وجامع يتيم .. حصار والله يا باشا.. أي والله حصار.

سكت رضوان قليلاً وهو ينظر إليّ بتوجس، لكنني لم أحرك ساكناً يؤكد ظنه، فقال بنبرة مختلفة:

- صحيح كلها بيوت ربنا والجماعة دول زي اخواتنا.. بس العدل حلو برضه يا باشا ومايصحش الكنيسة تاكل الجامع وتبلعه في عبا كده.

تجاهلت كلامه كله واستكملت المعاينة، بدا لي المسّاح مُلقنًا بعناية، كأنما أحد رجال رضوان يختبئ في عباءته الفضفاضة، التي تداري تحتها كرشًا واسعة تمددت بين طياتها حتى برزت استدارتها، فصار مثل كمبوشة المسرح، ألقيت بسؤالي على المسّاح فاستمدّ إجاباته من نظرات رضوان وأعادها لي منمقة ومرتبة بعناية.

أنهيت عملي بصورة روتينية وبأسئلةٍ نمطية، ثم دَوَّنت قراري في ورقةٍ صغيرة، سلَّمتها لكاتب التحقيق لينقلها بخط واضح بالمحضر ونبَّهت عليه بعدم إعلانه للطرفين، بعدها صافحت رضوان بفتور وأوليته ظهري ومضيت نحو سيارة المحكمة. كان وجه رضوان لا يزال يبتسم ابتسامة نصر واسعة مستفزة لا تُخطئها عين.. لكني أيضًا كنت أبتسم.

في الاستراحة تركت الماء الساخن ينساب بغزارة على كتفي ورأسي، أغمضت عيني مستمتعًا، الأوجاع تنحسر وتتساقط مع قطرات الماء المنزقة على جسدي حتى تلامس الأرض، شعرت بأن طنًا من الأتربة والحشرات كان ملتصقًا بجسمي، الآن أنا أخف كثيرًا. تدثرت بأغطية ثقيلة ورُحت في سُبَاتٍ عميق، وصورة رضوان ترافقني حتى عتبة أحلامي. رأيت طائرًا ضخماً بجناحين أسودين يطير فوق الاستراحة، يُطلق نعيقًا متواصلًا ويُطاردني وأحاول الفرار منه، كلما أغلقت باب غرفة علا الصوت قرب النافذة لأهرب إلى أخرى فيلاحقني، ثم أتى رمسيس ممسكًا ببندقية

صغيرة لا تُخيف ذبابة.. ومع ذلك أطلق منها عيارًا
مدويًا يُفزع الأسد في عرينه، تهاوى رضوان وتطايرت
ريشات أجنحته السوداء حتى سقطت إحداها فوق
وجهي وغطته، فلم أَعُد أرى.



6

نَفَذَتْ سَاقِي مَا أَمَرَهَا بِهِ عَقْلِي فِي ثَانِيَةِ وَاحِدَةٍ، كَأَنَّهَا
كَانَتْ تَرْجُوهُ لِئِخْلَاصِنِي، قَفَزَتْ مِنْ نَافِذَةٍ تَرْتَفِعُ لِأَكْثَرِ
مِنْ مَتْرَيْنِ وَنِصْفِ الْمِتْرِ عَنِ الْأَرْضِ، وَجَدْتُ أَمَامِي كَلْبًا
لَا يَظْهَرُ مِنْهُ سِوَى فَكِيهِ وَلسَانِهِ، اشْتَقَّ لَوْنَهُ مِنَ الظَّلَامِ
الْحَالِكِ، عَيْنَاهُ تَلْمَعَانُ بِشِدَّةٍ، أَصْدَرُ نُبَاحًا خَافِتًا سُرْعَانَ
مَا عَلَا بِشَكْلِ مُخِيفٍ، وَسَالَ لُعَابُهُ مِنْ فَمِهِ الْمَفْتُوحِ
وَهُوَ يَقْتَرِبُ بِحَذَرٍ، ثُمَّ رَاحَ يَنْبِحُ نُبَاحًا مُتَوَاصِلًا وَاثِبًا
نَحْوِي وَلَا يَفْلِحُ فِي الْإِنْقِضَاضِ عَلَيَّ، كَانَ مُقِيدًا لَكِنَّهُ
نَجَحَ فِي جَذْبِ طَرَفِ جَلْبَابِي، قَاوَمْتُهُ حَتَّى انْفَلَتُّ مِنْ
بَيْنِ فَكِّيهِ وَجَرِيَّتِهِ، فَكَّ الْكَلْبُ قِيُودَهُ بَعْدَهَا بِبِرْهَةٍ
وَطَارَدَنِي، سَبَقْتُهُ بِالْكَادِ لَمَّا اجْتَرَزْتَ جَذْعَ نَخْلَةٍ مِيتِ
يَقْطَعُ الطَّرِيقَ، تَوَقَّفَ الْكَلْبُ عِنْدَهُ فَجَاءَ كَأَنَّهَا حُدُودُهُ
الَّتِي لَا يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ يَتَعَدَّهَا، رُبِمَا أَرَادَ حِمَايَتِي..
لَسْتُ أُدْرِي، فَأَبِي كَانَ يَقُولُ لِي دَوْمًا ثَقِي بِالْكَلْبِ وَلَا
تَثْقِي بِصَاحِبِهِ!!

غَبْتُ وَسَطَ غَيْطَانِ الذَّرَّةِ مُتَسْتَرَةً بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ.. مِنْ
بَعِيدٍ سَمِعْتُ اسْمَ نُورٍ يَتَرَدَّدُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ عَلَى لِسَانِ

الخادم مناديًا، والكلب لا يزال ينبح، لكنني لم ألتفت
لهما، أصابني دوار بسيط شجَّعه يَأْسِي على انهيار
أعصابي فجلست أبكي في صمت، لمحت عن يميني
لافتة لم أستطع قراءة ما عليها بسبب العتمة، ثم
تبينت جدارًا لفيلاً مُخَبَّأً وراء الأشجار الكثيفة ونورها
الخافت ينطفئ، إذن لا يزال هناك أحد مستيقظًا،
نهضت وأسرعت الخُطى حتى وصلت للباب الخلفي،
طرقته بشدة، فتح لي رجل أشيب مندهش، ظل
يُحْمَلِق في وجهي دون أن ينطق، خُيِّل لي أنني لمحت
صليبًا مدقوقًا على رسغ يده التي يرفع بها المصباح،
زفرت بعمق وابتسمت ابتسامة رضا لكنه خفض ذراعه
بسرعة، فسقطت أمامه من شدة تعبي وخوفي وأنا لا
أزال مبتسمة.

لطمني الرجل برفق عدة مرات، ربما ظن أنني فقدت
وعبي، أشرت بإصبعي كي يفهم أنني لا زلت واعية،
حَثَّنِي على النهوض فلم أستطع، هَمَّ بحملي للداخل
لكنه لم يقوَ على رفعني، جرَّني من كفي وإبطي حتى
حجرة الصلاة، توقف فجأة وراح يدقق في الصليب

المدقوق على رُسغي، ابتسم في وجهي نصف ابتسامة
قائلاً:

-أنا رمسيس إسكندر حاجب استراحة المحكمة..
اسمك إيه وجاية منين يا بنتي؟

-أبوس إيدك أبات عندك للصبح، أنا غريبة والناس في
الجامع طردوني و...

خرجت الكلمات مني واهنة، فأشار لي بأن أسكت
وأستريح وهو يتمتم:

-ما تخافيش أنتي هنا في أمان.

تغيّرت نبرته الودود فجأة مع أنه يطمئنني، شعرت أن
لفظ "الجامع" أطار ابتسامته بعيدًا كعصفور فزع، أغلق
باب الاستراحة بالمفتاح ووضعه بجيبه ثم صعد إلى
الطابق الثاني، توجّست وخفت أن يؤذيني، تحاملت
على نفسي وصعدت وراءه بحذر، وجدته واقفًا أمام
حجرة، طرق بابها طرقتين ولم ينتظر ليسمع مُجيبًا،
أدار المقبض بحرص ثم أضاء النور، اقتربت والفضول

يدفعني من ظهري خلفه.. ألفينا شابًا نائمًا في فراشه،
تقلب بكسل وهو يتشاءب بنصف عين كتعلب، فجأة
هَبَّ من رقدته مفزوعًا ناظرًا إلينا بدهشة بالغة، تعكَّر
هدوؤه وعبث بيده أسفل وسادته، سحب مسدسًا
وأشهره نحونا، انتفض رمسيس صارخًا:

-أنا رمسيس يا باشا.. رمسيس.. والمسيح الحي
خدامك رمسيس.

ظل الباشا يُحملك في مندهشًا ورمسيس لا يُجيبه
حتى انتبه لوجودي وراءه، لكنه لم ينطق بكلمات
مفهومة، أنزل الباشا يده التي ترفع السلاح وأشار
بالأخرى بما يعني انصرفا الآن وسألحق بكما بعد قليل.

فقط يومًا أو بعض يوم قضاها وكيل النيابة نادر بك
فايز هنا بالطايعه كما حكى لي رمسيس قبل نزوله
إلينا، أخبرني أنه شاب مسيحي طيب من القاهرة
وعائلته من أعيان أسيوط. إذن هو غريب مثلي، ربما
لهذا السبب شعرت بألفة نحوه وراحة لعينيهِ الرائقتين
وصوته الخفيض رغم مسدسه الذي أشهره في وجهنا،

فأصحاب الظروف المتشابهة يتقاربون بسرعة، علمت أنه يصغرني بخمس سنين تقريبًا، إلا أن همومًا قد ركبت فوق كتفيه فأضافت لملامحه أعوامًا كثيرة.

قال رمسيس أيضًا إنها عائدان منذ ساعة فقط من مأمورية عمل، بالفعل بدا نادر بك متعبًا للغاية وهو يهبط الدرج الخشبي آتيًا نحونا، كان شابًا خمريًا طويلًا شعره أسود فاحم منسق بعناية، مقطبًا جبينه في حِدَّةٍ كأنه يرى كابوسًا أمامه يعقد لسانه، تثناء عدة مرات في ضيق، جاهد كي تخرج كلماته واضحة، مع أنني لم أقل كل شيء بعد سوى اسمي الحقيقي "هدى يوسف حبيب"، بعدما أطلعتهما على بطاقتي الشخصية.

-وإيه اللي جابك هنا في الوقت ده يا ست هدى؟
هربانة من مين وليه؟

انتهيت من حكايتي.. لكني أغفلت عنهما قتلي لخضر دفاعًا عن نفسي وهروبي من بلدتنا، مثلما أخفيت ديانة خضر، أدخلت على القصة تعديلاً طفيفًا رأيت

ضروريًا، قلت ببرودٍ ممزوجٍ بحزنٍ فات عليه الزمن
ففتري؛ إن خضر مات بالعراق منذ سنين بعيدة ولم
أتزوج من بعده.

بنبرة مُحققٍ عاد يسألني نادر بك عن سبب هروبي، بدا
غير مُصدق لروايتي الأولى كلها، خفت من غربلتها في
ذهنه عدة مرات فيخرج منها بالقصة الحقيقية، على
الفور رويت أنني هاربة من محاولة اعتداء من زوج
أمي، ولم أكن أدري إلى أين أذهب، فاستقلت القطار
حتى وصلت قرية الطايعة، فنزلت بها ظنًا مني أنها
بني سويف بلدة المرحوم أبي.

تفرس في نادر بك صامتًا، يبدو أنه يُقلِّب الرواية على
جنبها، لكنها على الأرجح لم تختمر برأسه. لم تخب
توقعاتي، برقت عيناه وأشعل سيجارة في ضيق، وراح
يتأهب لتوجيه أسئلة أخرى، تفاديتها بسرعة لما بادرت
بالقسَم على صدق روايتي، ورددت بعض مقاطعها
المؤلمة مرة ثانية ثم بكيت بخرقة، كنت صادقة في
دموعي فأطلقتها من محبسها بمقلتي لتنهمر، للغرابة
وجدت رمسيس يؤمن على صدق كلامي. هز نادر بك

رأسه عدة مرات، لا يريد تثبيت الرواية الكاذبة في ذهنه، نقل بصره لوجه رمسيس فوجده متهللاً، قبل أن يوجّه لي أي سؤال آخر باغته رمسيس قائلاً:

- يا باشا بعد إذنك أوديتها الكنيسة الصبح لأبونا إسطفانوس علشان يرعاها ويحميها لغاية ما تسافر بلدها تاني، الحكومة هنا ولا مؤاخذة مش بتجيب حق لحد مننا.. والا سعادتك تشور علينا إننا نعمل محضر للشيخ رجب والخدام بتاعه؟

ابتلع نادر بك الجملة الأخيرة في ضيق، نهض وهو يتتأب قائلاً:

-وهو كذلك لكن مفيش بيات في الاستراحة، اعمل لها شاي بدل اللي برد منها وهات لها فطار، كُله ساعتين والنور يطلع وتروح بيها على الكنيسة، أما موضوع المحضر فيخصها لوحدها.

أغلق رمسيس باب حجرته بالمبنى الملحق بإحكام، خفض الشيش الخشبي لنافذتها، قدّم لي شايًا جديدًا

وبعض المخبوزات المحشوة بالعجوة، سألني إن كنت صائمة فهزنت رأسي بالنفي، جلس يتفرس في وأنا أتناول طعامي بنهم، كلما فرغت من قطعة أشار للطبق لأتناول أخرى حتى امتلأ بطني، وعندما رفعت كفي شاكراً كرمه، اتسعت ابتسامته الصفراوية قائلاً:

-ناوية على إيه؟ أنا مش وكيل نيابة ولا ظابط شرطة، أنا قبطي زيك، يعني لازم تقولي الحق بأمانة علشان أعرف أساعدك.. عاوزه ترجعي بلدكم فعلاً والا مقطوعة من شجرة وعاوزه تعيشي معانا هنا؟

رغم ابتسامته التي لا تُريحني، وجدتني أقول:

-صدقني أنا بأمانة مقطوعة من شجرة وتحت أمرك يا عم رمسيس.

-أنا قلت كده برضه.. نظرتي ما تخيِّبش أبداً.

نهض بهدوء بعدما أخذ مني بطاقتي، أخرج دفترًا زيتيًا كبيرًا من تحت سريره، مدونًا عليه بالمداد الأبيض بخط كبير للغاية حرف "ز". أثار فضولي

حجمه الهائل وطريقة كتابة الحرف الذي يتوسّط غلافه العريض، قلب صفحاته ثم قرأ سطورًا فيها، دوّن شيئًا ما فيه بقلم رصاص ونظر إلى ساعته، اقتربت أكثر لأرى فطواه مسرعًا، كان يظنني ناعسة، سألته عن معنى حرف "ز" فنفى أنه مكتوب من الأصل وأخفى الدفتر كله تحت سريره!

رفع حصيرة الشيش فتسرّب نور طفيف عبر النافذة، أفهمني أنا سنذهب للكنيسة بعد قليل لنتقي بأبينا إسطفانوس، لقّني ما يجب أن أقوله وكيف أحكيه وراجعه معي بدقة متقمصًا دور الأب الكاهن، لكنه لم يختلف عن القصة التي حكيتها . قبل أن نتحرك سألني للمرة الثالثة عمّا إذا كنت متزوجة، فأجبتته بالإجابة ذاتها التي قلتها منذ ساعات لوكيل النيابة عن وفاة زوجي خضر بالعراق، وبالابتسامة الصفراء نفسها رد رمسيس بما لا أتوقعه:

- يبقى نقول مبروك علينا يا عروسة.

بيت القبطية - 6



7

تمدّدت بعد الفجر على فراشي مُحلّقًا في فراغ الغرفة بعدما خرج رمسيس مصطحبًا هدى لاستراحته، المصائب لا تأتي فرادي أبدًا، على مدار أربع وعشرين ساعة أو يزيد قليلًا، تعرضت لغرائب لم أمر بها طوال سنوات عملي الثلاث بالنيابة العامة، صحيح أن هذه المرة بالأرياف، لكنه ليس مبرّرًا لهذه المصائب المتلاحقة، كأن هذه الاستراحة ملعونة تسكنها الأشباح فعلاً . على ذكر الأشباح وحكايات رمسيس توجّست، متذكّرًا ما قالته هدى بأنها اضطرت لتغيير اسمها لما وصلت البلدة، لكن لماذا اختارت اسم "نور" بالتحديد؟! هل كانت هدى تعرف رمسيس من قبل وخذعاني؟! كيف يتصالح الشيطان بداخلها لهذه الدرجة مع الملاك الذي يكسو ملامحها؟! لم أجد إجابة تريحني، خاصة أنها تكذب في أمر نزولها بمحطة الطايعة في طريقها إلى بني سويف، فلا توجد محطة للقطار بهذه القرية، ولماذا تذهب إلى بني سويف إذا كانت وجهتها أسيوط حسبما ادّعت؟! شعرت فجأة برجفة وتقلّبت في

فراشي، ثم رُحت في سُبَاتٍ عميقٍ رغم هواجسي التي
تركتها تُحلّق فوق رأسي كغرابٍ جائع.

انتفضت للمرة الثانية فزعًا خلال ساعات قليلة، خُيل
لي أنني سمعت صوتًا بالطابق السفلي، هرولت حافيًا
بملابس النوم على الدرج الخشبي مناديًا رمسيس
لكني لم أسمع مُجيبًا، أزحت ستائر النافذة فلمحته من
بعيد يسير ووراءه هدى متأخرة بخطوة في اتجاه
الكنيسة.

تهاويت على الأريكة الجلدية بالصالون تاركًا نفسي
لدقائق أخرى من النوم، مترجيا إياه أن يأتي ويذهب
في هدوء، فاستجاب لي على مضض، وتركني لأكثر
من ساعة أنعم براحة قلقة.

استيقظت في مواعي المعتاد رغم كل ما حدث في
يومي الأول هنا. قبل أن أستقل سيارة المحكمة ظهر
رمسيس فجأة على مرمى بصري قادمًا من ناحية
الكنيسة بمفرده، استوقفني بندائه من بعيد، اقترب
مهرولاً رغم سنه الكبيرة، لم أعره اهتمامًا رغم دهشتي

من عودته بهذه السرعة من الكنيسة، ركبت السيارة وأشرت للسائق بالتحرك، لحقنا رمسيس قرب بوابة الاستراحة وهو يلهث، الكلمات تخرج منه بالكاد، محافظًا على ابتسامته الصفراء التي باتت لزجة للغاية في وقت قصير بالنسبة لي، هتف قائلاً:

- أيوة كده رفعت راسنا وردّيت لنا كرامتنا بقرار امبارح.

طلبت من السائق التوقف فورًا وقلت لرمسيس بحزم:

- عرفت القرار من مين؟

- هو في حاجة بتستخبي في بلدنا يا باشا؟ عرفت من سكرتيرك جرجس كاتب النيابة، ما هو ابن عمتي وقابلته في الكنيسة من شوية، وكمان البلد مالهاش سيرة من طلوع الشمس غير إن المستشار رضوان رجع الفجر لبيتهم وهو مدلدل راسه.

حدّقت في وجهه بلا معنى ولم أجد كلامًا أقوله، يبدو أنني محاصر من كل ناحية، لا إراديًا تخفّفت من رابطة

عنقي. فكرت في تغيير الموضوع وسؤاله عمًا دار مع هدى بالكنيسة، لكني لمحت رجلًا غريبًا واقفًا قرب الاستراحة، بدينًا وطويلاً في آنٍ واحد، يرتدي معطفًا داكنًا فوق جلبابه، يحمل على كتفه بندقية كبيرة، اللافت فيه طربوشه الأحمر الذي يُخفي غالبية ملامحه من فرط كبسه على جبهته كأنه خرج لتوّه من صفحات رواية توفيق الحكيم، سألت رمسيس عنه فأجاب بنبرة افتخار:

- ده نبوي الديب غفير الاستراحة يا باشا.

- وكان فين الديب أفندي ليلة امبارح لما الست هدى شرفت في الاستراحة؟

- في المركز زي العادة.. ما هو بيبيت هناك كل ليلة ويعاود الصبح.. أصل نبوي ده له قصة طويلة.

لم أعطِ رمسيس انطباعًا باللهفة على سماع قصة نبوي، طلبت من الخفير الذي اقترب لتحيّتي عدم مغادرة الاستراحة حتى أعود، رد الخفير نبوي بصوتٍ

عالٍ وقد جزعت ملامحه وتبدّلت حتى باتت أقرب
لطفل فزع تائه:

- وسعادتك حترجع هنا قبل المغربية، صح؟

هززت رأسي بلا معنى وأشرت للسائق بمواصلة السير،
تحركت السيارة في اتجاه المحكمة، طوال الطريق
تطوع السائق بالشرح أن نبوي الديب يعمل خفيراً هنا
منذ أعوام، ولا يُنقل لأي مديرية أخرى خوفاً عليه من
ثأرٍ قديمٍ ببلدته في أسيوط، مهمته حراسة الاستراحة،
لكنه قرب المغرب يذهب في حراسة رمسيس للمركز،
حيث يبيت ليلته هناك كي لا يتعقبه طالبو ثأره في
الظلام ويظفروا به فيقتلوه، وفي الصباح مع أول
خيط نور يعود ليقضي نهاره باستراحة رمسيس، ولا
يبارحها حتى غروب الشمس، علمت أيضاً أنه لا
يستخدم المبنى الثاني، مع أنه مخصص له، كي لا
يجلس بمفرده.

سكت السائق عن الكلام مجبراً لما دخلنا البندر، غطّي
صياح الباعة الجائلين وضوضاء الدراجات البخارية

على صوته، قبل أن نصل مبنى المحكمة بحوالي
 خمسمائة متر صادفنا تجمهراً كبيراً من الأهالي،
 ضوضاء هائلة لا يمكن معها تمييز هتافهم، بعضهم
 اصطحب بهائمه فتضاعفت الجلبة كلما اقتربنا منهم،
 توقف السائق إجبارياً بعد زحفٍ بطيءٍ بسبب ظهور
 عميد شرطة يحمل جهازَي لاسلكي بيدي واحدة، تتدلى
 طبنجة ضخمة من جانبه الأيسر، يبدو أنه أعد كميناً
 لإيقاف السيارات، عرّفته بنفسه فابتسم قائلاً:

- حمد الله على السلامة.. أخيراً معاليك وصلت،
 الكمين ده بسبب سعادتك، سيب لنا نفسك بقى.

- خير؟!!

- خير.. بس قرار معاليك إمبراح ببقاء الوضع على ما
 هو عليه مزعل المستشار رضوان وأهله وعزوته زي ما
 أنت شايف، ياريت سعادتك تنزل من العربية وتمشي
 جنبي بهدوء.. حندخلك من الباب الوراني للمحكمة.

طوال الطريق والضابط يشرح لي خطورة قراري بسبب طبيعة أهل البلد، حكي أن الأقباط يُشكّلون أكثر من ثمانين بالمائة من السكان بالقرية على خلاف غالبية قرى مصر تقريبًا، ظلت أستمع ولا أقاطع، كل برهة تلتقط أذني هتافات معادية للقضاء واتهام النيابة بالظلم، فيبادر الضابط بالتحدث في جهازّي اللاسلكي مؤكدًا على يقظة القوات لحمايتي، يعود لكلامه معي، يُفنّد نقاط القرار وخطورته الأمنية بضرورة مراعاة المسلمين مثل الأقباط بالتساوي حتى ولو كان المسلمون أقلية، موضحًا أن أولاد بيشوي حصلوا على قرار تمكين العام الماضي في أرض أخرى، والدور كان أمس على عائلة رضوان، مع أن أرض المسلمين أكبر من حيث المساحة رغم قلة عددهم، مختتمًا بعبارة لم أكن أحب سماعها:

- لازم جس سعادتك الأمني يكون سابق القانون بخطوة، وطبعًا معاليك عارف طبيعة الشغل بتاعنا، تسعين في المية حُسن تصرف وعشرة في المية قانون.

في مكتب رئيس النيابة لم يختلف الكلام كثيرًا، وإن كان أكثر تنميقًا وحصافة وأقل فظاظًا من كلام الضابط، ارتفعت نسبة القانون إلى خمسين بالمائة.. لا بأس، لكنني أبدت تدمرًا وأده رئيسي على ملامحي في مهده لما اختتم كلامه بعبارة جعلتني أبتلع لساني.

- سيبك من السياسة وخلينا نتكلم بالقانون.. النيابة العامة تبعية تدرجية رئاسية.. يعني رئيسك الأقدم منك هو مصدر القرار وأنت مجرد محقق يا نادر بك.

خرجت إلى مكنتي مُطرقًا، سرت في ممر طويل خافت الضوء مثل برزخ مع أننا قبل الظهيرة، أمامي حاجب يُفسح الطريق ويطلب من الواقفين الارتكان على جداري الممر بظهورهم لتنتفتح سِكتي بينهم، من خلفي حاجب آخر يصيح كل برهة وهو يَمُط حروف كلماته، خاصة حرفي الطاء والراء اللذين ينغمهما:

- طاريق.. طاريق.. وسّع السكة للباشا!

تلقائيًا مع ندائه الأول وجدت نفسي أجنح لليمين،
 نبّهني الصائح خلفي بكوني لست المقصود، ظن مع
 ابتسامتي البلهاء أنني أمزح معه.. لا أعرف، وصلت
 غرفة مكتبي محاطًا بنظراتٍ ناريةٍ من المحامين
 والمتقاضين، بذلت جهدًا لتفاديها، شعرت بتضاؤل
 حلمي من خجلي رغم "الزفة الكدابة" التي صاحبتني
 من مكتب رئيس النيابة، ما إن استقرت على مقعدي
 حتى علمت من سكرتيري بسحب قضية رضوان مني،
 لا بد وأنها ستسند إلى زميلي، زفرت بضيق ولسان
 حالي يكاد ينطق بل يصرخ بلعن هذه القرية التي ألهمت
 فيها كمن يركض في البرية منذ وطئت قدمي أرضها،
 وكأن لعنة الفتاة نور التي حكاها رمسيس لي قد
 أصابتني، ومسنني الضر على ما يبدو.

مضى شهر على عملي بقرية الطايعة.. تكوّمت على
 حافة مكتبي قضايا قديمة من العام الفائت، تخص
 الزميل الذي حلت محله ولم أكن قد التفت لها بعد،
 بسبب كثرة المحاضر اليومية التي تُعرض عليّ، لفت

انتباهي عنوان كبير بخط جميل على بعض الملفات..
 "قضايا النفس"، اخترت قضية قتل، لخصت
 التحقيقات ومن قبلها البلاغ، وجدت أن أحد المتهمين
 لم يُستجوب حتى الآن، كذلك بعض الشهود لم يُسألوا،
 أغلقت الملف وذهبت لرئيس النيابة، عرضت عليه
 القضية متحفزًا، لكنه بعد دقيقة واحدة قال ببرودٍ
 شديد:

- اتصرف فيها زي ما أنت عاوز من غير ما ترجع لي..
 دي قضية قتل عادية.. أحمد قتل محمد!!

قبل أن ألملم أوراقى وأعود لمكتبي، قال دون أن ينظر
 ناحيتي:

- بلّغني فقط بالبلاغات الجديدة.. بس قبل ما تتصرف
 فيها ولو بجرّة قلم.

أومات بالإيجاب ولم أعرف إن كان قد لمحها أم لا،
 ربما استشعرها بخبرته وتأكد أنني لن أخالفه،
 استلقيت منهكًا على مقعدي، ألقيت بأوراق القضية

على مكتبي وطلبت فنجانًا ثالثًا من القهوة، لمحت في عيني سكرتيري تساؤلًا حرجًا..

"ماذا أنت فاعل ؟ "

ابتسمت وأنا أسلمه ورقة صغيرة بها أسماء الشهود قائلاً:

- اطلبهم كلهم بكرة علشان نسألهم في نفس الوقت ومحدث يلحق يغير شهادته.

قبل أن يُغادر السكرتير علا صوتي بجديّة:

- واللي يتأخّر فيهم عن ميعاده أو يرفض الاستلام بلّغني علشان أطلع له أمر ضبط وإحضار.

خرج الرجل وكلي ثقة أنه سيبلغ كلامي للمأمور، ومن المؤكد أن الشهود سيمثلون غدًا خائفين. شردت في حالي وأنا جالس وحيدًا، تفترسني ظنون هائلة بمفاهيم العدل وسيادة القانون، تذكرت عبارة أبي المستشار فايز كمال يوم عُينت بالنيابة العامة وكان قد

خرج إلى المعاش قبلها بشهور.. "ما تسمعش غير صوت ضميرك. السياسة لو تدخلت في القضاء أفسدته والقانون لو تدخل في أفعال الساسة لأصلح من حالهم".

أرجعت رأسي للوراء، أغمضت عيني برهة، أخرجتني ظرقات خشنة على باب الحجرة من شرودي وذكرياتى، أعطاني الصول تمامًا مع التحية العسكرية، ثم تقدّم بورقة صغيرة مدوّن بها عبارات أشبه بأسلاك شائكة، تُشكل سورًا متعرجًا في كل سطر، لم أفهم منها شيئًا، يبدو أنه شعر بحيرتي فقال من تلقاء نفسه مفسرًا:

- إشارة من قسم شرطة الجيزة بضبط محمد علوان شلتوت وتفتيش بيته لاتهامه في قضية اختلاس عهدة حكومية، وبيطلبوا تحقيق الواقعة بمعرفتنا.

ما إن فرغ من جملته حتى أحضر السكرتير ملف القضية الوارد بالبريد مع الإشارة لاستكمال التحقيقات، شعرت أننا على مسرح ولكل منهما دور

محدد ووقت معين للظهور أمامي، تصفحت أوراق القضية في عجلة ثم ضحكت ضحكة مكتومة، رفعت سماعة الهاتف الداخلي، وأبلغت رئيس النيابة بنص الإشارة وملخص القضية، سكت لبرهة حتى حسبته أغلق الخط لكنه استدرك قائلاً:

- قول ثاني كده.. اختلس إيه محمد علوان ده.. أنا مش فاهم حاجة من كلامك يا نادر بك؟!!

- طاووس يا فندم.. طاووس.. محمد علوان اختلس الطاووس عهدته من حديقة الحيوان في الجيزة ومخبئه في بيته هنا.. في الطايعة.



8

الطريق إلى كنيسة النور الكبيرة يبدو أقصر ممّا تخيلت، دار رمسيس حول الاستراحة نصف دورة ثم انعطف يسارًا مرتين، بعدها انحرف إلى أقصى اليمين، وجدتْها شامخة عالية أمامي فجأة فارتاحت نفسي، بوابة حديدية ضخمة عريضة بلا حارس، تخطّأها رمسيس ودخلنا من باب خلفي فتحه بمفتاحه!

تركني أنتظر في غرفة واسعة بلا نوافذ، الضوء يتسرّب إليها من كُوّة يتيمة عالية، طال انتظاري، ولما نهضت لاستطلاع الأمر وتفقد المكان وجدت رمسيس قادمًا وأمامه أب كاهن ضخم مبتسمًا في وداعة، عرّفني بنفسه، فقَبَلت يده الممدودة قائلة:

- ربنا يدينا بركة قدسك يا أبونا.

جلسنا وهممت برواية حكايتي الملقنة، لكن رمسيس أشار لي بإصبعه أن أصمت حتى قال أبونا بهدوء:

- متجوزة يا بنتي؟

- لأ يا أبونا.. أنا أرملة.

- واسمك إيه بالكامل وفين بطاقتك؟

- اسمي هدى يوسف حبيب وعمري 35 سنة والبطاقة مع عم رمسيس.

- احكي لي حكايتك يا بنتي.

رغم يقيني من أن رمسيس روى له حكايتي لكني حكيت ما جرى من زوج أمي ثم ما حدث بالمضيئة، ومع تصميمي على تفاصيل روايتي بخصوص زوجي المتوفى بالعراق، وافق الأب إسطفانوس على قبولي في خدمة الكنيسة، مسح رأسي بيده قائلاً:

- اللي معانا بقلوبهم أكثر من اللي علينا في الطايعة، والرب يقول لا تَحْشَ من خوف الليل ولا من سهم يطير بالنهار.. إنتي هنا في أمان وسلام.

قرّر أبونا أن أعمل في تنظيف غرف المبنى الملحوق لتعليم الأطفال، على أن أنام مع سيدتين مُسْتَتَيْن في

حجرة صغيرة أسفل السلم الكبير لأن الكنائس الثلاث الأخرى مغلقة حاليًا للترميم كما قال، حملت نبرته قدرًا كبيرًا من التهكم وهو يقولها رافعًا يديه للسماء متمنيًا الخلاص. همس رمسيس في أذنه ببضع كلمات بدت مسموعة لي وربما تعمّد ذلك، فالتفت لي أبونا قائلاً:

- وماله مفيش مانع، نجربها في تعليم الأولاد طالما معاها شهادة.

تبدّل حالي ورُقّيت فجأة من عاملة إلى مُعلّمة بكلمات قليلة من رمسيس، شكرنا الأب إسطفانوس وقبّلنا يده، قبل أن ينصرف عاد رمسيس يهمس له في أذنه، تلك المرة لم أسمع حرفًا ممّا قاله، لكنها كلمات لاقت قبولًا أيضًا لدى أبينا إسطفانوس، فقد هزّ رأسه بالموافقة وهو يُرَبِّت كتف رمسيس ويدعو الرب لإتمام الأمر.

لم يمض شهر على إقامتي بالكنيسة حتى بارك الأب إسطفانوس زواجي من رزق كهربيائي الكنيسة، الذي كان لا يزال يبحث عن عروس رغم أنه يبدو أكبر مني

بنحو عشر سنوات على الأقل، فوافقت على الزواج منه بإرادة رمسيس الحرة هذه المرة، فأنا لا زلت حبلى بوهم الحرية وجنينها الذي لن يولد أبدًا على ما يبدو.

يوم زفافي إلى رزق طافت بذاكرتي ذكريات يوم مشابه منذ بضع سنين، عندما وقفت أمام خضر وأمي وزوجها في غرفة معتمة، بجوارهم شيخ لم يلتفت نحوي ولم يسمع موافقتي.. أجبروني قبلها على توكيل من اغتصبني ليتناوب عليّ غيره، دَوَّن الشيخ بياناتي وساقوني للمقصلة، تسلّمني خضر ليقتلني كل يوم مرات ومرات على فراشه.. تزوجت وحيدة.. مثل التي تذهب لغرفة الإعدام.. المراسم تتشابه، تُتلى على مسامعي ما فعلت يداي، يدعو لي الشيخ بالهداية والمغفرة قبل الرحيل، ثم تُشيعني العيون لمصيري.. كدت أصرخ أنا بريئة لكني اخترت الصمت مجبرة كعادتي .

اليوم بالكنيسة أنا وحيدة أيضًا، لكني أشعر شعورًا مختلفًا، تمنيت أن تكون عائلتي بجواري، ليدوا رزق وهو يُقدم لي شبكتي، سلسلة ذهبية مُعلّق بها صليب،

أول مرة تُقدم لي شبكة والليلة سأرتدي فستان فرحي الأبيض أيضًا.. لو كان أبي موجودًا معي لزارني في الصباحية بأقفاص الطيور.. لحضر مرة ثانية في اليوم الثالث مع المرحوم عمي الكبير، الذي كان سيذبح عجلًا، وخلفه حمارته تجر عربة مُحمّلة بأجولة الدقيق والأرز والخضار، من المؤكد أن أمي كانت ستزورني أيضًا أول يومين لتُقدم لنا الكعك والفطير، وتطلب من أم رزق أن تُعطيني عباءة من ملابسها دليل محبتها، سيعرف رزق أن لي عائلة وورائي عزوة وعندي أهل، لست مجرد امرأة مُهيأة للإنجاب أحضرها رمسيس هبة لكنيستنا.

- صليبك ولازم تشيله عمرك كله.

قالها أبونا إسطفانوس عدة مرات وهو ينظر نحو رزق.. أعرف أنه يقصد بكلمته استحالة الطلاق بيننا، فما يجمعه الرب لا يُفَرِّقه إنسان، هزرت رأسي بالإيجاب مُجبرة لما نظر أبونا ناحيتي ولم أعلق، لن يحدث لي أسوأ ممّا حدث مع خضر. وقعت عيناى مصادفة على رمسيس، لا يزال يبتسم، كدت أسأله مرة

رابعة عن مصلحته في تزويجي من رزق لكني آثرت الصمت، فلن أتلقى منه سوى ابتسامة صفراء مثل كل مرة.

في المساء أقيم حفل زواجي في البيت، دعا رزق جيرانه كلهم أقباطًا ومسلمين، لا يمكن أن تفرق بينهم وقت الفرح، جلست وسط سيدات وبنات وأطفال لا أعرفهن بصحن الدار، الجميع غرباء عني، يحيطون بي في مودة لكني لا أشعر بدفء، رجال يضربون الدف وأخرون يُصفقون، ونسوة تُطلق زغاريد متقطعة سمعتها نواحًا، لكني مضطرة لوضع ابتسامة باهتة على شفتي طوال الوقت، وواثقة أن عيني ستفضحاني إذا ما دققوا النظر نحوي أو التقطوا لي صورة.

انتقلت للعيش من حجرة المُسَنَّات إلى بيت رزق بطرف القرية، على رأس السكة المؤدية للسوق الكبيرة. الكل يمر من هنا، بعيدًا عن طريق الكنائس الأربع التي تحيط بالجامع الصغير وتحتضنه في وداعة لثخافظ على وجوده، وإن كان الشيخ رجب يُصرُّ في خطبة الجمعة على أنها تحاصره وتمنع

توسعه، رغم تحذيرات الأمن له بعدم إشعال الفتنة، لكنها تحذيرات مائة كما وصفها أبونا إسطفانوس، كأنهم أدوا ما عليهم بالتوصية والرجاء، كلمات تُقال على استحياء كل مرة حتى صارت أشبه بطلقات الصوت، تُدوي ولا تُصيب، وفي الحالتين لا تردع، ومع تكرارها تيقن الشيخ رجب على ما يبدو من حقيقتها، عرف أنها لا تُميت ولن تجرح أحدًا على الإطلاق، بل ربما تُشجعه.

وددت كل جمعة أن أسد أذني فلا أسمع الدعاء على أهلي.. لكنني فشلت، لا يتركوننا في حالنا، هزرت رأسي يأسًا وتقبلًا للأمر الواقع، فبعضنا أيضًا يقول في كنائسنا عنهم مثل الذي يقولونه عنّا، لكننا لا نجرؤ على الجهر مثلهم.

صحونا ذات يوم لنجد أحدهم قد رسم صليبيًا أسود كبيرًا على باب داري، ربما ليميزها عن بيوت المسلمين التي قبلي، وكلما أزال رِزق الصليب ومحا طلاءه، عادوا في الفجر ليضعوه أكبر وأعرض. ثم صارت الدار

تُعرف بيت القبطية لا بيت رزق مثل بقية بيوت أهل
الطايفة!!

شكوت لرمسيس فأوعز لي بعمل بلاغ بالمركز وشكوى
بالنيابة ضد أقرب جار لي، الحاج محمد علوان؛ لأنه
كان يريد شراء بيتنا لما مات صاحبه المسلم لكن رزق
زوجي سبقه واشتراه، لم أصدق رمسيس، فمحمد
علوان هذا.. وديع.. مسالم، ويُسَلَّم عليَّ في ودِّ
وترحاب، وأيضًا سنه كبيرة وداره جميلة. لكن ظل
رمسيس يطن في أذني بأن علوان وزوجته يكرهان
الأقباط مثل كراهننا جميعًا للعمى، فلما لم يجد مني
استجابة، حذرني من الأعمال السفلية التي يمارسها
علوان في الخفاء مع زوجته، أخبرني أنه يجلب ريش
الطيور من الجيزة لينثره أمام بيتي، بعد أن تغمسها
زوجته في زيت به حبة البركة السوداء وصدور
الدجاج النافق ليزيدنا فقرًا وبؤسًا، ويُعمق الخلافات
مع زوجي رزق ويربطه فلا أنجب منه. سكت رمسيس
لبرهة يتفرس فيَّ بعينين جاحظتين ثم قال بصوتٍ
خفيض:

- وعلى فكرة مراته اسمها هدى.. اشمعنى بقى بيقولوا عليكى القبطية وهي هدى بس؟!!

حرصت بعدها على تفقُّد عتبة بيتي كل صباح، حتى وجدت بعد أيام قليلة ريشًا رماديًا طويلًا غريبًا ناعم الملمس فتوجَّست، فكرت في إزالة الصليب ووضعه على بيت علوان ليفهم أنني كشفت أمره، فيما يبدو تأخرت، ففي أقل من شهر صار بيتنا علامة للتائهين، يكفي أن تقول ناحية بيت القبطية فيدلوك على طريق السوق الذي ينعقد كل ثلاثاء وخميس خلف بيتي. حتى لو محوت الصليب من على الباب فلن أمحو عبارة "بيت القبطية" من على السنة المسلمين.

احتفظت بالريشات الغربية بعد أن غمستها في ماء مزهر، رشمت الصليب عليها لأبطل مفعولها ووضعتها على عتبة بيت علوان، لكنه تركها مكانها ولم يقربها، بقيت محبة رزق لجيراننا ولم تزل.. ظل أيضًا الصليب الأسود على باب بيتنا وظلت جارتنا هدى المسلمة تُنادى باسمها مجردًا من أي لقب، وبقي كلام كثير في قلبي لن أقوله لأحد. اخترت الصمت حلًّا هذه المرة

يارادتي بدلاً من البكاء والصبر، حتى طار محمد علوان
من فوق بيته كطير النار ومن بعدها اشتعلت الطايعة
كلها.



9

أمسكت ورقة وقلماً، رسمت شكلاً هندسيًا يخص موضوعًا يُلح على ذهني منذ فترة، تخيلت العدالة مثلًا غير متساوي الأضلاع، قاعدته هم سدنتها، القضاة ووكلاء النيابة وأنا منهم، أما ضلعه الأطول فهم المحامون بطبيعة الحال أو القضاء الواقف كما يحلو لهم أن يُطلقوا على أنفسهم، أما الضلع الأخير فهو المغلوب على أمره، أعني بالطبع أصحاب الحقوق من مُدَّعين ومُدَّعى عليهم وشهود، وربما متهمين في بعض الأحيان.

سألت نفسي مرارًا وتكرارًا وأنا أطوف حول محراب العدالة متلمسًا الرحمة والإنسانية، عن ذلك العبقري الذي جعل للعدالة رمزًا عبارة عن امرأة معصوبة العينين تحمل في يدها ميزانًا، لا أدري كيف تستطيع وهي شبه عمياء أن تحفظ اتزان ميزانها؟!

أعياني التفكير ولم أجد له سببًا، سوى أن النحّات الذي ابتدعه كان يومًا من المتقاضين، ولاقى ما لم يلقه

المظلوم في زمنٍ أُغبر، فصوّر له خياله أن العدالة يومها كانت معصوبة العينين عن حقوقه، فاختل ميزانها رغماً عنها، هذا النحات ضحك علينا جميعاً، تركنا أسرى لتفسيرات سطحية، باعتبار أن العدالة كلمة مؤنثة والعدل مذكر، عيناها معصوبتان حتى لا ترى الخصوم فلا تميز بينهم، مع أننا بذلك نعطيها حُجّة رائعة كي تظلم بعضنا، ثم تقول لنا ببراءة "آسفة جداً.. عيناى معصوبتان.. لم أكن أراكم بوضوح".

ذهب النحات لحال سبيله منذ مئات السنين، وبقيت العدالة تنتظر من يفك العُصابة عن عينيها، من يحمل عنها الميزان ويضعه أمامها كي لا يهتز.. لكن يبدو أنه لم يأت بعد.

نظرت من نافذة غرفتي فلم أرَ إلا فراغاً ممتداً، غيطاناً واسعة على مرمى البصر بلا نهاية، من بعيد تظهر نقاط حمراء مثل علب كبريت متناثرة بعشوائية، ألمحها بالكاد، لا بد وأنها بيوت أهل القرية، تتمايل النخلات على نسائم ريح الخريف، تتراقص بإيقاع منتظم لا يُفسده سوى مكبّر الصوت بالمسجد القريب،

الشيخ رجب يُعطي درسًا بعد صلاة العصر، يُصرُّ على أن يسمعه أهل القرية بالإكراه مع أن صوته منفر.

يميل قرص الشمس للغروب، يزداد لونه اصفرارًا، مشوبًا بالحمرة حتى صار برتقاليًا، ينخفض صوت الشيخ قبلها ثم يخفت مع لحظات الغروب، تسكن كل الكائنات إلا الشيخ رجب وحده، يُتمتم بعبارات غير مسموعة، تلك لحظة لها قداسة ما عند كل المخلوقات، لا يصح معها سوى التأمل في صمت، كم تأسرنى تلك اللوحة الربانية المتحركة ببطء بألوانها الفاتنة التي تتكرر كل يوم بلا ملل.

- تمام يا فندم.. المُجرم محمد علوان قبضنا عليه يا باشا!

بتمامه الجهوري ودقات كعبي حذائه الميري، أخرجني الصول إسماعيل من أفكاري التي لم تُبارحني منذ وصولي الطايعة أو التايهة كما يقولون، لا فرق على رأي رمسيس، فالطائع دومًا هو تائه للأبد.

تأملت محمد علوان في دهشة، الرجل على مشارف الستين، نحيل للغاية، عظام صدره البارزة تُعلن عن فقره وهزاله، مع ذلك تزوج منذ عامين للمرة الثانية من فتاة تصغره بثلاثين عامًا، والأغرب أنها مليحة، انفتح باب الغرفة فلمحتها بجواره، نظراتها هائمة حائرة، دعوتها للدخول معه فوقفت خلفه بخطوتين مُطرقة في خجل بدا لي مصطنعًا. لا أحد يعرف سببًا لهذه الزيجة الغريبة، فمحمد علوان بلا مال أو جاه تقريبًا، مجرد حارس طواويس بحديقة حيوان الجيزة، يخرج لعمله في الخامسة من صباح كل يوم ليعود بعدها باثنتي عشرة ساعة منهكًا، ما المثير في ذلك؟! ربما لأنه ورث بيتًا واسعًا هنا عن أبيه، ولديه قيراطان يؤجرهما ليعيش بالكاد.. ربما.

أخطأت وسألتهما السؤال ذاته على استحياء، الرجل لديه حياء طاعٍ.. فغمغم "أمر الله"، أما الزوجة فقد رفعت لي حاجبها الأيسر، تبدلت ملامحها الودية وطار بُرقع حياؤها قائلة ببجاجة لا تُحسد عليها:

- وهو الحلال حُرْم يا باشا وإحنا مانعرفش؟! -

دعوت محمد علوان للجلوس أمرًا عروسه بالانتظار خارج الغرفة، غادرت الزوجة متأففة وهي تتقصّع في مشيتها باستفزاز تغاضيت عنه وابتلعتة، عُدت لأوراق القضية متأملًا وقائعها في دهشة لم تفارقني منذ إبلاغي بها، غالبية أحداثها دارت خلف أسوار حديقة الحيوان بالجيزة بعد انصراف زوارها، لكن شرارتها الأولى اندلعت هنا في قرية الطايعة، ربما العروس الجديدة أرادت برهانًا قويًا على استمرار حبه، بعدما ضحّت فيما يبدو بآخرين تقدّموا لها، وتجاهلت نداء عقلها بأن امرأة في جمالها الفتان وجسدها الممشوق تستحق حياة أفضل، على الأقل ماديًا، لكنها فيما أعتقد غلّبت قلبها.

"إذا كنت تحبني فأحضر لي طاووسًا من الحديقة هذه الليلة!"

بتلك الكلمات القليلة التي تخيلتها حوارًا بينهما، طلبت عروسه الثانية بدلالٍ برهانًا على شغفه بها. ظل الموضوع يشغل عقله فيما يبدو، واحترت أنا في استكمال الأحداث من عندياتي، لم يُسعفني خيالي

أكثر من ذلك فلست روائيًا وإن كنت أحب قراءتها،
التفت ناحية علوان مُشعلًا سيجارتي مستأسدًا..
متقمصًا دور المحقق التقليدي لأستخلص منه حوار
مشهد النهاية قائلاً بنبرة مسرحية:

- كل الأدلة ضدك، إنت آخر واحد كنت في الوردية،
متهباً لي تعترف أحسن لك يا علوان!

هزّ محمد علوان رأسه في أسي، نظراته تُخبرني بعتاب
أن الأرنب لا يراوغ و هو أسير بين أنياب السبع. راح
يحكي بنبرة خانعة، ولسان حاله يقول لي لا داعي لكل
ما تفعله، سأتكلم من تلقاء نفسي.

روى لي علوان أن التفكير أتعبه لليلة حتى اهتدى إلى
شراء معطفٍ واسع، يُرفرف جانباه على جسده الهزيل،
بتلك الوسيلة اقترب من الطاووس وتحايل عليه حتى
خدّره بحُقنة صغيرة تكفي لذهابه في سُبات عميق
لبضع ساعات، ثم لَفَّه حول وسطه وأحكم ربطته،
ليخرج به صباحًا مصحوبًا بتحيةٍ من حارس البوابة

الرئيسية، الذي لم يلتفت لسمنته الظاهرة وبطنه المنفوخ كأنه امرأة حُبلى في شهرها الأخير.

ظل علوان يحكي وأنا أتخيل معه حال الطاووس لَمَّا أفاق من غيبوبته، ليجد نفسه في بيئة لم تخطر له على بالٍ حتى في أحلك الظروف التي مرت بها حديقة الحيوان، حوش صغير وسط بيت ريفي متواضع في نهاية قرية الطايعة، وامرأة بملامح بلدية فاتنة ترتدي جلبابًا مشقوقًا يكشف عن ساقها وبعض فخذيها المرمريتين وتنظر إليه بإعجاب، يلمع خلخالها منافسًا لمعة عينيها وقد رضي غرورها واستراح قلبها، لتطبع قُبلة حانية على وجنة زوجها محمد علوان وهو يخلع معطفه، بعدما عاد ظافرًا من رحلة صيد، ربما هي الأولى من نوعها في تاريخ مصر المحروسة.

كان من السهل عليّ استنتاج بقية القصة، فبعد يومين اكتشفت إدارة الحديقة اختفاء أنثى الطاووس، ربما لأن ذكرها ملأ الدنيا صياحًا واحتجاجًا على حرمانه منها، تحركت الأجهزة المسؤولة كلها كما نُشر الخبر بالجرائد القومية، أُجريت التحريات الشرطية بهمة

ونشاط، بمعرفة السيد العقيد رئيس المباحث تحت إشراف العميد مدير المباحث والسيد اللواء حكمدار الجيزة، ومن قبلهم بالطبع توجيهات وزير الداخلية، ليُفاجأ الحارس التعس بقوة أمنية من بضعة مخبرين تطرق بابه لتقبض عليه قرب الفجر وتفتش مسكنه، لتعود مُحَمَّلةً بالغنيمة والفريسة.

جلبوا معهم حرزًا، عبارة عن ظرف حكومي كبير مُنتفخ خفيف الوزن، لونه أصفر داكن، مختوم بالشمع الأحمر، قمت بصفتي وكيل النائب العام بفَضِّه في مواجهة المتهم، وأنا أتفرس في نظراته الزائغة المرتبكة، وجدت بداخله ريشًا طويلًا كثيرًا للطاووس القليل، واجهت به فريستي قائلاً بجدية ربما لا محل لها من الإعراب:

- ما قولك فيما هو معروض عليك من مضبوطات عُثِر عليها بمسكنك وفي حضورك؟

- يا باشا القول قولك والأمر أمرك.. دول شوية ريش.. أنا اعترفت بكل حاجة وقلت إنني سرقت الطاووس

ذات نفسه، فأقوم أنكر ريشه بعدها؟!!

- طيب فين الطاووس يا عم علوان؟!!

تحسّس بطنه في ندمٍ تُظلّله دهشتي العارمة، ثم استرسل ليشرح لي وسط دموع حقيقية كيف هام عشقًا بالزوجة الثانية، مختتمًا بأن هذه الفاتنة كافأته على شجاعته بذبح الطير المسروق على شرفه، ليستقر به الحال عائماً مطبوخاً على سطح سائل أخضر كثيف في صحن عميق.

صرخت في وجهه بدهشة:

- أكلته بالملوخية يا علوان؟!!

هزّ الرجل رأسه بالإيجاب وهو مطرق في أسى، لم أتمالك نفسي من الابتسام رغم دموع علوان التي بلّلت مقدمة جلبابه. راحت ابتسامتي تنفرج وتتعالى ضحكاتي، بينما تتعقّد المشكلة التي تواجهني، تلك جريمة تُصنّف في القانون جناية اختلاس، تصل عقوبتها إلى الأشغال الشاقة المؤقتة.. خمسة عشر

عامًا بخلاف الغرامة والعزل من الوظيفة بسبب هذا الطاووس ومهنة الرجل، فهو وفقًا للقانون موظف عام، اختلس أموالاً عامة مملوكة للدولة سُلمت إليه بسبب وظيفته، فصارت عهدة حكومية تم تبديدها، والقانون لا يُفرق بين ملايين الجنيهاً أو طاووس؛ فالعدالة عمياء!

توجهت لمكتب رئيس النيابة بعدما أمرت الحاجبين الصائحين بإيقاف مراسم الزفة الكاذبة إياها بإشارة حازمة من يدي، أتبعتهما بنظرة رادعة ألزمتهما مقاعدهما الخشبية على باب غرفتي. جلست أمام رئيسي صامتًا بعدما فردت أمامه محاضر التحقيق التي تحوي اعترافات سارق الطاووس، جرى عليها بعينيه في سرعة وبلا اهتمام، ضحك مثلي عاليًا وطواها، ثم قال وهو يُعيدها لي:

- تمام، خلّص التحقيق وروح نام لك ساعتين علشان حتشيل النبطشية الليلة!

- ومحمد علوان أعمل فيه إيه؟

- احبسه طبعًا، دي جناية اختلاس مال عام.. عُهدة
وبدّدها.. إيه المشكلة؟!

- بس ده عيان بالقلب وسنه كبيرة وكمان أكيد حيترفد
من شغله و...

- ولما هو عيَّان وكبير ومحتاج للشغل بيختلس ليه،
ومن الأساس بيتجوز عيِّلة صغيرة ليه؟

اختفى وجه رئيسي من أمامي، رأيت بدلًا منه تلك
المرأة معصوبة العينين، ميزانها تلك المرة يهتز بشدة
في يدها، طالت فترة صمتي حتى ظن أنه أقنعني،
لكني رددت بحدة موضحًا أنني أعرف كل ما سيقوله
مسبقًا من أن النيابة تبعية، تدرجية، رئاسية، لكني لن
أحبس هذا الرجل، وإذا ما أراد هو حبسه فالمحضر
أمامه ليتخذ فيه ما يشاء من قرارات، فأنا لن أتحمّل
وزره يوم القيامة.

قُلْتُ كلمتي ونهضت، فبُهِت الذي أمر بالحبس، طلب
مني الجلوس بإلحاح، قدّم لي سيجارة، وطلب لنا

بعض القهوة، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ كَمَن يخشى أن يسمعنا ثالث لا وجود له.. إلا إذا كان الشيطان:

- ما تبقاش حنبلي.. عندك حل ثاني؟!!

- أيوة عندي.. نوقع عليه الجزاء الإداري بالرُفد ونكتفي بفصله من عمله ونكتب مذكرة بحفظ التحقيق.

قال بسرعة كَمَن يُلقي بحمولة أتعبت كتفيه:

- موافق بشرط نقترح خصم نُص معاشه كل شهر لغاية ما يسد قيمة الطاووس.

وافقت على مضمض رغم سن الرجل المتقدمة ومرضه ورفده، كُلها أسباب مقبولة لحفظ التحقيقات باختلاس الطاووس عهدته، سدادًا لفاتورة أغلى طبق ملوخية بالطاووس تناوله في حياته بل ربما في التاريخ لبيتعد عنه شبخ السجن للأبد.

أفرجت عن محمد علوان، ودستت في جيب جلبابه ورقة مالية بمائة جنيه قبل انصرافه فسالت دموعه، ظلت أتابع أحواله بعدها من خلال رمسيس وهو يطمئني عليه بأنه في أحسن حال، ولديه مال كثير يُنفق منه ببذخ، وينقل لي استياء أهل الطايعة من قرار الإفراج عنه، وأنا لا أصدقه ولا أفهم سبب الاستياء منه، فرمسيس لا يشرح ما يدّعيه.

بعدها بفترة أخبرني رمسيس أن حال الرجل تبدلت وساءت لَمَّا هجرته زوجته وحصلت على الطلاق ولم يعرف أحد السبب، ثم أبلغني رمسيس مرة ثالثة شامئًا بأن المليحة طليقة علوان تزوّجت من شقيق عمدة البلدة الحالي عبده طايح فمللت الحكاية، حتى جاء يوم وكنا جالسين في تراس الاستراحة فتذكرت علوان، لما لمحت عصفورًا كبيرًا جميلًا بالحديقة ذكّرني بالطاووس، سألت عن علوان، تغيرت ملامح رمسيس وبدا متوترًا وهو يقول:

- يظهر إن لعنة البت نور صابته!

- نور مين؟!!

- نور بنت محمد طابع عمدة التايهة زمان وجد عبده
عُمدتنا النهارده.. لِحقت تنسى الحكاية يا باشا؟ البت
نور ظهرت له في المنام زي الجنيّة وطارت، فقام في
الفجر علشان يحصلها وولع في نفسه.. ربنا يرحمه!

- إمتى الكلام ده حصل يا رمسيس؟!!

- من يومين.. وزميل سعادتك عثمان بك بيحقق في
الموضوع.. الله يرحمك يا علوان ويغفر لك سرقة
الطير اللي ربنا حرّم عليه أكله إلا بالحلال!

سكت رمسيس عن الكلام وانشغل بتقليب كيزان الذرة
على الفحم، شردت فيما قاله، لكن عندما تلاقت عينانا
رأيت عيني رمسيس تلمعان بغرابة أخافتني، ملامحه
كلها اختفت ولم يبق بوجهه سوى عينين كبيرتين،
استعدت بالله في سريّ ثم قلت بصوت عالٍ كي
أطمئن نفسي:

- وأنت عرفت مين إنها زارته في المنام؟

ابتسم رمسيس ابتسامة استنكار لسؤالي ثم قال بثقة
العارف بالخبايا:

- يا باشا كلهم ييموتوا نفس الموتة، يطلعوا فوق الدار
ويولعوا في نفسهم والريح ترميهم على الأرض، طير
مولع نار، عمومًا هو مش أول واحد ولا آخر واحد،
طول ما لعنة البت نور في بلدنا، هي أول واحدة عملت
كده واختفت، ومن يومها كل اللي بتظهر له بيقلدها
بس ييموت على طول.. بتوسوس لهم يا باشا!

لا أعرف لماذا تحسست مسدسي الفارغ ثم نظرت في
عيني رمسيس المخيفتين رغم وجهه المبتسم وقلت
بنبرة أمرة:

- من بكرة الصبح تعدي على المركز تصرف استمارة
طلقات للطبنجة، عاوز خمسين رصاصة على الأقل.

لمحت نظرة شك في عيني رمسيس فاستدركت
بحسم:

- خمسين طلقة زيادة على اللي عندي يا رمسيس.

بيت القبطية - 9



10

خِضْر شَوْه رُوحي، أَطْلُق رِصَاصَاتِ الأَسَى صُوبَهَا بِلَا
 هُوَادَة بَعْدَمَا أَضْرَمَ فِيهَا نِيرَانِ الإِهَانَة.. بَدَّدَ أَحْلَى
 سِنَوَاتِ عَمْرِي.. بَعَثَ أَحْلَامِي، نَثَرَهَا فِي اتِّجَاهِ الرِّيحِ
 فَلَمْ أَلْحَقْ بِهَا.. لَمَلَمْتُهَا مَتَفَرِّقَاتٍ لَا تَكْتَمِلُ بِهَا صُورَة..
 أَحْرَقَ حَبِي لِنَفْسِي وَخَنَقَ مِشَاعِرِي لَمَّا سَجَنَنِي فِي
 جَسَدِي، فَكْرَهْتُهُمَا مَعًا.. قَتَلَ كُلَّ مَعَانِي الدَّفَاءِ
 وَالِاحْتِوَاءِ لَمَّا تَرَبَّصَ بِقَلْبِي وَكَمَنَ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ مَتَعَمِّدًا
 كَسْرِي، فَعَمَّقَ شُرُوحَ رُوحي، صَرَّتْ مَعَهُ مِثْلَ القَمَرِ الَّذِي
 أَغْرَقَ السَّمَاءَ دَمُوعًا، فَصَارَتْ النُّجُومُ لَأَلَى مَنْطَفِئَة
 تَتَسَاقَطُ مِنْ عَيْنِي الحَزِينَتَيْنِ كُلِّ لَيْلَة، وَفِي النِّهَايَة
 قَتَلْتَهُ فَارْتَاخَ هُوَ وَتَرَكَنِي لِعَذَابِي..

مَنْحَ جِيرَانِي لِقَبِّ القِبْطِيَّةِ لِبَيْتِي بِسَبَبِ دِيَانَتِي..
 يُضَايِقُنِي الأَسْمَ وَالْمَعْنَى لَكِنْ رِزْقَ احْتِوَانِي، رَغْمَ
 مَخَاوِفِي مِنْهُ كَرَجَلٍ فِي البِدَايَة، تَمَنَّعْتُ وَتَيَبَّسْتُ
 أَطْرَافِي كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنِّي، بِكَيْتٍ.. ارْتَعَشْتُ.. فَطَمَأَنَنِي
 بِوَقُوفِهِ عَلَى مَسَافَة آمِنَة مِنِّي، ابْتَعَدْتُ مَتَذَكَّرَة زَوْجِ
 أُمِّي وَخِضْرٍ مِنْ بَعْدِهِ.. فَرَبَّتْ رِزْقَ رَأْسِي وَقَبَّلَ يَدَيَّ، ثَمَّ

منحني نفحة من روحه كل يوم لأحيا بها وعليها،
عندما كان يُصلي ويدعو لي في صلواته السبع.

من أول ليلة أخبرني أنه وقع في غرامي، خيط شفاف
من مشاعر دافئة ربطه بقلبي، عيناه الكبيرتان مثل
كفيه تحتوياني.. تطمئناني.. جسدي يرتعش فيهدأ
بين يديه. يقترب لكنه لا يخترق، يتحسني برفق ولا
يخدشني، يشتهيني حسبما أقرأ عينيه، لكنه يحتويني
بمشاعره وينتظر استجابتي، لم يجبرني أو يتعجلني،
ابتسمت له بدلال ذات ليلة، فأشرق وجهه لما اتسعت
ابتسامته قائلاً بنبرة طفل شقي:

- إيه رأيك نلعب دور ورق واللي يخسر يشلح؟! -

خرجت ضحكاتي من قلبي حتى دمعت عيناى، من
داخلي لازلت خجلة ومتوجّسة، أريد احتضانه لكني
أتحسس خطواتي حتى لا أخسره، أخاف الاقتراب
أكثر كي لا أكرهه، وقفت في المسافة الفاصلة بين
السعادة والسلامة، فلم أنهل من الأولى ما يرويني، ولم
تظللني الثانية بعد من شمس الخوف، لا تزال بقاياها

تلفح روحي، تبطئ خطواتي، تزيد عطشي، لكن ما
يُريح قلبي أنها إلى غروب.

وضع رِزق ساقيه أسفله فوق السرير وبدأ يُرتب أوراق
اللعب في حماسة، اعتبر سكوتي علامة رضا، لعبت
وأنا خائفة من الخسارة لكن عقلي ذهب لما بعدها
بمسافة ففقدت تركيزي وخسرت، لمحت في عينيه
نشوة انتصار، يشع منهما بريق عجيب يُدير رأسي
فجعلني ثملة منتشية، لكنه لم يُطالب بحقوقه، صبر
عليها وتركني مع ابتسامته. تمددت على ظهري
وأغمضت عيني، ارتجفت لوهلة ثم هدأ جسدي وهو
يضمني لصدره، انسبت بين ضلوعه، لمست دفاء
مشاعره، طربت لدقات قلبه، بكيت كثيرًا في حضن
رِزق وهو يُغمغم بتراتيل لا أتبينها لكننا نمنا بعمق على
وقعها بأذنيننا حتى الصباح.

مع الوقت محا رِزق آثار عدوان خِضر على روحي،
شعرت بأني أنثى لأول مرة. نَدت من بين شفّتي
ابتسامة رضا، تنهدت مائلة برأسي ناحيته، لم أشبع
منه بعد، تمدد على ظهره بجواري، صدره يرتج لكن

أنفاسه تبدو في طريقها للانتظام، لمحني بطرف عينه فباعد بين ذراعيه وصدرة، اقتربت منه.. التصقت بجسده وأنا أحتضنه، ضمّني بقوة وهو يمسح شعري، همس بأن صبره عوّضه خيرًا، تأخره في الزواج جعلنا نلتقي، دمعت عيناى وأنا أضع رأسي على صدره ليغوص بداخله، لا يريد تركه، تحسّس ظهري بكفّه الكبيرة، داعبته مقتربة أكثر وباطن قدمي يحنو على ساقيه، كأنه يمسح طبقة رقيقة لا تُرى من فوقها بعناية.. فازدادت إثارته واعتصرت كفه نتوءات جسمي، يلتحم جسدانا في ملحمة عشق تالية، وربما هناك ملاحم غيرها تنتظرنا قبل نهاية الليل.. هكذا مئيت نفسي.

صرت مثل فراشة مندفعة نحو النار تتمنى أن تحرقها الخَطِيئة، لكني اخترت طريق الورد والرياحين لأحوم حولها. هزرت رأسي ضيقًا بأفكاري، لا ليست خطية ولم تكن يومًا، يؤرقني فقط ما أخفيه عن رزق بمقتل خضر بعدما لاقيت منه حنانًا غمرني، وكلما شعرت بأنني ارتويت منه ظمات، ليرويني ثانية، فأزداد ألقًا

وقلقًا في آنٍ واحدٍ.. يريد الإنجاب بأي ثمن وأنا
اشتقت لأكون أمًّا. العمر يسبقه وهو يلاحقه بسرعة
لكنه لا يلحق به، تخطى رِزق الأربعين بخمس سنوات
ولم يُرزق بطفل، بوادر الحمل لا تظهر حتى الآن على
بطني، وعيناه تفضحانه، بهما مسحة من حزن مثل
ومضة لا يلحظها غيري بسهولة، رأيتها هذه الليلة،
اقتربت من عينيه فدمعتا، مسحتهما بكفي ومِلت على
صدره ثانية بشديي، نفوسنا تتلاحم، فهمست:

- وحياة سِتِّنا العَدِّرا ليكون ولد كمان.. بس اصبر وإياك
تسيبيني.

- ده أنا ما صدقت لقيتك.. أسيبك إزاي ولمين يا روح
الروح.

قالها رِزق وهو يُقبِّل راحة كفي، ثم رقبتني ووجنتني
إلى أن وصل لشفتي وأنا ألتحم به، ذُبنا سويًّا في عناقِ
طويل، ثم تمددنا على ظهرينا للحظات، كأننا فرغنا
لتوُّنا من عراقٍ لطيف أنك مشاعرنا، لكنه يؤججها.

مرّت دقائق قليلة ثم تشاءب رِزق في وداعة طفل،
سحب الغطاء على جسده ليعلو شخيره بعدها،
وغرقت في هواجسي أن الرب يُعاقبني بعدم الإنجاب
بسبب كذبي على زوجي، مع أنني لم أقصد قتل خِضر
أبدًا.

عندما نقف في حيرةٍ ما بين القول والفعل.. في
المسافة الفاصلة ما بين الشك واليقين.. ليس أمامنا
سوى الدعاء.

منذ يومين رُزقت شقيقة رِزق بطفل، لكنه ولد مبتسرًا
على شفا هلاك كما قال طبيب الوحدة الصحية، جنين
بلا حراك تقريبًا، بارد كجثة هامةٍ فظنوه ميتًا، طلبوا
مني منح الصبي المنتظر بركتي. منذ وصولي
وجيراني يتباركون بي، يظنون أنني صاحبة كرامات،
بسبب مصادفات لا دخل لي بها سوى أن القدر فعلها
في حضوري، فنسبوها لي وحدي.

ارتبكت، فسقف التوقعات يرتفع كل يوم، لست في حاجة لمزيدٍ من الألم كي أغوص في العمق دون أن أدري متى سأطفو على السطح، دعوت العدرا للوقوف بجانبني كما تعوّدت، وضعت يدي على رأس الطفل وتمتت بالدعاء، تحرك الصغير بعد ساعتين ورفس بساقيه عدة مرات، لولا ذلك لدفنوه حيًّا، تحول اللطم والندب إلى زغاريد، بكت العيون ثانية لتزيح دموع الحزن جانبًا، اتسعت الابتسامات لتمحو كرمشة الوجوه التي فُجعت لفقد ولد طال انتظاره فيما يبدو، حتى راقت واستراحت.

سرت شائعة بأنني أحييت طفلًا ميتًا ببركة يسوع.. حوّطه بذراعيه وأبعد عنه ملاك الموت إكرامًا لخاطري.. ذاع صيتي أكثر كصاحبة كرامات مع أنني لم أفعل شيئًا سوى الدعاء، صار من المعتاد بعدها أن تأتي نسوة من بلاد ومراكز قريبة يسألن عني كي يتبرّكن ببركتي وليلدن ذكورًا، لكن الغريب أن الكثير من المترددات على داري كنّ من المسلمات، وتقبلتهن بمحبة.

حفيف أوراق الشجر يتصاعد صوته ليُخيفني، صفير
الريح يزيد كأنها تنبهني للنهوض والدخول إلى حيث
دفع الفراش، ارتشفت ما تبقى بكوب الشاي الثقيل
مُتلمّسة مزيدًا من دفع، ظلمة الليل حالكة، أرى كف
يدي بصعوبة، البرد يتسلّل إلى عظامي رغم استعدادي
لمواجهته بالملابس والأغطية الثقيلة بما يستر رأسي
وأذني حتى أصابع قدمي.. ثناءبت طويلًا كأنني أنادي
النوم من مكمّنه ليأتي مسرعًا مثلما لحقه رِزق مبكرًا
عني. هممت بالقيام لكني تسمّرت في مكاني وأنا ألقى
عبر النافذة بنظرةٍ عابرة، خُيل لي أن شبّح رجلٍ ملثم
يهرول بين البيوت، بصحبته رجل ضخم بطيء الحركة
يحمل دلوًا. ظللت واقفة ولم أتحرك.. فتوقفا بدورهما
على مبعدة، بالكاد أراهما، عينا الملثم تلمعان ببريقٍ
غريبٍ مثل عيني قط أسود ضخم، أو هكذا خُيل لي.

سمعت حركة خفيفة بالقرب مني، التفّ لِرِزق وجدته
استيقظ قلقًا ليشرب، ثم جلس مطرقًا على الأرض
ملتحفًا ببطانية صوفية سوداء، يعبث بأصابعه في

الفراغ كمن يرسم أشكالاً هندسية ويغمغم بكلمات غير مفهومة بصوتٍ شبه هامس!

- شايف اللي أنا شايفاه هناك يا رزق؟

رمقني بنظرةٍ حانيةٍ طالت قليلاً، ثم نهض متكاسلاً وأجابني بلا مبالاةٍ قائلاً إنه لا يرى شيئاً، راح يطوي بطانيته وهو يُعيد على مسامعي عبارته المعتادة منذ زواجنا، بأن الأهالي هنا لا يحبون البلاغات ولا إشراك الحكومة في مشاكلهم، ثم صعد السرير لينام وغطّى جسده كله!

أحسست بنبرةٍ غريبةٍ بين طيّات كلماته، تحذير خفي من توجيه أسئلةٍ أخرى في الموضوع، ربما شعر أنني أريد أن أعرف أكثر ممّا ينبغي لي أن أعرفه، أو ربما يخاف عليّ من نفسي الأمّارة بالفضول!

نظرت ناحية الشبحين اللذين رأيتهما فلم أجد أرى شيئاً.. تبخّراً، لمحت فنطاس الماء المرشم بالصليب الذي أحضره رمسيس منذ يومين وطلب مني رشه

أمام بيوت الأقباط ليمنع سحر المسلمين، تشككت فيه بلا سبب، فتحتته وجدت فيه ماءً بالفعل، لكن له رائحة غريبة أقرب لرائحة الجاز وإن كانت خفيفة للغاية.

شعرت برجفة وأنا أحكم غلق النوافذ وأراجع على قفل الباب، ثم صعدت سريري وصورة رمسيس وهو ملثم لا تفارقني، حتى أسدلت جفوني من شدة التعب والخوف، نمت ممسكة بيد رِزق من تحت الغطاء فطمأنتني.

طوال الليل أرى كوابيس في منامي، تارة رمسيس يأمرني برش الماء، وتارة تشتعل النيران فجأة لتأكل البيوت التي رششته أمامها، من وسطها يقف رجال بجلايب يرسمون الصليبان على الأبواب وهم يضحكون ولا تحرقهم النار أبدًا!!

في الصباح وجدت صليبيًا آخر مرسومًا على بيت المرحوم محمد علوان المغلق فأصابني الدهشة، أخبرت رِزق بكابوسي وأنا ملتاعة، ثم أردفت:

- رسموا صليب تاني على بيت علوان!

بلا مبالاة أغرب من تلك التي صاحبتة أمس قال رزق
وهو يضع أدواته بحقيبة الشغل:

- عادي.. أكيد الخبر اتسرب.

- خبر إيه؟

- الكنيسة اشترت البيت والقيراطين من ولاده لما
مات، ومراته الثانية طلعت من المولد بلا حمص.



11

- مافيش من بعد حرق الزرع جيرة..

قالها رمسيس بنبرة متحدية لمأمور المركز في حضور ضابط المباحث وآخرين بملابس مدنية لا أعرفهم، لكنهم لما انصرفوا من الغيطان المحروقة مضى خلفهم المأمور وضابطه وعساكره مهرولين!

على مدى أسابيع متتالية ظل أهالي قرية الطايعة يعيشون حالة من القلق والترقب والهلع، غيطان الأقباط تحترق من حدودها مع أرض المسلمين كل يومين تقريبًا، وأحيانًا نادرة يحدث العكس، وتتلف مزروعات المسلمين المشوَّنة بالغيظ بسبب الحريق، ومع ذلك اتهمهم رمسيس في حكاويه بأنهم يفتعلونها .. وصدَّقناه. ثم زاد الطين بلةً لَمَّا صحونا منذ فترة على انتحار محمد علوان حارس الطواويس الذي صارت شهرته الآن سارقها. الطريقة التي أنهى بها حياته أعادت لذاكرة الأهالي ذكرى اندلاع الحرائق المفاجئة في منازلهم منذ عامٍ مضى بدون سابق إنذار

مثلما حكوا لي، ممّا دفعهم إلى الاعتقاد بأن الجن هو الذي يحرق البيوت ويقتل الناس، خاصة وأن النيابة حفظت كل البلاغات ضد مجهول كما أكد لنا رمسيس.

كنا في طريقنا للكنيسة أنا ورزق وشقيقته لحضور القدّاس، فجأة دقّت الأجراس ولم تتوقّف.. توجّسنا شراً وهرولنا ناحيتها، وجدنا أبانا إسطفانوس واقفاً قريباً من بابها، أمام مبنى يُشبهها إلى حدّ كبير لكنه أصغر منها حجماً، على بُعد خطوات خلفه رأينا رمسيس وحوله عشرات الشباب من حُدّام الكنيسة والشّمّاسين غاضبين، النيران بالداخل ترتفع ومحاولات يائسة لإطفائها، الشرطة تفرض كردوناً كبيراً حول الكنيسة والمبنى الجديد الملاصق لها، تسد كل الطرق للوصول إليها، تمنع مئات الفلاحين من الاندفاع ناحيتها، كانوا يهتفون ضدّنا ويحرقون صلباناً خشبية، أمسك رزق بيدي لأقترب منه أكثر، علمنا من رمسيس أن أحدهم أضرم النار في المبنى الجديد الملاصق للكنيسة عن طريق إلقاء كرات النار من خارج

السور، لكننا لم نعرف السبب بعد، فقد كان يُجيب على عشرات السائلين باقتضابٍ متعجلاً.

انتبهت فجأة لاختفاء رمسيس من بيننا مع أنه كان يسير بجواري منذ قليل، اقتربنا من الجنود لنعبّر الكردون فرفضوا، توسّلنا للضابط، فأجابنا بملامح جامدة صارمة لا تعني شيئاً سوى الرفض، لمحني أبونا إسطفانوس فاقترب منا وتوسّط لنا للدخول إلى الكنيسة فمرقنا من بين الحاجز البشري.

أفلتنا بالكاد من أيادي المتجمهرين، التي طالت ملابسنا وتحسّست أسفل ظهري في وقاحةٍ وخسّة، لكنني كتمتها وخشيت أن أفضي بها لرزق، احتمينا بسور الكنيسة والهتافات تعلو، والضابط يحاول تهدئتنا مع أننا المتراجعون، المُحاصرون.

خمدت النيران لكنها لا تزال مُستعرة بصدورنا. أبونا يستمع للضباط ولا يُعلّق، عاتبه أحدهم على محاولة بناء كنيسة دون تصريحٍ لكن أبونا أفهمه أنه مجرد مبنى للخدمات وليست كنيسة، ثرثر الحضور كثيراً

بكلامٍ لم أفهمه حتى نطق ضابط أمن الدولة بعبارة الوحدة الوطنية، وأعادها وراءه ثلاث مرات عضو مجلس الشعب عن قریتنا، هنا انتفض أبونا غضبًا وهو يُردّد باستنكار موجهًا كلامه لعضو مجلس الشعب وحده:

- وحدة وطنية والا خيبة قوية؟! -

فجأة انقطع التيار الكهربی ثم سمعنا صوت أعيرة نارية قريبة أعقبها صراخ، أنارت الجموع المحتشدة مصابيح متناثرة، سقط اثنان أو ثلاثة من المسلمين المحاصرين للكنيسة مُضْرَجِينَ في دمائهم، بينهم مُجَنَّد من الشرطة مات على الفور، حدث هرج شديد وتدافع من جموع الأهالي المتجمهرة، تصدَّى له الكردون الأمني بعنف، فصاروا مثل موجات بشرية تتلاطم بعنف على كتل صخرية.

انسحبنا إلى داخل الكنيسة والشباب يُحيط بأبينا إسطفانوس خوفًا على حياته، كنت ورزق آخر الداخلين، علت الهتافات من خلفنا، صارت واضحة

هذه المرة، كلها تهدد بالثأر لعلوان مرة ثانية وللقتلى الثلاثة منذ قليل.

لم أفهم شيئًا ممَّا يجري حولي، لماذا نقتل ثلاثة من المسلمين؟ ولماذا يحرقون مبنى للخدمات أو حتى كنيسة بدون تصريح كما قال الضابط؟ مَنْ مَنَّا يُشعل النار بيننا وبينهم؟!

فجأة لمحت رمسيس وقد ظهر قرب صحن التعميد وخلفه السلم المؤدي للسطح، وقف يتحدث مع آخرين في عصبية بالغة، ملابسه متربة وابتسامته خافتة و صدره يرتج، بدا كمن يوبخهم على أمرٍ ما لم أتبينه، اقتربت منه فسكت عن الكلام وهو ينظر لهم بحذر، بادره رزق بالسؤال متوجسًا:

- مين اللي بيضرب نار من فوق يا عم رمسيس؟!

أجابه بعصبية بالغة:

- ولاد الحرام كتير يا رزق.. خليك في حالك.

سألته عن الهتاف الذي يتردد بالخارج بخصوص الثأر
لمحمد علوان، ففاجأني قائلاً بهدوءٍ وهو ينظر لعيني:

- أصل النيابة راحت المدافن وطلَّعوا جثة محمد
علوان وعادوا تشريحها.

- طيب واحنا ما لنا وما له؟!!

- بيقولوا مات مخنوق وبعدين اتحرق، والجماعة
السُّنِّيَّة بيتهمونا بقتله.

ظللت لأسبوع لا يقربني رِزق بسبب همومنا وتوتر
الأجواء من حولنا، صرنا كتابوتين من الخشب بجوار
بعضنا على السرير الكبير بلا حراك، يُجافي النوم
أعيننا، يُصاحبنا الأرق والقلق حتى يُسلمانا لخيوط
النهار، لندور في ساقية الخوف إلى أن يهبط ليل
جديد، ظللنا مهمومين حتى حُفظت قضية علوان ضد
مجهول مع قضية قتل المسلمين الثلاثة أمام الكنيسة

ولم يُتهم قبطي واحد فيهما، ثم نسي الناس الموضوع بعدها، أو هكذا هُيئ لي.

- هو احنا ماورناش غير سيرة الموت؟ ده حتى الحي أبقى من الميت.

قالها رزق وهو يبتسم ابتسامة صرت أعرفها جيدًا، فابتسمت كفتاةٍ بكرٍ خجلة في ليلة الدُّخلة، احتواني رزق واستسلمت لمشاعري، ذابت أرواحنا وأجسادنا في مزيجٍ من الشوق، عوضنا أسبوع الجفاف وأخذنا بحقنا من أحزاننا، تسلت من سريري النحاسي لأغتسل، سرت على أطراف أصابعي كي لا أوقظه بعدما سهرنا ننهل من عسل بعضنا حتى مطلع الفجر، ظللت أدندن بأغنية قديمة لشادية التي لا أعرف كيف يقولون إنني أشبهها رغم سماري، انساب الماء الساخن على جسدي فدلكه، نمت بعدها نومًا عميقًا، افتقدته منذ فترة بعدما ظل الأرق يُلازمني فيها، فلم أشعر برزق في الصباح لَمَّا غادر مبكرًا.

غادرت البيت قبل الظهر، انحرفت إلى أقصى اليسار
 مثلما أفعل كل مرة عند ذهابي للسوق، كلمات رزق ترن
 في أذني التي يقولها كل يوم ولا يمل من تكرارها،
 وكأنه فرغ من إلقائها على مسامعي للتو خاصة بعد
 أحداث الكنيسة...

"بلاش أسواق المسلمين ودكاكينهم، خرينا في حالنا
 وهما في حالهم".

ابتعدت قدر الممكن عن العزبة البحرية والمسجد
 الصغير، لا أريد استعادة ذكريات أليمة منذ وطئت
 قدمي الطايعة، شردت قليلاً وتذكرت رغماً عني ما
 حدث بالمضيقة ليلة وصولي.. فزفرت بضيق، انتبهت
 لصوت فرامل سيارة تُصفر من جراء احتكاكها
 بالطريق، ثم رأيت نصف رجل يخرج من نافذة السائق
 ويعلو صوته متهمًا إياي بأنني جاموسة عمياء.

برقت عينا الرجل فجأة وغطت الدهشة ملامحه،
 تماكنت نفسي بسرعة، أخفيت نصف وجهي بطرحتي
 وأدرت رأسي لليمين مسرعة الخطى، انحرفت يسارًا

مرة أخرى بحدة وأنا أمد في خطواتي، أقاوم رغبتني الجارفة في الالتفات نحوه كي لا يشك فيّ حتى خارت مقاومتي والتفتُّ، رأيتَه يهرش مؤخرة رأسه مترجلًا من سيارته، ثم هرول محاولًا اللحاق بي، ولولا سيل سيارات النقل التي علت أبوابها وتوقفت خلفه عندما تعطل سيرهم لكان لحقني.

لا شك لديّ أنه هلال شقيق خضر الأكبر، الذي كان رافضًا لزواجي من شقيقه، كي لا يرثه أبناء القبطية كما أطلق عليّ، فهو لم يُنجب سوى بنات، لكن ما الذي أتى به إلى هنا يقود سيارة نصف نقل؟! لم أجد إجابة، هرولت لمسافة كبيرة، التفتُّ نصف التفاتة سريعة ثانية فلم أره، انسابت حركة السير بالطريق وربما ابتلعه الزحام.

لاحظت قرب السوق هدوءًا غريبًا يلف المكان رغم انتصاف النهار، زادني قلقًا ونشط البركان الذي بداخلي، خطواتي لا تزال مرتبكة، أتلفت كثيرًا حولي وخلفي، أتفرس في وجوه المارة بجواري بامعان بحثًا

عن وجه هلال بينهم، أشعر بخوف يمزق جنباتي
ببطء، فكرت في العودة للبيت لكني خفت من الفكرة.

قررت عبور السوق للبر الثاني والذهاب إلى الكنيسة
كي يطمئن قلبي، مضيت في طريقي والباعة من
حولي لا يتعدون أصابع اليدين، من بعيد لمحت بائع
البطاطا صليب لبيب آتياً نحوي وهو يدفع عربته
الخشبية حافياً، يصرخ بعبارات غير مفهومة لم أستطع
تبينها حتى لَمَّا اقترب مني، كأنه يفر من قدره.

مرق صليب من يميني وكاد يصدمني، خلفه شاب
طويل يرتدي جلباباً أسود وعمامة من ذات اللون وكأنه
مَلَك الموت، ممسكاً ببندقية قصيرة، توقف على
يساري وأطلق منها خرطوشاً تبعه بآخر مباشرة.. صرخ
صليب عاليًا وانكفأ على عربته الخشبية.. اندفعت
العربة للأمام أمتارًا قليلة وتوقفت وخلفت صليب
وراءها منكفئًا على وجهه، والدماء تندفع من ظهره
ورأسه وهو لا يُحرك ساكنًا.

تحوّل السوق في أقل من دقيقة إلى ساحة معركة، رجال تهزول من الجانبين، آخرون يتضاربون بالعصي، وصبية صغار يقذفون غيرهم بحجارة صغيرة والسباب يتطاير من الجميع.. هرولت ناحية دار أم صليب الملاصقة لأكشاك السوق، ابنها سقط مضرجًا في دمائه منذ قليل ولم يُسعفه أحد وهي تصرخ من داخل دارها.

دفعتُ الباب بصعوبة لوجود جوالين خلفه وأنا أنادي عليها لأطمئنها، وجدت ثلاث نسوة متشحات بالسواد يولولن ويلظمن خدودهن، بينما أم صليب تحاول رفع الجوال الثالث فوق رأسها كي تضعه خلف الباب. دون تفكير عاونتها حتى صارت هناك متاريس كافية من سبعة أجولة مملوءة بالدقيق.

ارتكنت وأم صليب بظهرينا على الأجولة، نلث بشدة من التعب رغم فارق العمر بيننا، تنهدت ووضعت يدي على صدري المرتج ممسكة بصليبي الذهبي الصغير لكي أطمئن، رفعت رأسي للسقف فرأيت السماء واضحة من كوة كبيرة، تبادلت نظرات خائفة مع أم

صليب، وجدتها تُشير لي بعينيها لأعلى وكأنها تقول..
"سوف ينالون منّا من هذه الفتحة".

فجأة سمعنا صوتًا جهوريًا عبر ميكروفون مشوش
يُرَدّد صدّي فيزيدنا فزعًا..

- يا أم صليب أسلمي تسلمي.. حيموتوكي لو ما
نطقتيش الشهادتين!

انتفضت أم صليب من جلستها كفتاة متحمسة، علا
صوتها بغير مكبر ليغطي على صوت الرجل، زاعقة:

- يموتونا يا خليفة.. حنموت أقباط على دين أبونا
وعلى اسم المسيح.

فيما يبدو أن خليفة ابتعد بعد كلماتها فلم نعد نسمع له
صوتًا، انهالت الطرقات على باب الدار لكنه صامد
بالأجولة المترسة خلفه، يرتج بقوة، يكاد ينخلع من
مفصليه، ثم سرعان ما يعود لموضعه ثابتًا، فجأة
توقف الطرق، ثم راحت سيدات يصرخن وأطفال
يتصايحون في هرج.

قفزت مسرعة كأن هاتفاً من السماء ناداني.. جريت نحو طست كبير مملوء بالماء، جررته بسرعة ليستقر في منتصف صحن الدار أسفل فتحة السقف الكبيرة النافذة على السماء. تعالت تكبيرات متتالية ثم سقطت كرات النار داخل الدار، انطفأت الأولى والثانية، وأمسكت الثالثة بطرف ثوب سيدة من السيدات الثلاث المتكومات أمامنا، حملت الطست مع أم صليب وأفرغناه فوق السيدة التي كادت تحترق، قبل أن تطول النيران نصفها العلوي، بعدها سمعنا صوت سرينة عربية الشرطة من بعيد، أعقبها هرولة أقدم كثيرة، ثم ارتفع صوت رجل بالصياح مشابهاً لصوت خليفة الذي كان ممسكاً بالميكروفون:

- ابنك لسه فيه الروح يا أم صليب.. أخرجي علشان تشوفيه!

تبادلنا نظرات حائرة.. خائفة، ولم ننطق بكلمة.

بيت القبطية - 11



12

يحيط بي ليل ثقيل، يلفه صمت مريب، كأنما أرهقه
 كتمان سر يوشك أن يغلبه، خيوط الفجر تتسرب،
 تتباعد، تنتهز فرصة تردد الليل في آخره لتغمر ما
 تبقى منه بضوء النهار. لا أدري كم مر من وقتٍ وما إن
 كنت أحلم أم أن ما يحدث أمامي واقعًا، فقد سمعت
 الهاتف يدق طويلًا، ثم رد الخفير نبوي وتبادل حديثًا
 لم أفهم منه حرفًا كالمعتاد بسبب اللحمية التي تملأ
 أنفه، ووجدت رمسيس يهزني برفق ليوقظني، فتحت
 نصف عين صامتًا منتظرًا تفسيرًا.. فقال:

- بلاغ من المركز بقضية قتل يا باشا!

فركت عيني حتى احمررتا، تشاءبت غير مبالٍ، عقارب
 الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحًا، ليسترسل
 رمسيس كأنه يحفزني أكثر لأقفز من رقدتي:

- واحد من الجماعة الشنية قتل ابن أم صليب في
 السوق وأربعة انصابوا وحالتهم خطيرة.

شعرت **بصرصرة** الريح، أبصرت **عبر** النافذة أغصان
 الشجر راحة لخالقها، الهواء البارد يلفح الوجوه
 ويضرب الآذان بشدة، المارة القليلون يُسرعون الخُطى
 بالطُرقات، مُطرقون متلحفون بالصوف، قبل أن تنفتح
 أبواب السماء وتغرق الأمطار الأرض وما عليها، على
 مقربة من الاستراحة يظهر غراب كبير يطير وحيدًا..
 بعيدًا عن السرب.. عكس الرياح في هذا الوقت
 المتأخر على غير عادة الطير، ينعق عدة مرات كأن
 القادم أسوأ، يتمتم المصلون بالسلام خلف الشيخ
 رجب، يغادرون المسجد الصغير، يغمغمون في همس،
 يبدو أنهم يستعيذون بربهم من صوت الغراب.

ركبنا سيارة المحكمة أنا ورمسيس الذي أصر على
 مرافقتنا، معنا الخفير نبوي الذي اصطحبته رغمًا عنه
 بعدما طمأنته بأن طبنجتي معي، قبلها ظل نبوي
 ينتظر في مكمنه بغرفة رمسيس التي صار يبيت بها
 حتى غادر المصلون جميعًا، ثم مرق باتجاه العربة
 وقفز بالمقعد الخلفي وتلفع بكوفيته.

قطعت السيارة الطريق بنا في اتجاه شارع السوق الكبير حيث بيت أم صليب والسكون رفيقنا، الجميع يغطون في سُباتٍ عميق، قطعنا شارع السوق الخالي من المارة، لا أحد هنا يستيقظ قبل الساعة صباحًا، قالها رمسيس لافتًا نظري بأن المنطقة غالبيتها من النصارى، فقط ستة عيون سود يُجافيهما النوم، اثنتان منها جريحة مكلومة دامعة، الباقيات تورقها مشاعر متباينة من الغضب والقلق والخوف وقليل من الأمل.. أم صليب تبكي ولدها وجارة لها تواسيها، وثالثة لم تكن سوى هدى حبيب التي هبطت على استراحتي منذ شهور، تقف ذاهلة وسطهما كتمثال، في عينيها نظرة ميتة مخيفة، تحركت باتجاهنا فجأة لما رأتنا.

- الست هدى القبطية.. شاهد عيان يا باشا.

قدّمها الضابط بديانتها فتضايقنا، تلاقت عينانا فارتاحت ملامحها لرؤيائي أو هكذا ظننت، تظاهرت بأنها لا تعرفني، فسأيرتها مرحبًا بقرارها، حالها مختلفة عمّا رأيتها أول مرة، وجهها متورد وجسمها ممتلئ، عيناها تشيان بالراحة الآن رغم كآبة المنظر الذي

يحيط بنا، قبل أن أوجّه لها أي كلمة كنت أريد سؤال الضابط عن بقية الشهود، لكنني فضلت التريث، فربما يكون الحادث وقع منذ قليل والجميع نيام.

أشرت لها ببدء الكلام فتكلمت بنبرة هادئة لكنها ذات وقع محبب على الآذان، روت لي ما رآته حتى نادوا عليهن لرؤية صليب قبل أن يموت، لكن القدر كان أسبق ولم تعرف من المُنادي. فرغت هدى من قصتها وسكتت عن الكلام وبقيت في نفسي مرارة السؤال.

بدأنا نتحرك لإجراء مناظرة لجثة صليب وهدى تسير خلفنا، ما إن رآها الجمع الحاشد من الأهالي حتى غلّت الزغاريد مدوية فجأة، وقفت هدى لتلتقط أنفاسها المتلاحقة من جرّاء انفعالها، كبرت دهشتي حتى غطت ملامحي على ما يبدو فالتفتُ لرمسيس الواقف خلفي مباشرة هامسًا:

- زغاريد ليه وابن أم صليب لسه مقتول وسايح في دمه؟!

- لأ يا باشا ما تستغربش، الزغاريد لست هدى لأنها مبروكة.. دي أول مرة في الطايعة ينزل طير النار على بيت أقباط وما ينحرقش، علشان كده الناس بتتبارك ببيت القبطية من يوم ما سكنت هنا.

التفتُ ناحية هدى فوجدتها مطرقة، كأنها لا ترغب في مديحها، سألتها مداعبًا عن حكايات التبرك بها التي انتشرت بالقرية، تقلبت ملامحها بسرعة وبدا عليها الضيق، قبل أن ترد انبرى رمسيس من ورائي زاعقًا:

- بركة ربنا يا باشا.. والعدرا بتحميها وتضل عليها بمحبتها ورحمتها.

نحيت هدى جانبًا وقررت معاينة مسرح الجريمة، كبر الهاجس بداخلي لعدم وجود شهود آخرين، الحادث وقع في "عز الضهر" كما علمت، وكلما سألت الضباط عن الشهود قال جميعهم إجابة واحدة كأنها ملقنة سلفًا.. "24 ساعة ونبلغ سعادتك بأساميهم".

لماذا أبلغونا بالحادث متأخرين كل هذه الساعات؟ ولماذا تعمّدوا إيقاظي في الفجر وكأن الحادث وقع قبله بقليل؟ ساورني شك هائل في العبث بمسرح الجريمة طوال هذه الساعات، هذا الشاهد الصامت الذي لن يبوح لي إلا بما تركوه فيه، رُحت أقسمه لمربعات كبيرة وطلبت من رجال الشرطة وضع كردونٍ حولها حتى يسهل عليّ إجراء المعاينة، لعلي أجد دليلاً على عبثهم، لكنهم مشطوه جيداً قبل وصولي على ما يبدو.

أصدرت أمراً بضبط وإحضار المدعو خليفة وطلبت تحريات الشرطة حول الجريمة، سلمت القرار لمأمور المركز الذي بدا نائماً من شدة ثناؤبه، التقط ضابط أمن الدولة أمر الضبط وقرار التحريات من بين أصابع المأمور كنسرٍ جارحٍ يخطف عصفوراً ناعساً من عشه، ثم دسهما في جيبيه. لم أعلق بحرفٍ وتظاهرت بأني لم ألمح ما جرى.

تقدمت نحو "صليب" وناظرت جثته، لاحظت نزفاً خفيفاً من ظهره، وجرحاً متجلطاً حول رقبتة. بجواري

رجل قصير بأذنين كبيرتين أشبه بمغرفة، مبتسمًا بلا سبب، عرّفني بنفسه بأنه الطبيب الشرعي، ارتحت لوجوده وطلبت منه إجراء التشريح فورًا بمشرحة مستشفى المركز.

مال نبوي على رأسي وهو يهمس لي معرّبًا عن قلقه من وقفنا بالطريق العام التي طالت، طمأنته وأنا أتحسس طبنجتي عدة مرات فارتاحت ملامحه، ثم سألته عن سبب خوفه وهو يحمل بندقية على كتفه، تلفت حوله عدة مرات، ثم اقترب مني وهو يقول بصوتٍ خفيضٍ مرتعش:

- مفيهاش طلاقات يا باشا، منظر بس، لكن وحياة حبيبك النبي ما تجيب سيرة لحد هنا!

لم أجد أدري هل أرثي لحاله أم لحالنا معًا، كلانا يعتمد على الآخر، وكل منا يحتاج لمن يحرسه، ابتسمت له ابتسامة بلا معنى وتركت له فهم مغزاها كما يحلو له.

اصطحبت الطبيب الشرعي وجثة صليب والخفير نبوي في سيارة المحكمة في طريقنا للمشرحة، بطبيعتي لا أتحمل رؤية دجاجة تُذبح، يصيبني الفزع إذا ما رأيت جرحًا غائرًا ينزف، وتتهيج معدتي إذا ما ناظرت جثة، فما بالي وأنا الآن بالمشرحة.

اصطففنا حول طاولة خشبية في حجرة شبه مظلمة، رائحتها أشبه بالقبور، شعرت بأني في بروفة للمستقر الأخير، بجواري جرجس كاتب النيابة، ثم ظهر فجأة رمسيس ولا أدري كيف وصل قبلنا، ظل يهرش فروة رأسه ببطء وهو يتفرس في جثة "صليب" يامعان كخبير متمرس، من بعده بخطوات وقف الخفير نبوي الديق يتعرق من كل فتحات جسده رغم برودة الطقس وكأنه القاتل، خُيل لي أنه يُتمتم بآيات قرآنية مسموعة بوضوح مع أنه يدق صليبًا كبيرًا على رسغه وكلما ذكّرت نفسي بسؤاله عنه نسيت!

على الجانب الآخر من الطاولة الراقد عليها جثمان "صليب" كان الطبيب الشرعي ومساعدته يعملان بهمة، فتح المساعد حقيبة كبيرة لان قفلها مع مرور الزمن،

أخرج منها أدواته بملامح مفعمة بالحماسة، بدا مثل فنان يجهز ريشاته وأقلامه.. منشار ومشرب وقادوم ومطرقة عجوز بيد خشبية شبه متآكلة ولها رأس جلدي كبير وأوانٍ زجاجية مختلفة الأحجام، ارتدى الطبيب ومساعدَه قفازات بلاستيكية، بقرا بطن "صليب" بسهولة من يخط خطًا مستقيمًا على ورقة بيضاء، أخرج الأمعاء اللولبية فزجر بطني، قصَّ المساعد بعضًا من مصران "صليب" ووضعَه في إناء من أوانيهِ، ظلا يعملان بينما خيم علينا الصمت كأننا بالقبر، حتى سمعنا دويًا هائلًا فجأة.

ارتعشت يدا الطبيب وانتفض مساعدَه، لا أنكر أنني فزعت أيضًا لكني تماسكت، الوحيد الذي تحرك بهدوء كان رمسيس، جثا على ركبتيه محاولًا إفاقة نبوي الذي فقد وعيه وهوى بثقله كله على مقعد خشبي قديم فحطمه، لم تفلح محاولات الإفاقة، جرّه رمسيس من قدميه خارج الغرفة وسلّمه لخبراء المركز وضابط القسم وعاد لمكانه كأن شيئًا لم يكن، معطيًا إشارة للطبيب بيده لكي يستمر في التشريح.

نَدَّت مني ابتسامة رغماً عني وتابعت الطبيب الشرعي،
سرعان ما اندمج في عمله بانسجام، شقَّ صدر
"صليب" بالمنشار حتى بان لنا قلبه وسط ضلوعه،
تناول المساعد جزءاً من الرئتين، أشبه بلوزتين
كبيرتين، ووضعه في إناء آخر، قلب الطبيب الجثمان
على بطنه وتفحص جرحه بعدما أزال طبقة الدماء
المتجلطة، ثم نظر لي نظرة ذات مغزى.

تأمّلت الجرح وهزّزت رأسي مُعلنًا موافقة ضمنية على
رأيه الذي لم يقله بعد، رفعت بصري فتلاقت عينانا
مرة ثانية، لكن الطبيب الشرعي لم يقل شيئاً هذه
المرة أيضاً، شمر عن ساعديه وفتح رأس "صليب" من
الخلف بالمنشار، ثم حَزَّ العظم طبقة تلو أخرى إلى أن
وصل للمُخ، تفحصه بغير اهتمام، ومع ذلك أملى بعض
ملاحظات لمساعدته، فدَوَّنَها بسرعة في دفتر صغير
أخرجه وأخفاه بجيبه كما الحاوي، تشككت في طريقة
التشريح، بدت لي بدائية نوعاً ما وربما خاطئة، لكني
لم أجروُ على التعليق فلست متخصصاً.

أخرج الطبيب الشرعي من جيبه عدسة كبيرة فحص بها جروح "صليب"، ثم سلّمني العدسة لأرى بدوري، وجدت ثقبًا صغيرًا بظهره، استخلص الطبيب من بعضها حشراتًا لطلقات خرطوش، وضعه في إناء ثالث ثم استعدّل الجثمان مسجياً إياه على ظهره، أمرًا مساعده بتخييط الجثة.

فوجئت بالمساعد يُلملم أعضاء "صليب" فوق بعضها كجوارب متفرقات، يكومها في منتصف بطنه كمن يُجهز صُرّة ملابس قديمة على عَجَل، أخرج إبرة طويلة عريضة من حقيبته مستعينًا بخيط غليظ التقطه من فوق طاولة قريبة، أشبه بالدوبار المستخدم في تصنيع الأجولة، شد جدار البطن من الجانبين وأعمل فيها الخيط ثلاثًا، ناوله رمسيس ملاءة بيضاء من درج مكتب مستقر في ركنٍ بعيد، لا أعرف كيف عرف بمكانها هناك، وغطى بها جسد "صليب"، مال رمسيس ناحيته وقرأ قرب صدره آية من الإنجيل، ثم هممنا بالانصراف.

أبطأت قرب الباب لَمَّا همس الطبيب بأذني بما شككت فيه، قال:

- صليب انضرب عيارين خرطوش في ظهره جرحوه ووقع وهو بيجري، لكن سبب الوفاة نزييف حاد وهبوط مفاجئ بالدورة الدموية بسبب ذبح بالرقبة من الخلف بسكين حاد.

- يعني كان لسه عايش زي ما الشاهدة هدى حبيب قالت لنا وحد ضربه بسكينة وجري؟

- أيوة.. لكن على ما الشهود خرجوا من البيت كان في حد فعلاً دبحه من ورا بآلة حادة!

- أنا عاوز تقرير مبدئي بالكلمتين دول حالاً يا دكتور، وبعدها ابعت لي التقرير النهائي على النيابة.

عرجنا إلى غرفة جانبية من غرف الكشف بالمستشفى لكتابة التقرير المبدئي، لكن أثناء دخولي لمحت على مقربة منّا ضابط أمن الدولة يتحدث مع رمسيس. وخیل لي أن طيف ابتسامة مريبة يحوم حول عينيه.

بيت القبطية - 12



13

تمايلت أغصان شجر الحديقة مع الرياح كأرجوحة خفيفة وعلا صوت طنين النحل، نفذت الأتربة الساخنة المحملة بذرات رمال من نافذة مفتوحة كنت متكئًا على حافتها في شرود فلفحت وجهي، أغلقتها منقبضًا وجلست في ركن قصي في انتظار نزول خطيبتني من غرفتها بالطابق العلوي، ظلال الأغصان المتمايلة تعكس خيالات منكسرة على أثاث الصالة الفسيحة وجدرانها، تبدو لي مثل أشباح تتراقص أمامي لتغيظني وتدفعني للرحيل، صرت أشبه بضيف ثقيل احتار مضيفه في الخلاص منه.

طنين النحل لا يزال مُقبضًا، يُلح على أذني رغم غلقي النافذة بإحكام، أراه أسرابًا صغيرة من بعيد رغم صفرة الطقس، تحوم بالبحاح حول زهور بريئة تسلقت جدران الحديقة، كأنها تبغي الفرار ولا تجد وسيلة، غرقت في سكون البيت الكبير المُقبض الذي تعيش فيه أسرة خطيبتني، امتلأت ضيقًا حتى ازددت وحشة. أتحدث مع أناس لا يشبهونني، أقول كلامًا كثيرًا

غالبيته لا يُعبّر عني، نصفه خالٍ من الود الحقيقي، وما تبقى منه محشو بعبارات المجاملة التي ترقى لتكون نفاقًا صريحًا في أغلب الأحيان. حوارات خطيبتني مع صديقاتها وبعض أزواجهن صارت في أذني مثل نقيق ضفادع، ربما صوت الضفادع التي أسمعها كل ليلة بالطبيعة أحب إلى قلبي.

اختطفت إجازة سريعة للقاهرة كي أتابع معها تجهيزات الشقة التي سنتزوج بها، منذ وصلت هنا وهي تتصل بي كل ربع الساعة، تسألني السؤال ذاته عن محال السيراميك والأقمشة والأثاث التي تُقدم خصمًا خاصًا لي بحكم وظيفتي، عبثًا حاولت إفهامها باستحالة وجود مثل هذه النوعية من الامتيازات، وإن وجدت فهي أقرب لرشاوى مُقنَّعة تنتظر قبولها لطلب خدمات نظير أدائها ولا يوجد قاضٍ محترم يقبلها، وفي كل مرة أتلقى منها الإجابة نفسها، مثل ضربة قاضية أهوي معها على أقرب مقعد منهاكًا.

- أومال جوز أختي بيحبيب كل حاجاتهم إزاي بنص تمنها؟ هو مش زميلك برضه؟ وانتوا من حقم تاخدوا

تخفيضات في أي محل؟!

لا أجد ما أقوله لخطيبتى ردًا على سؤالها الغبي المعتاد، لا فائدة من الجدل معها، سأتزوجها حتمًا لأن الأمور تسير في اتجاه واحد وأنا لا أفكر في طريق آخر، أحيانًا أشعر بأنني لا أقود، مجرد راكب بجوار السائق في عربة التقاليد والأصول وتكوين البيت والزوجة والأولاد، قد يؤخذ رأيي مرة أو اثنتين أثناء الطريق الذي نسلكه، لكن أحيانًا أخرى يتغافل السائق عني وينشغل بالقيادة، كل هذه الأشياء الصغيرة تكبِّلني بقيود كبيرة، يشدد وثاقها يومًا بعد يوم لتقيد حركتي، تجعلني أصمت مجبرًا حين يجب عليّ الصراخ، وأخضع صاغرًا حين يتحتم عليّ الرفض.

صرت أشبه بممثل مسرحي، ألعب عدة أدوار، أبدل الأقنعة والملابس أمام الناس، أخلع هذا بسرعة وأرتدي ذاك في خفة لا يستوعبها أحد، جمهوري ربما يكون كبيرًا لكنه صامت، لا يتفاعل معي ولا يُصفق لي، بل حتى لا يعترض على أدائي. ربما هم ممثلون مثلي

وأنا الذي أتابعهم، وقد يكونون من داخلهم متعجبين من صمتي.

لم يغمض لي جفن طوال الليل، ومع خيوط النور الأولى وبحجة أنهم يطلبونني لتحقيق قضية مهمة قررت السفر، أرسلت رسالة لخطيبتني على الهاتف بهذا المعنى تفاديًا لصراخها التليفوني ومضيت في طريقي. عُدت للطايعه هذه المرة فرحًا كأنني عائد لموطني بعد غربة، زال عني الهم وتنفست الصعداء لما رأيت اللافتة الزرقاء شبه الممحاءة.

وصلت بعد الشروق بساعة، وجدت الخفير نبوي في استقبالني، بات يطمئن لوجوده معي ويبيت بالاستراحة، واثقًا أنني سأحميه من خطر مجهول ينتظره منذ سنين ولم يأت بعد وربما لا يأتي أبدًا، حَيَّته ونمت على الفور مبتسمًا بلا سبب.

استيقظت متأخرًا ظهر الجمعة، كسولًا لا أريد مغادرة فراشي، تقلبت استعدادًا لجولة ثانية من النوم حتى موعد الصلاة، باغتني صوت خادم المسجد الصغير

القريب منّا عبر مُكبّر الصوت، كأنه يقف على رأس سريري زاعقًا.

"توفي إلى رحمة الله تعالى الحاج محمد الحمبولي من العزبة البحرية وصلاة الجنازة في المسجد بعد صلاة الجمعة.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. الفاتحة "

يُنغّم كلماته مثل مُنشد ديني في حلقة ذكر، كررها ثلاثًا فأطار النوم من عيني كطائر فزع من دوي رصاص منهمر، فهرب بعيدًا حتى اختفى. بعدها ارتفع صوت الشيخ رجب بترتيل القرآن عاليًا، نهضت وهبطت الدور الأول لإعداد إفطار خفيف قبل أن أذهب لأصلي الجمعة، لكني الآن أسمع وقع أقدام بالاستراحة مع أن رمسيس اليوم في إجازة فانتبهت!

منذ اكتمل أسبوعي الأول هنا وجاء يوم الجمعة وئودي للصلاة حتى تقلّبت ملامحه وجحظت عيناه كمن يرى أمامه شبحًا، لمّا وجدني أتوضأ متأهبًا لمغادرة الاستراحة في طريقي للمسجد القريب، توقعت ذلك من أول يوم لمّا سألني عن اسمي ثلاثيًا،

لكني اندهشت لرد فعله رغم أنه لم ينطق حرفاً، بعدها بستة أيام طلب تعديل إجازته الأسبوعية لتكون كل جمعة بدلاً من أيام الآحاد. الآن وجدته أمامي فجأة، تسمرت مكاني من الدهشة، تتسيد ابتسامته الصفراء ملامحه، ملتصقة بشفتيه، منحوتة عليها، أول ما جال بخاطري أن أهاجمه لأعكر مزاجه، سألته ببرود عن سر الابتسامة اللزجة التي لا تفارق وجهه، فجاء رده على غير توقع مني.

- إحنا أصل البلد يا باشا والابتسامة سر الحياة.. عمرك شفت تمثال فرعوني مكشّر؟!

ظللت مندهشاً من رده حتى دق جرس الهاتف، لأجد ضابط مباحث أمن الدولة على الناحية الأخرى يطلب لقائي، أخبرني أنه في الطريق للاستراحة فلم أستطع التنصل، أيضاً كنت في حاجة لمواجهته. وبينما كان رمسيس منشغلاً بتنظيف أكواب وأطباق بالمطبخ، ناديته مستفسراً منه هذه المرة عن سبب عودته من الإجازة، أجبني ببرود لا يُحسد عليه:

- اليومين دول قلق من بعد حرق الكنيسة والعين النهارده على الطايعة أكثر من أي حته في بر مصر كلها.

قبل أن أبدي أي رد فعل على كلامه تفاجأت بضابط أمن الدولة أمامي، وجدته واقفًا بمنتصف الصالة، يبدو أن رمسيس ترك الباب مفتوحًا، وربما تعمّد ذلك وبينهما اتفاق مُسبق، غلبتني الهواجس والشكوك على غير عادتي.

صافحني الضابط بترحاب شديد كصديق حميم، أخبرني أن زيارته ودية، الهدف منها توجيه سفينة التحقيقات إلى بر الأمان، وضعت ساقًا فوق أخرى منتظرًا منه أن يصف لي ملامح البر الذي يراه هو ولا أعرف أنا غيره، فقال:

- الشهود للأسف كل واحد برواية زي ما سعادتك شفت في التحقيق، أما خليفة فمأحدش من البلد عارفه، والتحريات بتاعتنا توصلت إلى إن مفيش حد بالاسم ده.. يعني الفاعل مجهول.

- لأ يا باشا، هدى حبيب شافته وأم صليب عارفة شكله، ونبوي غفير الاستراحة قال لي إنه شافه قبل كده وممكن يتعرف عليه، وبياعين السوق عارفين اسمه، يمكن خليفة اسم شهرة لكن ال ..

قاطعني الضابط بسرعة:

- لأ.. للأسف ولا حتى اسم شهرة، التحريات بتقول إن الفاعل مجهول، غالبًا ده حادث فردي بسبب خلافات بين الأهالي على الزرع والسقي زي ما سعادتك عارف، ويمكن واد مخبول عمل العملة الخايبة دي وهرب..
عمومًا أنا حاتكلم مع رئيس مباحث المركز في الموضوع ده ونشوف وأكد حنحدده قريب.

- الحقيقة أنا مش عارف ليه دايمًا في بلدنا اللي بيقتل أقباط يا إما مجهول أو مخبول!

مددت ساقي بعدما أنهيت عبارتي، اقترب الضابط بجسده إلى حافة المقعد حتى كاد يسقط من عليه ثم

تنبّه فنهض فجأة، اختلّ توازنه لكنه استعاد ثقته بسرعة وقال:

- صدقني يا نادر بك أنا ماليش مصلحة، الأغلبية هنا أقباط ومن مصلحتنا نحدد القاتل مش نداي عليه، كمان غالبية الأراضي بملكها مسلمين زي ما أنت عارف ولازم نحمي ملكيتهم.. يعني كان ممكن سعادتك تمكّن المستشار رضوان من الأرض، لكن إنت ما عملتش غير الصح.. أنا كمان بعمل الصح وبالقانون. غيرت مجرى الحديد كي لا أنجرف مع تيار منطقته الفاسد قائلًا:

- والصليب اللي بيترسم بالبوية على بيت القبطية ده كمان من مجهول؟!!

- شوف يا باشا، الولية القبطية اللي اسمها هدى دي مخاوية جن وهي اللي بترسم الصليب على بيتها علشان تلفت الأنظار وتجيّب زباين ليها.. تقرا لهم الكف وتشوف لهم الطالع وتديهم البركة.. شغل دجالين

يعني، التحريات بتاعتنا أكدت كده وكتبنا لمعاليك إنها شاهد ماشافش حاجة، وإحنا حالياً بندور على أصلها وفصلها لأنها غريبة عن البلد والا سعادتك ليك رأي ثاني؟

ارتشف الضابط بعض الماء من الزجاجة التي بيده ثم أكمل حديثه دون سماع رأيي الذي سألني عنه قبلاً:

- والشهود التانيين سعادتك سألتهم وقالوا إنهم ما شافوش حاجة وكانوا بيقولوا الحق، دي مش شغلتنا إننا نضغط على حد، وإلا سعادتك تحقق معانا بتهمة التعذيب والإكراه.

وضعت ساقاً فوق أخرى قائلاً:

- وليه سايبين الشيخ رجب يدعي عليهم بعد الصلاة، ده غير الكلام اللي بيقله في الدرس كل جمعة!

- يا نادر بك أنا ظابط شرطة مش شيخ بيفسر سورة التوبة!

- يعني عاوز تفهمني إن اللي خنق محمد علوان مجهول.. وإن اللي قتل صليب كمان مجهول؟ هو معقول إن كل طرف عنده مجهول بيشتغل لحسابه؟!!

- دي قضايا جنائية عادية مش اختصاصي، ولو الفاعل اتعرف أكيد حيكون عند سعادتك من الفجر.. زي ما قلت لمعاليك مالناش مصلحة نداري على حد.

دخل علينا رمسيس فجأة فسكتنا عن الكلام، أخبرنا بأن عمدة الطايعة بالخارج يستأذن في الدخول، كان يكلمني وبصره متعلق بالضابط. أشرت له بيدي لينصرف الآن ويترك العمدة ينتظر حتى تنتهي، لكن الضابط طلب مني السماح له بالدخول فوافق على مضم.

ما إن خطا رمسيس خطوتين خارج الغرفة حتى دخل العمدة عبده طابع وهو يحجل كالغراب في مشيته، صافح الضابط بانحناءة تنافس الرقم ثمانية، ثم رفع يديه عاليًا وهو يحييني كأنه سيرفع الأذان.

جلس بالقرب من الضابط وراح يرجوه ألا يسمحوا لأحد من عائلة أخرى بالحصول على العمودية، ظل يحكي عن تاريخ جده وأبيه وكيف حافظا على استقرار الطائفة طوال هذه السنين، ثم نظر نحوي كمن تذكر أنني موجود فجأة كصاحب المكان فقال وهو يبتسم ببلاهة:

- إحضرنا والنبي يا نادر بك وقول للباشا كلمتين حلوين في حقي، عليا الطلاق بالتلاتة أنا لو رفعوا التليفون أبو منافلة بتاع جدي من الدوّار أموت بحسرتي، دول تلاتة وخمسين سنة عمودية في البلد يا باشا.

لم أرد، اكتفيت بابتسامة باهتة بلا معنى، لكن العمدة التفت للضابط متوسلاً:

- وغلاوة الباشا وزير الداخلية ما تغَيِّروني وحاشوف سعادتك في الانتخابات الجاية الجماعة حيصوتوا لمين.

وضع ضابط أمن الدولة ساقًا فوق أخرى حتى صار
حذاؤه في وجه العمدة ثم نظر له بقرِفٍ قائلاً
باستنكار:

- وهُمَّا أولاد بيشوي صوتهم راح لمين في الانتخابات
اللي فاتت يا عمدة؟ وبيوت سمعان وواصف وأبانوب
اللي في البر الغربي صَوَّتوا لمين؟ خرينا نتكلم في
التفاصيل دي في المكتب وماتنطش ورايا في كل حنة
أروح فيها.

- يا باشا إحنا كنا فوق روسهم وقت التصويت وبندخل
معاهم اللجان، ما عندناش حد يصوت من ورا ستارة
وإلا يبقى خاين للعيش والملح.

قاطع الضابط بجِدَّة:

- كان لازم تأمّن عليهم من الطابور قبل ما يدخلوا
اللجنة وتفكرهم بكلامهم زي ما فهمتك.. "نعم تجلب
النعم"، بدل ما يعملوا فيك ملعوب.

- يا باشا ما أنا قلت لرمسيس..

- خلاص خِلسنا.. بعدين نتكلم يا طايع.. تعال لي
المكتب بالليل ونشوف.

قطم الضابط كلام العمدة. أدركت أن الأخير خرج عن
النص، قال ما لا يصح أن أسمع، بات واضحًا أن
الضابط يتعامل مع الأقباط ككتلة انتخابية ولا شيء
أكثر. صوّبت نظري نحو العمدة الذي بدا وكأنه وضع
ذيله بين فخذه وهو يتراجع بظهره خانعًا، ينهل من
الفضاء أمامه ويهيل بكفيه فوق رأسه داعيًا لنا بالستر
والصحة، نظراته موجهة للضابط، وربما الدعاء كله من
نصيبه أيضًا.

شعرت بإحباط كبير، لكني مرتاح الضمير أنني أدّيت
دوري في حدود اختصاصي، نهضت وصافحت
الضابط ظنًا أنه سينصرف حرجًا مني، لكنه أخبرني
بمجيئه خصيصًا اليوم لِمَا علم بقراري بطلب التحريات
عن الذين يشترون الأراضي ويبيعونها بالطايعَة عقب
كل حريق، ثم أضاف بلا مبالاة زائدة عن الحد أن هذا
الأمر يخص الجمعية الزراعية لا مباحث أمن الدولة.

بعدها صافحني بقوة وهو يضغط على مخارج ألفاظه
بالقدر نفسه الذي يضغط به على كفي قائلاً:

- دفاتر الحياة عندك في الجمعية ممكن تطلع عليها،
خلي تحرياتنا للحاجات الثقيلة اللي تستاهل البحث،
أنا احتراماً للنياحة قلت أبلغ سعادتك بصورة ودية
علشان تسحب قرار التحريات لأن ما عندناش
اختصاص بيه ولا رد فيه، وما يصحش تفضل منتظر
على الفاضي.

تجاوزه كان فجاً لكني ابتلعتة مؤقتاً، لن أجنبي أي
فائدة من الصدام معه الآن، سيتمسك بعدم اختصاصه
مع أنه لاعب الشطرنج الأوحده الذي تتحرك كل القطع
على الطاولة بأمره، سأضطر للسكوت رغماً عني
واستكمال اللعب، على الأقل الآن أفعالها بإرادتي. فجأة
قفز إلى ذهني سؤال والضابط يتأهب لتجاوز باب
الاستراحة، فناديتته سائلاً:

- سؤال أخير بعد إذنه، تفكر إخواننا الأقباط زي ما
بتقولوا عنهم حيفضلوا ساكتين ومطمئنين لحمايتكم

الشكلية دي على طول؟

ابتسم الضابط وهو يرد بثقة:

- هو مش الغفير نبوي اللي عندك ساكت ومطمئن برضه
إن سعادتك بتحميه بالطبنجة بتاعتك اللي مافيهاش
طلقات رصاص؟ والا عند معاليك رأي تاني؟

ترجرت العربة بنا في طُرق مُتعرّجة بين الغيطان
سلكناها اختصارًا للوقت الذي أضعناه، سقطت نظارتي
على صدري عدة مرات، وضعتها بجيبي متأفّفًا، فعندما
أخلعها لا أرى ولا أسمع جيدًا. توقفت السيارة أمام
بوابة المعهد الأزهري، وصلت متأخرًا عن مواعي
بنصف الساعة بسبب مرورنا بثلاثة كمائن شرطية
بالطريق تطوق المنطقة بالكامل، صعدت للطابق الثالث
حيث مقر اللجنة الانتخابية التي انثُبت إليها
للإشراف القضائي على التصويت بالمرحلة الثانية في
انتخابات مجلس الشعب.

يتنافس على الأصوات بلجنتي مرشحان، أولهما تابع للحزب الوطني برمز الهلال، والثاني مرشح جماعة الإخوان المسلمين لكنه لا يُعلن ذلك صراحة، مكتفياً بصورته على اللافتات بلحية خفيفة وبدلة أنيقة بعدما اختار "الطائرة" رمزاً انتخابياً، معتمداً على النجاح الذي حققه إخوانه بالمرحلة الأولى ببعض محافظات الدلتا، وما قاله بالمؤتمر الانتخابي الذي عقده بساحة صغيرة أمام الكنيسة الكبيرة مؤكداً على دعمه للأقباط مثل المسلمين.

فتح سكرتيري جرجس الدفاتر، في حين تأكدت من خلو الصندوق الخشبي من أي أوراق ووضعتة أمامي، بينما اختار نبوي الديب المرافق لي بإرادته هذه المرة مكاناً منزوياً بالحجرة بالقرب من الساتر القماشي، جلس مستتراً به بحيث يرى الداخل ولا يراه أحد، لمحت غريباً بالحجرة، تلاقى نظراتنا فارتبك وهو يخبرني أنه مندوب العمدة، طردته بإشارة من يدي فامتثل.

مضت أكثر من أربع ساعات ولم يدخل لجنتي مواطن واحد، قبل اكتمال الساعة الخامسة سمعت وقع أقدام تقترب، اعتدلت بجلستي المتراخية ولكزت جرجس الذي نعس، طرقت بكفي مرتين لأوقظ نبوي الذي لا أرى وجهه من كوفيته المتلفع بها، لكنه رفع يده ملوحًا من بعيد.

- صباح الخير يا باشا إنشا الله تكون الأمور تمام في اللجنة، لو معاليك عاوز أي حاجة المأمور تحت أمرك!

وجدت ضابط أمن الدولة أمامي وبصحبته مأمور القسم ورئيس المباحث وثلاثة أمناء شرطة وعشرة مجندين، قوة عسكرية اقتحمت لجنتي فضاك المكان بنا. رحّبت بهم ثم أخبرتهم في برود أن الصندوق خاو منذ الصباح، لم يُعلق أحد سوى ضابط أمن الدولة الذي قال مبتسمًا:

- لسه بدري يا باشا، ماتستعجلش على رزقك.

رددت ابتسامته بأخرى باهتة وجذبتة برفق من ذراعه إلى خارج اللجنة، وقفنا بشرفة الممر والطريق العمومي أمامنا خالٍ من الناخبين كصندوقتي، اقتربت أكثر منه قائلاً:

- قل لي بصراحة هيا الناس راحت فين؟

- علمي علمك.. لو حشدنا الناس علشان تيجي تصوت حتقولوا الانتخابات مزورة، ولو الناس ماجتش تقولوا لنا الناس فين.. تعبتونا معاكم يا نادر بك والله، فرفعنا أيدينا عن الموضوع وأهي بقت نزيهة.

- ما هو مش منطقي إن مرشح الإخوان المسلمين ما حدش ينتخبه في لجنة المعهد الأزهرى اللي أغلب الناخبين فيها مسلمين!

مطّ شفتيه ببرود ورفع كتفيه ولم يرد، فقلت:

- طيب بلاش دي، فين المؤيدين لمرشح الحزب الوطني؟

- يا باشا بلاها اللجنة دي خالص يعني هية اللي حاتنجحه؟! ما تشغلش بال معاليك واطمن، نزيهة المرة دي.

قالها وضحك لكني لم أبادله حتى الابتسام على دعابته الثقيلة، فجأة علا صوت من جهاز اللاسلكي الذي يحمله يُنبّه على القوات بإغلاق الطرق الجانبية الزراعية المؤدية للمعهد الأزهري.

نظرت للجهاز الذي بيده ثم نقلت بصري لعيني الضابط الباردين قائلاً بغضب:

- صدقني العند بيورث الكفرا!

- أعوذ بالله يا باشا من الكفر، عندنا معلومة عن تحرك مسيرات تأييد وممكن تتطور لتخريب، وإحنا بنحافظ على سلامة المنشآت والأهالي ومعاليك طبقاً من قبلهم فبنقفل الطريق. ربنا معاك يا باشا ويحفظك.

تركني وانصرف وخلفه قوته العسكرية المصغرة، فقط ترك لنا مجنداً وحيداً، ربما سقط منهم سهواً، تابعتهم

وهم يخرجون من فناء المعهد الأزهرى، لاحظت شجرة عجوزًا جذعها عريض، جذورها ضاربة في الأرض ولا شك منذ سنين لكنها غير مثمرة، تسد جانبًا كبيرًا من بوابة الخروج فتجبر الخارجين على تحسس خطواتهم وهم يدورون حولها، أغصانها الموفورة تُظلل سيارات الشرطة ولا يُسمح لغيرها بالوقوف في ظلها بعدما تركوا حاجزًا مروريًا معدنيًا وراءهم.. تمنيت لوهلة لو قطعتها لكني شعرت باستحالة.. فأنا وحيد هنا.

عُدت لجلستي البائسة مع جرجس ونبوي اللذين بدوا كأبكمين، أخرجت كتاب توفيق الحكيم "عدالة وفن" من حقيبتي، رُحت أقطع الوقت بالقراءة، قرب السادسة مساءً أخبرني العسكري الواقف بالباب بوصول بعض الناخبين للجنّتي.

- أخيرًا..

خرجت مني الكلمة بعفوية، تهلل وجهي كأنهم زبائن لمحل يوشك على الإفلاس، فتح جرجس دفتره ودخل

أولهم، كان رزق الكهربائي بالكنيسة وبصحبتة زوجته هدى حبيب، حيياني في صمتٍ وقد بان عليهما الإرهاق الشديد، بعد إلحاحٍ مني بالسؤال عن سبب حالهما المتعبة، أخبراني أن الشرطة تُغلق كل الطرق المؤدية للمعهد بكمان على شكل حلقات، تبدأ من مسافة خمسة كيلو مترات قطعها مشياً على الأقدام للوصول إلى اللجنة، الشرطة تستوقف ناخبين بالمئات أمام الكمين الأول، يفحصون البطاقات الشخصية ثم يسمحون فقط بمرور غير المسلمين.

لم أُعلق على كلامهما، أدلى رزق بصوته بينما انتظرتة هدى لأنها غير مقيدة بدائرة الطابوقة، وانصرفا، دخل بعدهما فلاح اسمه نجيب صمويل وزوجته فريال، أدليا بصوتيهما وانصرفا بعدما روي لي الحكاية ذاتها.

في السابعة مساءً أغلقت لجنتي، وقَّعت على الدفتر وتحفَّظت على بقية البطاقات التي لم تُستخدم ووضعتها في ظرف كبير أحكمت غلقه بالشمع الأحمر. راودني الفضول قبل أن أُغلق فتحة الصندوق ودارت برأسي تساؤلات حائرة، مددت يدي وأخرجت

البطاقات وتفحصتها، ثم خرجت مني ضحكة مكتومة
أشبهه بالشيخير.

طويت البطاقات ووضعتها بالصندوق، ظلت عينا
جرجس معلقتين بوجهي تنتظران إجابة مقنعة عمّا
أضحكني، قطع الصمت رنين هاتفني، كان رئيس النيابة
يطمئن على أحوالي فطمأنته هاتفًا:

- الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه، عندي
ثلاثة أصوات فقط، صوّتوا كلهم لمرشح الإخوان.



14

الليلة رضي عني القدر، أبعد سُحْب الحزن وغيوم الهمِّ
 عن سمائي فدفنت خِضر بين ثنايا ذكرياتي، عدت
 نجوم السماء فوجدتها بعدد سنوات عمري، ها أنا
 أعيش من جديد حياة أخرى بعدما أنار القمر ليلتي
 بشموع البهجة، فتلمست طريق الفرحة وسرت فيه
 على مهل كي لا أبلغ منتهاه بسرعة.

الليلة ليست ككل ليلة بعدما ذابت مخاوفي فأذا بني
 رِزق بين ذراعيه، أذاقني السعادة على مهل، رجوت
 النشوة أن تتمهل قليلاً قبل أن تُباغتني بكأس السعادة
 الأخيرة، فاستجابت وهي تناولني شراب الحياة برفقٍ
 لأرتشفه في حبور. تلاقت شفاهنا في قُبلةٍ طويلةٍ
 كعزف ناي مزدوج، تعانقت أرواحنا في رقصةٍ حالمة،
 لعبنا سيمفونية جسدية متناغمة وهو يعتصرني أسفله،
 يُرّمم شروخ روعي ويملاً شقوقها.

في الصباح غادر رِزق فراشنا مبكرًا، لديه عمل طويل
 في محافظة قريبة، سيغيب ليلة أو ليلتين، داعبته

قبل أن يخرج بأنتي أخاف النوم وحيدة على سريريه
الضخم، رد في ضيق:

- سرير نحس!

ضحكت ثم تصنّعت الغضب بدلال سائلة عن السبب،
حكى لي أنه اشتراه من الكنيسة منذ عشرين عامًا، كان
مملوكًا لعمدة القرية طابع ثم باعه لأمًا جدّ عفش داره
كله، أخبرني أن الخديو سعيد رقد به في فترة مرضه
الأخير حتى مات فوقه، ومن يومها خاف خلفه
إسماعيل أن ينام عليه، اختتم بأسى متذكرًا سنوات
عمره التي نامها على هذا السرير ولم يتزوج، ولما
حدث وظهرت أنا في حياته لم تظهر عليّ بوادر
الإنجاب حتى الآن.. أطرق ثم قال بأسى:

- أنا بفكر أبيعه يمكن النحس يتفك، وبالمرّة نكسب
قرشين حلوين.

لم أعلق بشيءٍ على كلامه ولا هو زاد حرفًا على ما
قاله، تركني وانصرف كأنه اتخذ قرارًا ببيع السرير، لم

أتشاءم ولا أتفعل، حياتي ليست مجموعة من البدائل
 كي أختار ما يناسبني، بل العكس هو ما كان. قبل أن
 أنهي دراستي الثانوية بعام مرض أبي ومات، تزوجت
 أمي بعده من رجل مسلم يصغرها بعشرة أعوام،
 شغفت به عشقًا، أشاعوا أنها عرفتة في حياة أبي
 فهربت إلى قرية بعيدة في محافظة أخرى غالبيتها من
 المسلمين، اصطحبتني معها لمكان لا يعرفنا فيه أحد
 وإلا كانوا قتلونا لو بقينا بقريتنا كما قالت. زوجها
 اشتهاني منذ اللحظة الأولى التي رأي فيها، تفاديت
 نظراته وإيماءاته وتحرشه الدائم بي، حتى ظفر
 الصياد بالطريدة.

كنت شابة صغيرة لم أتجاوز السادسة عشر من عمري
 بعد، وخافت أمي أن يطلقها زوجها أو يتزوج عليها إذا
 ما أبدت غضبها من فعلته، وربما أحبته أكثر من ماله
 فعلاً.. لست أدري. لم يكن لها مأوى غير بيت زوجها
 بعدما كَفَّرها أهلها وهربت منهم، فطردتني من حياتها..
 مع أنني ضحيتها.

أدخلتني أمي معهد المعلمين بدلاً من الجامعة لضيق ذات اليد، صرت مُدرسة للغة العربية في مدرسة ابتدائية بالقرية الجديدة التي نعيش فيها، لم أحب عملي أبداً ولم أتحمس له يوماً، ربما بسبب التعليمات التي تصلنا من الوزارة كل عام ولا تتغير عن النتيجة .. "الكل ناجح.. لم يرسب أحد"، اصطدمت بناظر المدرسة لَمَّا حاولت التغيير، فكان مصيري النقل لمنطقة نائية فانقطعت عن عملي حتى فصلوني. فاكثفت بهواياتي.. أكتب الخواطر والشعر وأقرأ القصص.

صممت أمي على زواجي في سن العشرين، لم أستطع المقاومة كثيراً.. زوجتني من خضر كآلاف البهائم وأنا المتعلمة.. خضر الدميم صاحب القلب الأسود وأنا شبيهة شادية وصوتها العذب كما يُقال عني.. خضر الذي لم يفلح في مهنة بسبب غبائه وعناده واقتناعه بأنه أذكى خلق الله وأنا المُعلمة.. خضر المسلم صار زوجي وأنا القبطية التي لم تترك دينها.

قالت أمي إنه الوحيد الذي سيقبل بغير عذراء فصرت
 أنا الجارية، ثم فاجأنا القدر بسائل وردي دافئ انساب
 بين فخذي في ليلتي الأولى مع خضر، ليُخبرني بعد
 فوات الأوان أنني صرت ضحية للجهل والقهر والعنت،
 فكرت وقتها في إبطال زواجي من خضر باعتبار أنه
 لن يستر عليّ طالما سترني ربي من قبله، لكني لم أدري
 ماذا أفعل.. ولم يَعد يفيديني أن أدري الآن.

دهسني خضر كل ليلة من ليالي كابوسي الطويل معه،
 كان أشبه بقطار بضاعة لا يعرف إلا محطة الوصول
 فقط، يمر على كل محطاته ببرود، لا يتوقف حتى
 يفرغ حمولته كلها في مكان واحد كأنها ثقيلة على
 قلبه، وبعدها يُطلق صافرة طويلة تصم الآذان. أنا على
 يقين الآن أن المسيح وقف بجانبني فلم أنجب من
 خضر طفلاً.. الله يُحب لنا الخير ويجلبه، ولا أظن أن
 بذرة خضر حملت خيراً لي في يوم من الأيام.

خرجت من مكتب نادر بك بعدما استمع لأقوالي كشاهدة، أشعر بأمان لا سبب واضح له عندي، ربما لأنه يُصدقني رغم أن الكل لا يقولون الحقيقة مثلي، بدوت كشاهدة زور لم ترَ شيئًا، حتى خليفة القاتل أنكروا وجوده مع أنني أدليت بأوصافه، ولما ضاقت بهم الشُّبُل قالوا إنه ربما يكون الشخص الذي حذّر أم صليب من المقاومة لمّا نادى عليها بمكبر الصوت وكان يريد لها السلامة، حتى إنه دعاها للخروج كي تطمئن على ابنها قبل أن تخرج روحه!

واجهني نادر بك ببقية الشهود حتى شعرت بأني المتهممة بقتل صليب. لوهلة تذكرت مقتل خضر فارتجفت، كنت سأقف موقف الاتهام ذاته أمام نادر بك، وربما شهود مثلهم سيقولون إنهم رأوني، ارتعشت وارتبكت من مجرد الفكرة، عُدت أنظر لشهود الزور، رفعوا عيونهم لأعلى ضيقًا، تصعبوا بشفاهم كيدًا، ضربوا كفوفهم عجبًا ممّا أقول، حتى كدت أفقد عقلي.

قبل انصرافي لمحتُ دفترًا كبيرًا على مكتب وكيل النيابة مثل الذي رأيته باستراحة رمسيس أول ليلة لي

بالتايعة فانددهشت، لاحظ نادر بك نظرتي المندهشة
للدفتر فسألني عنه، ارتبكت فأعاد سؤاله بحسم،
أخبرته بأنني رأيتته باستراحة رمسيس أول يوم أتيت
فيه إلى الطايعة، ثم سألته عنه:

- هو حرف الزين يعني دفتر زواج يا باشا.. صح؟

ابتسم نادر بك ابتسامة واسعة ولم يُعَلِّق على سُؤالِي،
كأنه يعرف أنني رأيت الدفتر من قبل وأراد التأكيد
فقط مني. بدأت أتوتر من جديد، هذًا من روعي وأنا لا
أفهم شيئًا عن هذا الدفتر الغريب الذي لا يريد أحد
الحديث عنه معي، أجلسني مرة ثانية وطلب لي شايًا
ثم راح يسألني بالتفصيل عن الدفتر الذي رأيتته لدى
رمسيس وهو يُسجل أقوالي كلها!

ليت القاضي الذي نظر قضية طلاقِي من خِضر كان
مثل نادر بك وبفراسته، ليته كان هو نفسه، على الأقل
لم أكن لأقع في الخطية أبدًا. منذ زواجِي وأنا أتمنى
يوم طلاقِي، لامتني أمي التي تخشى طلاقها،

وصفتني بأنني كمن يعيش يعد الأيام منتظراً موته،
لكني كنت أراها لحظة الخلاص.

تذكرت لما طلبت الطلاق من خِضر بعد عامٍ من زواجنا
فرفض وزادني ألماً.. توخَّش وتعدَّى عليّ أكثر من مرة،
فرفعت قضية تطليق للضرر. في المحكمة أتى خِضر
بشهود، أقسموا على حُسن معاملته لي، وإن المكواة
التي حرقت جسدي لأول مرة وقعت فوق ساقي
مصادفة. بكى خِضر أمام القاضي وانتحب صوته،
حتى إنني صدقته لوهلة وتأثرت.

أصر وقتها القاضي بعد عام كامل من نظر القضية على
بقائي مع خِضر، حذرني في آخر جلسة من مغبة
الطلاق، كأني في نعيم ويخشى عليّ الخروج منه، راح
يتلو على مسامعي آيات القرآن التي تبغض الطلاق
حتى ولو كان حلالاً، يُصر على تطبيق شريعة خِضر
كما أمره القانون المكتوب وهو يعلم أنني قبطية، يوقن
أنه لا ينصفني بالتحيز لزوجي حتى ولو بتطبيق
نصوص مقدسة، نطق الحكم باستمرار موتي.. بوأد

أنوثتي.. باغتيال إنسانيتي.. رفض دعوى التطليق
واعتبرني ناشزًا.. فعدت.

كدت أصرخ يومها.. اتركني لحالي فأنا لا أطيق
حياتي، الله الذي تحكمون باسمه لن يُرضيه ما
تفعلون.. اتركوني لديانتني، الله مَنْ سيحاسبني يوم
القيامة، لا أنت ولا خُضر.. لكني جنت.

تبقي السؤال عالقًا في ذاكرتي، إذا كان الله ترك لنا
حرية العقيدة، فلماذا يلزمنا بها البشر في الزواج
والطلاق؟!

أيهما أكبر ذنبًا وأعظم شأنًا الكفر أم الزواج والطلاق؟

خرجت من النيابة في طريقي لبيتي ضيقة بأفكاري،
تكاد تُخرجني من ملّتي وتهز إيماني بقوة الصليب.
قررت أن أمشي المسافة الطويلة كلها لأرتاح، بعد
نصف ساعة من السير لمحت طابورًا طويلًا من فتيات
صغيرات، أكبرهن لا تزيد على السادسة عشر عامًا،

بعضهن لم يبلغن بعد، كلهن متطرحات وغالبيتهن تزين
وجوههن أصباغ ثقيلة.

لمحت عجوزًا على كرسي متحرك ترك سهوًا فنام تعبًا،
مال رأسه يسارًا وسال لعابه من حرف فمه حتى طال
صدره، تعتني به امرأة هرمة تُحدث نفسها، تشكو
حالتها للعدم، على مقربة من العجوز جذوع نخل ميتة،
يجلس عليها بقية الأهالي من رجال ونساء في صبر
ضاق بصدورهم فيزفرون لهبًا، يترقبون حركة الطابور
الأشبه بثعبان ضخم يتلوى ببطء، رأسه يبدأ عند
مدخل مكتب محامي معروف بالقرية بتخصصه في
الطلاق والنفقة، لينتهي ذيل الثعبان البشري بفتاة
صغيرة راحت تبكي، وأما بجوارها تشد من أزرها،
بينما أبوها يصفعها ويلكزها بعنف في جنبها كل حين
إذا ما علا صوت بكائها.

كنت أعرفها وأعطيتها دروسًا في اللغة العربية ببיתי
لتقويتها وحضرت ليلة زواجي من رزق، اقتربت منها
واحتضنتها، ذابت في حضني، تريد الاختباء بداخلي
والاحتماء بي، لكن أباه انتزعها مني بقسوة حتى كاد

يخلع ذراعيها، نظر نحوي واستعاذ بالله وأولاني ظهره.
لا أصدق أنه ائتمني على تعليمها في بيتي لتنجح،
والآن ينتزعها مني ليسوقها نحو الفشل في حياتها
كلها، ماذا تفعل هنا مع بقية البنات؟ هل ستتزوج في
هذه السن الصغيرة أم أنها زوّجت بالفعل وحن وقت
طلاقها؟!

من بعيد لمحت الشيخ رجب يُنظم الدخول للمكتب،
يفوت على طابور الواقفين مبتسمًا، لا أسمع ما يقوله
لهم، اقتربت من سيدة أخرى أعرفها بحكم الجيرة لعلها
تفك طلاسم دهشتي.. فزادني حيرة ودهشة لما
تكلمت. علمت أن كل هؤلاء ينتظرن دورهن للعرض
على عجوز خليجي يزور قريتنا، يتولى محامي
الأحوال الشخصية الشهير كل الإجراءات، ليحصل أهل
العروس التعسة على عشرين ألفًا من الجنيهاً نظير
شحن ابنتهم لبضعة شهور ضمن متاع الثري العربي،
حتى يزهد فيها ويطلقها، فيعيد شحنها للطايعه مع
حقائب الهدايا.. لتتزوج ابن الحلال.

انضمت لصفوف المتفرجين من أهل القرية، تأملت وجوه البنات في حسرة.. تلك شاردة فيما سيحدث لها ليلة الدُّخلة، وأخرى ذاهلة من الطابور الطويل الملتوي خلفها وأمامها، ربما تتمنى أن يصيبها الدور بدلاً منهن، من نظراتها القلقة وحركتها العصبية تبدو كطير مذبوح يرقص رقصته الأخيرة قبل السكون، أما الثالثة فقد تراخت وقفقتها، من المؤكد شعرت بحنين لصديقاتها كي تلهو معهن بالغيطان مثلما اعتادت قبل الغروب كل يوم، لكنها اليوم حُرمت من طفولتها، وقد تُسلب منها للأبد بعد قليل، والرابعة تضحك غير عابئة بما ينتظرها، جسمها الفائز يمنحها فرصة متقدمة على قريناتها، تُدرك مفاتنها فراحت تتيه بها وسط البنات الذاهلات، واثقة من فوزها.. لكن أي فوز هذا؟! ستفوز بكونها جارية، أم ستكسب قيودًا جديدة على أنوثتها لتعتصرها حتى تموت الرغبة بداخلها وتحيلها إلى ركام بشري؟!

توقفت عند الخامسة فكلهن تشابهن عليّ بعد ذلك، لمحت مسافة خالية، مكانًا شاغراً بين بنتين من

البنات، نَدَّت مني نصف ابتسامة مبتورة، لوهلة شعرت أنه مكاني.. ينتظرني.. يناديني بحسّ خافت.. دورك حان مرة ثانية يا هدى، وكأن الزمن لم يكتفِ بما فعله بي، لا يزال يدعوني إلى مائدة الذل والقهر، لتجرّع المزيد من الحسرة والمرارة، ولو أني من داخلي أحسدهن، فحالهن أفضل من حالي، على الأقل سيعملون مدة سجنهم في أحضان الثري الخليجي، شهرًا أو اثنين، أما أنا فسجني كان مؤبدًا حتى قتلت سجاني رغماً عني وهربت، لكني الآن أنتظر إعدامي في أي لحظة.

ابتعدت عن ثعبان البنات مهرولة كي لا يعتصر قلبي حزنًا على الصبايا. ظل الحزن يحوم فوق رأسي كسحابة ثقيلة، غيمة كبيرة تظللني وتجعلني أرى كل ما حولي باللون الرمادي، شعرت أن الفضاء الفسيح حولي يضيق ويصغر، محبوسة خلف قضبان غير مرئية، أحاول الهرب فلا أفلح، مسجونة دومًا في واقعي.. وفترة راحتي فقط مع رزق.

زفر أهالي البنات زفرة عالية ثانية ضيقًا بانتظارهم،
 راحوا يُخرجون ألسنة لهب من حلوقهم، تتراقص
 نيران سخطهم على حالهم من حولي، تشكل دائرة
 تضيق وتقترب، تكاد تلحق بي وتعيدني للجحيم.. أنا
 كنت مثلهن.. فكلنا نولد أبرياء.. براءة لا تلبث أن
 تتخلى عنّا عاجلاً أم آجلاً، طالما نعيش بين فكي
 مجتمع مزيف، لا يشبع من التهام الأتقياء وتشويه
 الأسوياء، ولا يسأم أبدًا من اجتذاب مزيد من الضحايا
 كل يوم.

رفعت رأسي للسماء، فرأيت سرّبًا من غربان تدور في
 حلقات فوق رؤوس ضم بكم غمي عن الحق والعدل..
 مضيت مُسرعة الخطى حتى علا نعيها فوق، راحت
 الطيور تحوم في دوائر أكبر، تقترب.. تفرد أجنحتها
 السوداء.. تترقبنا بلهفة.. شعرت أن قدمي ثقيلتان،
 وانتابني هاجس غريب أنها ترانا الآن على حقيقتنا،
 مجرد جيفة شهية.. ولا شيء أكثر.

انقلب الجو فجأة، غيوم ماطرة متفرقة، أشعة شمس
 خفيفة تتلصص من وراء سحب داكنة، نسمات هواء

باردة تشي بعاصفة على وشك الهبوب.. سرق الغروب
ساعة من نهار الشمس خلسة فتواتر مبكرة عن
موعدھا، يائسة.. مُحبطة.

من بعيد لمحت هلال يتلفع بكوفيته، خُيل لي أنه
يُشير بيده لأنتظره وهو يهرول ناحيتي، شعرت لوهلة
أن أكياسًا مملوءة برمال مربوطة بساقي، هلال يقترب
وأنا مرتبكة.. جزعة.. خائفة، صارت المسافة بيننا
بضعة أمتار، هو بالفعل هلال لا شك عندي الآن،
سينتقم لأخيه القتل مني، فلا شيء يمنعه من أن
يقبض روحي ويحرمني من رِزق.

علا صوتي بالدعاء.. يا يسوع معك وببركتك بدأنا
يومنا، ولك سلمنا مشيئتنا، احفظنا وبارك أرواحنا، لا
نرى يدك لكننا نؤمن أنها تسندنا وعلينا وإلى الأبد كل
اتكالنا.

بيت القبطية - 14



15

قَدِّمت اعتذارًا مكتوبًا عن عدم استكمال الإشراف على الانتخابات، متعللاً بإصابتي بآلام شديدة في ظهري تمنعني من الجلوس لساعات طويلة بجوار الصندوق. عُدت لعملي في اليوم الثاني مباشرة، استدعيت مدير الجمعية الزراعية رسميًا وبصحبه دفتر حيازات القرية، لديّ من القضايا ما يسمح بهذا الاستدعاء، لكنني أبحث عن شيء آخر.

قُرب الظهر حضر المدير إلى مكنتي، فَرَدَ أمامي الدفاتر ذات اللون الزيتي الداكن، مدون عليها جميعًا حرف "ز" بخط كبير، عاد خطوة للخلف عاقدًا كفيه أمامه، لم أعره اهتمامًا، لا أرى سببًا للإصرار على تسمية الدفاتر بالاسم ذاته الذي أطلقه عليها محمد علي باشا والي مصر منذ مائتي عام عندما أنشأ نظام الدفاتر بالإدارة المصرية، يختارون حرفًا من عنوان الموضوع ليكون هو اسم الدفتر، وبما أن الدفاتر مخصصة للحيازات الزراعية فقد اختاروا لها حرف "ز".

ظللت أبحث عن أرقام الأحواض ومالكها الحالي، حتى قطع تركيزي صوت مدير الجمعية قائلاً:

- قول لي معاليك بتدور على إيه وأنا أطلعته في ثواني.

دون أن أرفع رأسي قلت بحدة:

- عندك دفتر ناقص يا عاطف أفندي..

- ضاع يا فندم من سنتين وعملنا جرد لكن موصلناش لحاجة، وبنحاول نقنن الحيازات الناقصة على مالكها الحالي لكن من غير تسلسل ملكية!

رمقته بضيق ثم ألقيت نظرة على بطاقته التي تركها سكرتيري أمامي قبل دخوله، اسمه عاطف ناثن، هذا لا يعني سوى أمر واحد، أي سؤال مني الآن ستمر إجابته أولاً على فلاتر رمسيس قبل أن أتلقاها في الغد، ضغطت الجرس بعصبية مُتعمّدة، دقّ الصول كعبيه كالمعتاد وهو يُعطيني تمامًا، أمرته بالتحفظ

على مدير الجمعية خارج الغرفة، وإمعانًا في الضغط على أعصاب الرجل قُلت بِحِدَّة:

- إوعى يغيب عن عينك يا صول إسماعيل.

خرج الرجل مبهورًا من تصرُّفي، مستسلمًا للصول الذي وجد فيه ضالته فعامله بغلظةٍ واضحةٍ وهو يلكزه بظهره عند خروجه. عُدت للدفاتر.. وجدت أن كل البيوت التي مات أصحابها أو شَبَّت بها حرائق على مدار الأعوام السابقة اشتراها أولاد بيشوي، بعدها اشتروا القراريط القليلة التي حولها أولًا، بعض عمليات الشراء تمت عن طريق الكنيسة في البداية، ثم باعوها لمسلمين مجهولين من قرى أخرى بعيدة، ثم باعها هؤلاء المسلمون لآخرين أقباط بعدها بوقتٍ قليل، وهكذا حتى عادت لأولاد بيشوي في النهاية.. دائرة طويلة من البيع والشراء تُعطي دلالة على أنها بيوع وهمية، لكن كيف لي إثبات ذلك؟ الكل سيتمسك بصحة البيع وقبض الثمن، البائعون مسلمون وأقباط والمشترون كذلك، وإن كانت ملكية الأقباط في

ازدياد.. مَنْ وراء ذلك؟ لا إجابة رسمية ولا حتى ودية.. فازددت حيرة.

دوّنت بيانًا بكل القطع المباعة في آخر ثلاث سنوات وأغلقت الدفاتر، وضعت علامة على أسماء لا علاقة لها بما أبحث عنه لتمويه مدير الجمعية الزراعية، اخترت آخر دفتر به قيد حيازات تخص العمدة عبده طابع وبعض أقاربه، ثم وضعت بجوار اسمه علامة لا معنى لها لكنها تُشبه الصليب إمعانًا في التضليل.

جلست شاردًا في البيانات التي أمامي، حاولت الربط بينها، هداني تفكيري لأمرٍ ما عندما لفت نظري ما يؤكد شكوكي. استدعيت مدير الجمعية لمكتبي مرة أخرى، أخبرته أن هناك شكاوى كثيرة ضده لكنه يبدو طيبًا ومنتظمًا في دفاتره لذا سأحفظها كلها. كان الرجل يتصبّب عرقًا من الخوف ثم استراحت ملامحه بعد كلامي، ظل يدعو لي ويشكرني، أسكّته بإشارة من يدي طالبًا منه حمل دفاتره والانصراف واحتفظت بدفتر واحد منها، أمرته أن يأتيني غدًا بخريطة المركز

الزراعية، غادر الرجل غير مُصدق أنه نجا، ثم طويت ورقة الملاحظات ووضعتها في حافظتي بهدوء.

سمعت ثلاث طرقات هادئة على باب غرفتي، دخل سكرتيري حاملاً أوراقًا كثيرة مربوطة بدوابة غليظة، تآهب لوضعها بدولاب معدني لحفظ القضايا، سألته عمًا يحمله فأجابني أنها قضية أرض المستشار رضوان، أبديت اندهاشي من حفظها ضمن قضاياي رغم أنها سُحبت مني ووزَّعت على غيري، أوضح سكرتيري أن القضية لم توزَّع على أحد، كانت قابعة في درج مكتب رئيس النيابة على حالها من أول يوم بقراري ذاته الصادر لصالح أولاد بيشوي ولم يُغيَّره أحد.

- أومال كانت عند رئيس النيابة كل الفترة دي ليه؟! -

- علشان المستشار رضوان بيقدم شكاوى كتير وكل شكاوى كان البيه رئيس النيابة بيحفظها ولما مواعيد التظلمات والشكاوى خلصت قال لي شيل القضية يا جرجس في الحفظ وأنا عبد المأمور.

قلّبت في أوراق الملف بعد فِضّ الدوبارة من حوله، وجدت قراري ببقاء الحال على ما هو عليه ساريًا بالفعل، ذهبت لرئيس النيابة ضاربًا أحماسًا في أسداس، طلبت منه تفسيرًا لكل ما قاله لي رغم عدم تغييره لقراري، فأجابني:

- قرارك سليم من الأول..أغيره ليه؟!!

قالها ببرودٍ وكأن شيئًا لم يحدث، قبل أن أعاود سؤاله استرسل بنبرة مؤنّبة:

- لكن توقيتته كان غلط، أنا قلت لك طلّع قرار تمكين مؤقت لرضوان علشان يسكت، وبعدين نلغيه لما الأمور تهدا.. إنت باندفاعك خليتنا نشتغل بالعكس، صدقني أنا كان عندي حماسك نفسه من سنين بس ...

ابتلع رئيس النيابة جملته، ألححت عليه أن يقول ما سكت عنه لكنه أردف وهو يزفر في ضيق:

- إنت صح لكن ما علينا أهو درس بنتعلم منه، المهم دلوقتي تنزل تحضر الجلسة، وماتنساش تاخذ الوشاح

معاك.

تأملني لبرهة ثم قال:

- كويس إنك لابس بدلة غامقة النهارده؛ لأن قاضي
جلسة الجنح حنبلي شوية.

قبل أن أغادر مكتبه، التفتُ نحوه وأنا في منتصف
الغرفة سائلًا إيَّاه عن إمكانية مساعدتي في العثور
على طلقات لمسدسي، بعدما فشل رمسيس والعمدة
في تدبيرها لي، انتبه رئيس النيابة لكلامي وبرقت
عيناه ثم ابتسم، أخرج من درج مكتبه مسدسًا فضيًّا
حديثًا، راح يتغزل في إمكانياته ويشرح مزاياه
باستفاضة ربما لم يفعلها في القضايا، سحب جسم
الماسورة بقوة لثُحدت قرقرة عالية، بدا أنه طرب لها،
سألني عن نوع طبنجتي، سحبتها من جرابها ووضعها
أمامه في حرج..

كان مسدسي صغيرًا بالمقارنة بمسدسه، طبنجتي
سوداء لامعة ذات مقبض خشبي ولها ساقية معدنية

دَوَّارة تُعَبِّأُ بَسْت رِصَاصات فقط، انفجر رئيس النياية
ضاحكًا وهو يتفحصها ويزنها بكفه في استهتار قائلاً
بسخرية:

- ويا ترى هيئة الآثار عارفة إن الطبنجة دي عندك والا
مخبي عليهم؟!!

ابتسمت قائلاً:

- ورثته عن أبويا.. ويمكن يكون جدي هو المالك
الأول.

- الطبنجة دي تروح تسلمها في المتحف يا نادر بك
وتبقى بجميلة منك للحكومة.. إنتاجها وقف من
عشرين سنة ومستحيل تلاقي لها طلاقات النهارده،
لكنها حتنفك برضه.

زفرت يائسًا وأنا أسأله:

- تنفعني في إيه بقى من غير طلاقات؟

- اعتبرها عصاية من إزاز.. اللي يشوفها معاك من بعيد
يعمل لها ألف حساب، لكن إوعى تطلعها وتهدد بيها..
لأنها في الحالة دي حتتكسر على نافوخك.

صاح الحاجب وهو يضرب الأرض بحذائه دونما مبرر:
- محكمة..

انتفض الجميع وقوفًا، عيونهم على المدخل الذي ندلف
منه للقاعة، كلهم يتمنونه بابًا للفرج، خرجنا إلى الناس،
القاضي وأنا متشحان بوشاحينا ومن خلفنا سكرتير
الجلسة مهرولاً.. جلسنا صامتين حتى شقَّ القاضي
الصمت قائلاً بصوتٍ شبه خفيض.. "فُتحت الجلسة".

تابعت إجراءات المحاكمة في قضايا الجرح بملل، لا
دور لي تقريبًا سوى الوقوف مع كل قضية تُنادى لأردد
ذات العبارة.. "النيابة تطلب تطبيق مواد الاتهام". بات
الأمر أشبه برسالة صوتية مسجلة، أظن أنها تنال من
الهيبة ولا تُرسخها لدى الناس، لا أحد بالجلسة يهتم بما

أقوله، لا أحد ينظر نحوي، الأبصار كلها متعلقة بالقاضي، العقول سخرت الآذان لسماع المحامين حتى ينتهوا من مرافعاتهم، ثم تتعلق الأنظار فقط بشفتي القاضي وهو ينطق بالحكم في كل قضية، أما أنا فأقوم وأجلس لأردد عبارتي البائسة، كأن كلامي لا قيمة له بعدما حصل نصف المتهمين الواقفين بالقفص على البراءة.

بعد بُرهة لاحظت أن القاضي لا ينظر نحوي، فبدأت أردد عبارتي متكاسلاً بصوتٍ خفيض، متظاهراً بالنهوض، نصف قائم كل مرة.. شردت في جنائيات القتل والحرق المهمة التي أُحقق فيها بالنيابة والفاعل دائماً مجهول، مع ذلك شد انتباهي في القضايا العشر الأخيرة بجلسة الجنح الآن أن الجريمة واحدة، مؤداها أن المتهم في يوم كذا.. شهر كذا.. من عام كذا.. أقدم على زراعة البصل بالمخالفة لأحكام القانون، بدأ المحامون في الترافع مطالبين بالبراءة لتفاهة الجريمة، بينما دفع آخرون دفوعاً قانونية بعدم دستورية قانون زراعة البصل.

في كل قضية ينظر ناحيتي القاضي نظرة لا أفهم مغزاها، كأنه يحثني على تنشيط ذاكرته، لكني لا أسعفه بأي إشارة، تلك أول مرة أسمع فيها بهذه الجريمة، كل هذه القضايا لا أعرف عنها شيئًا، قدمها رئيس النيابة للمحكمة، وطلب مني تمثيل النيابة العامة كالمعتاد فيها. ففعلت ما أؤمر به.

قلَّب القاضي ونقَّب في الملفات العشرة بحثًا عمَّا يُسعفه لكنه لم يجد، فضخَّته قسَمات وجهه المحبب، أعاد نظر القضايا للمرة الثانية بالجلسة العلنية، راح يستجوب كل متهم. نوَّدي على المتهمين العشرة ليتكرر المشهد بحذافيره مع كل منهم، القاضي يسأل السؤال ذاته، والإجابة لا تخرج عن المضمون نفسه.

- إنت يا راجل إنت زرعت بصل في الغيط بتاعك؟

- أيوه يا بيه وطول عمري بزرعه وأبويا كان بيزرعه
وجدي كمان كان بيزرعه!

- جاوب على قد السؤال.

- حاضر.. أيوة زرعت بصل.

- بس أنت زرعته بالمخالفة للقانون يا راجل إنت.. فما قولك؟

- يا بيه قانون إيه بس؟ هو فيه قانون للبصل؟ عجائب والله!

- اسكت خالص.. المحامي بتاعك بس هو اللي يتكلم في القانون والمحضر بيقول إنك خالفت، إيه أقوالك؟

- يا سعادة الباشا أنا لا أعرف اقرا ولا اكتب.. أنا بزرع زي الناس وبس.

- آخر الجلسة.. احجزه عندك في القفص يا عسكري!

سيق الذين زرعوا البصل زُمراً إلى قفص المجرمين مرة ثانية ورفعت الجلسة.

في غرفة المداولة قال القاضي كمن يُحدّث نفسه بصوتٍ عالٍ:

- كل هذه القضايا لا بد من الحكم فيها النهارده..

هزرت رأسي بالإيجاب، فعاد يقول:

- قضايا متنوعة.. لكن قضايا زراعة بصل بالمخالفة للقانون لاحظت أنها كثيرة النهارده والا إيه؟

- أيوة فعلاً.

- جديدة القضايا دي، مشفتهاش كتير قبل كده في المحاكم!

- أنا كمان جديد هنا يا فندم.

نظر إليّ القاضي من أسفل نظارته الطبية السميكة وبدا عليه أنه ضاق بي، ربما ظن أنني أتهرب من الإجابة عليه أو أمزح معه. استأذنته في الانصراف على أن أعود إليه بعد قليل لحضور جلسة النطق بالأحكام في جريمة زراعة البصل، فقال وهو يُريح رأسه المجهد بين كفيه في يأس:

- حرام والله الفلاحين الغلابة تتحبس على زرع بصل!

شعرت بغُصّة في صدري لما تخيلت هؤلاء الفلاحين
 البؤساء وهم يسمعون حكمًا بحبسهم على أمر
 اعتادوه، أوحيت للقاضي أنه ربما يوجد خطأ في
 الاتهام وعلينا أن نراجع قانون الدورة الزراعية، أجبني
 بأنه بحث عن هذا القانون ولم يجده بمكتبة المحكمة،
 توجد فقط إشارة لرقمه ووصف التهمة ومواد الاتهام
 فقط في أجنداث وكلاء النيابة، التي تضم عشرات
 القيود والأوصاف المجمعة للتهم والقوانين لتسهيل
 إنهاء ملفات قضايا المخالفات والجُنح الكثيرة.

أخبرني بضيق أنه يفكر في تأجيل القضايا كلها أسبوعًا
 آخر حتى يبحث الأمر برمته، استأذنته في سؤال
 رئيس النيابة عن هذا القانون، فهو الذي قدم المتهمين
 للمحاكمة ولا بد أن لديه نسخة منه. تهلل وجه القاضي
 وهو يخُتني على إسعافه.

صعدت مسرعًا للطابق الثاني حيث مكتب رئيس
 النيابة، رويت له ما حدث بالجلسة والخرج الذي نحن
 فيه بسبب تهمة زراعة البصل، طلبت منه نسخة من
 قانون الدورة الزراعية ليطلع القاضي عليها كي يطمئن

قلبه، عاد بكرسيه للوراء، ابتسم ابتسامة غامضة، ثم أشعل سيجارة قائلاً بهدوء:

- شوف يا نادر بك أنا بقالي عشر سنين باشتغل في النيابة على القانون ده من الأجندة المجمععة، دي تهمة بنورثها جيل من بعد جيل، لكن مفيش مشكلة القانون موجود والتهمة سليمة بس أنا ما عنديش نسخة من القانون.

- يا خبر اسود.. والناس الغلابة دي تتحبس على زراعة بصل؟

- ومين قال يتحبسوا؟! ما كفاية غرامة خمسين جنيهه والحصيلة بتروح للجمعية الزراعية تشتري لهم بيها تقاوي، يعني من دقنه وافتل له، شغل ممالك من بتاع زمان.

رغم أنني ارتحت لهذا الحل الوسط بالغرامة، والذي من المؤكد سيُريح القاضي من بعدي، لكنني قلت منزعجًا:

- لكن إحنا كده ظلمنا الناس!

- المساواة في الغرامة عدل مين قال إننا ظلمناهم؟!
 إحنا اتهمناهم بقانون شرعه مجلس الشعب والحكم
 في النهاية للقاضي.. إحنا سلطة اتهام وبس.



16

لا يكاد يمر أسبوع تقريبًا إلا ويسقط قتيل أو يُقلع
 زرع، أحيانا تُسَمَّم ماشية أو تُحرق دار ودائمًا الفاعل
 مجهول، لا أعرف الحقيقة أبدًا، الشرطة في قرية
 الطايعة باتت مقتنعة بأن المساواة في الظلم عدل،
 والأهالي يتسابقون لتقديم البلاغات في جيرانهم
 بالمركز، ثم يعدلون عن اتهامهم أمامي أو أمام القاضي
 بالمحكمة، من الممكن أن أقضي بقية عمري هنا لحصر
 المساوي ولا أحصيها، دخلت في متاهة كبيرة باحثًا
 عن العدل والحقيقة، شعرت أنني أتلاشى بالتدريج، لا
 أريد التحول لمسخ يُطيع بلا عقل، ولم أستطع
 الاستمرار.

وقَّعت على طلب نقلي بعدما راجعت صياغته للمرة
 الثالثة ثم توجَّهت لمكتب رئيس النيابة، وجدت
 العشرات يقفون ببابه المغلق، الذي يتسَمَّر أمامه
 حارس غليظ القلب، مُتجهِّم الملامح، خشن العبارة،
 ردوده مقتضبة تدفعك لليأس دفعًا على منحدر
 التجاهل.. تُعيدك من حيث أتيت أثرًا السلامة إن كنت

صاحب شكوى أو رافع مظلمة. تجاوزت الحارس دون تحية ودخلت غرفة تعج بكثيرين، على سطح المكتب ملفات تسبح في كل اتجاه مبعثرة بعشوائية، يبدو رئيس النيابة مهمومًا بلا سبب واضح، إلى يساره هاتف أسود سماعته مرفوعة غالبية الوقت، أمامه جهاز كمبيوتر قديم متداعٍ، صار شبه منضدة من عدم الاستعمال، نافذة المكتب مفتوحة على مصراعها حتى لو كان الطقس باردًا، لثُسرَّب دخان سجائره التي لا تفارق شفثيه تقريبًا، تُطل نافذته على فناء خلفي صغير، يتخذه صبية المدرسة القريبة منًا ملعبًا لكرة القدم بدءًا من الرابعة عصر كل يوم، لنفزع مع صيحات كل هدف.

تركت طلب النقل أمام عينيه ورفعت بصري فوق رأسه، متأملًا صورة بإطار مُذهَّب لامع رخيص لرئيس الجمهورية حسني مبارك، يبدو فيها متحديًا للا شيء في كسل، نقلت بصري بين وجه الرئيس مبارك ووجه رئيسي، كان يستمع لوكلاء نيابة آخرين فرغوا من

تحقيقات أولية في قضية حريق الكنيسة، ثم باغتني وهو يطوي طلب النقل قائلاً:

- اقعد يا نادر بك.. أنا عاوزك في كلمتين بيني وبينك.

أخلى رئيس النيابة غرفته من شاغليها، توقعت أنه سيؤنّبني كالعادة خاصة لما أمسك بطلب نقلي الذي قدّمته ومزّقه قصاصات صغيرة، راح يُلقِيها بعناية في سلة المهملات أسفل مكتبه. نظراته شاردة.. قلقة.. نفت دخانًا كثيفًا كان يحتبسه في صدره وهو يقول بصوتٍ هادئ:

- ما ينفعش تمشي وتسيبنا بعد خمس شهور، أنا محتاجك جنبي الفترة الجاية، أنا عارف إنك صح لكن انت عارف برضه إني متقيد بقوانين وتقاليد صارمة.

- أنا مش عارف أشتغل وبصراحة حاسس إني ممثل في مسرحية سخيفة مكررة مُتفق عليها مُسبقًا، والمصيبة إن المُخرج مش من عندنا.. مش شبهنا، يفكر في اتجاه ثاني غير اللي بنفكر فيه، فكرة العدل

والقانون مش بتشغله، كل اللي بيهمه السياسة وياريته حتى يلعبها صح.. أنا مُقدر ظروف البلد لكن عارف إن أغلب الجمهور بيسقف للمخرج ده مش لينا، بس ده لأنه بيخاف منه مش علشان مقتنع بيه.. أنا عاوز..

ضغط رئيسي زر الجرس فدق عاليًا وأسكتني، دخل علينا سكرتيره، طلب منه رئيس النيابة تقرير الطب الشرعي في قضية علوان حارس الطواويس، وضعت ساقًا على أخرى متململاً، شعرت أنني سأسمع محاضرة جديدة عن أصول الشغل، رغم كل ما نقلته له من همومي، يا ليتني ما تحدثت.

فاجأني بإعادة استخراج جثة علوان وتشريحها منذ أيام، التقرير الثاني من الطبيب الشرعي يؤكد أن الرجل مات مخنوقًا أولاً، ثم تم إحراق جثته ودفنها من فوق سطح بيته ليبدو انتحارًا.

سألته ببراءة عن الفاعل، أجاب في أسى بأنه لا يزال مجهولًا، لكنَّ المسلمين مُصرُّون على أن المسيحيين

قتلوه.. تحدّثت عن صاحب المصلحة في قتله، فطالت فترة الصمت بيننا حتى قطعها قائلاً:

- صدقني مع بعض نقدر نوصل للحقيقة، الطرفين فيهم متعصبين، وحتى لو مقدرناش نعرف دلوقتي على الأقل حنحقق ونكشف ونبيّن، يمكن يبجي غيرنا من بعدنا يكمل ويحاسب.. مسيرها تتصلح طول ما بنحاول.

ارتحت لكلامه وشعرت أن طرف الخيط بيدي قد يساعدنا في الوصول للحقيقة، نقلت له هواجسي وشكوكي في رمسيس لاحتفاظه بدفتر حيازة زراعية رئيسي في الاستراحة، ولا بد أن به كل المعلومات الحقيقية عن الذين اشتروا البيوت والأراضي بعد قتل أصحابها أو حرق مزرعاتهم.. بدا على رئيسي الاهتمام، شرد لوهلة ثم أخبرني أيضًا أنه طلب تحريات جديدة من مدير الأمن في جريمة قتل "صليب"، لمّا تبين لنا ذبحه بعد إصابته بالخرطوش رغم كل محاولات الشهود وغيرهم لطمس أدلة الجريمة.

كان جادًا وهو يؤكد لي ضرورة الوصول للمدعو خليفة بعدما أجمع الشهود على أنه القاتل، ولخليفة الآخر قاتل علوان بعدما تأكدنا من خنقه ثم حرقه، الأمور تتبدل أمامي بسرعة للأفضل، هناك أمل في اعتدال ميزان العدل بين يدي المرأة معصوبة العينين، أعدت على مسامعه موضوع دفتر رمسيس وعرضت عليه تحقيقاتي، أطفأ سيجارة بعدما أشعل ثانية منها، ثم أصدر قرارًا بضبط رمسيس وتفتيش استراحته بناءً على أقوال هدى حبيب التي أخذتها منها لَمَا أخبرتني برؤيتها دفتر حرف "ز" في استراحة رمسيس.

دبَّت في الروح من جديد، نهضت متحمسًا لجولة أخرى من العمل ونسيت كل المساويء مؤقتًا، ربَّت رئيس النيابة كتفي بقوة، نظرة عينيه تقول إنه يعتذر لي عمًا سبق، ابتسمت له ابتسامة عريضة.. فأنا قبلت الاعتذار.

انتقلتُ صحبة معاون المباحث وقوة من القسم، إمعانًا في التمويه أخبرتهم بأننا سنذهب لمأمورية معاينة غرب القرية، في الطريق طلبت من السائق أن يعرج

إلى الاستراحة بحجة أنني نسيت أوراقًا مهمة، وجدت رمسيس يجلس القرفصاء بالتراس، يُطعم كلبًا اعتاد التردد على استراحتنا، بجواره نبوي الديب يحتضن عيدانًا من القصب، وعلى مقربةٍ منهما تل صغير من بقايا ممصوفة، وعُقلات لم تَلن مع أسنانهم فنحَّوها مؤقتًا. جلسة رائقة سيتعكر فيها مزاجه بعد قليل، هكذا فكرت وأنا أبتسم بثقةٍ مُترجِّلاً من السيارة حتى منتصف المسافة بين الاستراحتين.

هَبَّ رمسيس واقفًا وراح يقترب مني، مبطئ الخطى.. مترددًا.. قلقًا، لا يفهم شيئًا مما يدور حوله، وهو يشاهد عساكر الشرطة يقفزون من صندوق السيارة تباغًا كجحافل نمل منظمة في طريقها للهجوم، لم يُدرك بعد أنه قطعة السكر المستهدفة، التفث للضابط والقوة المرافقة لي بهدوء مشيرًا نحو رمسيس المذهول قائلاً:

- اقبض على المتهم يا حضرة الضابط.

بُهِتَ رمسيس لبرهة وتلفت خلفه، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وهو ينظر لي بحدة، ممّا استدعى دهشتي بسرعة وكنت ظننتها غابت، جذبتني من ذراعه بغلظة بعدما وضعوا القيود بيديه، متجهًا به نحو مبنى استراحته، همس لي في المسافة الفاصلة بيننا وبين بابها بأنني خسرت للأبد.. ابتسمت له لأول مرة ابتسامة صفراء لزجة استعرتها منه بحذافيرها.

فَتَّشْنَا الاستراحة كلها، قلبناها رأسًا على عقب عدة مرات، لم نترك خرمًا بها إلا ونقبتنا فيه، كدت أنزع بعض الألواح الخشبية التي تُغطي المدخل لما لم نجد الدفتر الذي نبحث عنه. التفتُّ نحو رمسيس بعد ساعتين ونصف من التفتيش المتواصل، وقفته متراخية، يرتكن بظهره لباب الاستراحة والابتسامة اللزجة على وجهه تتسع بعدما استردّها مني كاملة، ولم يبقَ بملامحي سوى اليأس والعبوس.

ساهمت أقوال هدى حبيب بالتحقيقات في إقناع رئيس النيابة بحبس رمسيس أربعة أيام احتياطيًا، رغم عدم عثوري على الدفتر، لكن السؤال الذي

يشغلني الآن هو كيف علم رمسيس بأننا كنا متوجهين لتفتيش استراحته ليتمكن من إخفاء الدفتر بهذه السرعة؟

أجهدني التفكير لكني لم أصل إلى شيء. نقلت تساؤلاتي لرئيسي في حيرة، فبادلني مثلها، أكد على أنه لم يُخبر أحدًا بالمأمورية ولا حتى سكرتيه. سادت فترة صمت ونحن نسترجع الأحداث ببطء، نحاول ربط الخيوط وتتبعها، حتى التقينا في نقطة فاصلة.. تذكرنا فجأة أنه دارت بيننا محادثة هاتفية طويلة وأنا أتحرك من سراي النيابة، هابطًا الدرج في طريقي للقبض على رمسيس تنفيذًا للإذن، تكلمنا بتفاصيل أكثر وقتها. قطع رئيس النيابة الصمت بابتسامة استنكار مريرة وهو يصوب بصره نحو هاتفينا المحمولين الراقدين على سطح المكتب، ثم هزَّ كتفيه يائسًا، ففهمت مقصده.

منذ صدور القرار بحبس رمسيس احتياطيًا وهو صامد كتمثال، لم يقل شيئًا يُذكر لزميلي الذي تولى التحقيق بدلًا مني، أنكر معرفته بالدفتر أو أي معلومات عن الحيازات الزراعية، واجهوه بأقوال هدى حبيب الشاهد الوحيد على جريمته، لكنه ظل ثابتًا متماسكًا، زادت دهشتي وكبرت لما علمت أنه أنكر معرفته بها باعتبارها وافدة جديدة على القرية. من المؤكد بعد كل ذلك أنهم لن يُجددوا فترة حبسه، حتمًا سيُفرج عنه وكان شيئًا لم يكن، سيختفي الدفتر للأبد وستُحفظ القضية قريبًا، لتستقر بجوار بقية الملفات التي تحمل جميعها الكلمتين ذاتيهما.. "ضد مجهول".

تشاءبت وهممت بالصعود لغرفتي، ارتطم حذائي بحجر أملس صغير، تلقائيًا التقطته وطوّحته بعيدًا بطرف الحديقة نحو أشجارها الكثيفة، نبح كلب فجأة عاليًا فانتبهت، لمحته خارجًا من بين الأشجار، راح يحوم حول استراحة رمسيس المغلقة، كانت رمية حجر مُسددة بعناية فيما يبدو، أصابته في موجه وهو يتبرز هناك، حاول لعق مؤخرته عدة مرات ليطمئن على

سلامتها ففشل، ثم ما لبث أن ابتعد وهو يهز ذيله في سرور. رمسيس لا يزال محبوبًا أربعة أيام على ذمة التحقيق، وإجراءات الإفراج حتى لو تمت اليوم فلن يخرج قبل الغد. اعتاد رمسيس إطعام هذا الكلب، لا بد أنه أتى في مواعده اليومي ليتلقى طعامه، أشفقت عليه ولم أقمه حجرًا ثانيًا.

أعددت له وجبة محترمة من عظام الضأن التي رقدت لحومها بمعدتي أمس، سكت عليها بعض المرق الذي تبقي مني، ووضعتها بالقرب منه في إناء صغير، تشمّمها الكلب وابتعد دون أن يقربها. راح يحوم نحو الاستراحة وهو يهز ذيله ثم يعود ليقترب من الطعام، يتشمّمه ويتركه، ناديته لكنه لم يستجب، ابتعدت ثم تواريت خلف ضلفة النافذة الطويلة لعله خائف مني، راقبته من مكمني، ظل يُعيد الدورة ولا يقرب الطعام، فجأة انتصبت أذناه وجرى حتى باب استراحة رمسيس، نبش أظافره فيه وهو ينبح نباحًا مكتومًا.

ضربت جبهتي بيدي في ضيق من غبائي وأنا أكزُّ على أسناني بشدة، أدركت كم كنت مغفلاً، لم أفهم مغزى

الإشارة التي تحوم أمامي، هرولت مسرعًا باتجاه
استراحة رمسيس، كسرت النافذة بحجر وفتحتها
بسرعة من الداخل، أزحت الستائر بدفعة واحدة من
يدي، فوجدت ما توقعت.. رمسيس كان جالسًا في
فراشه بملابسه كاملة، وعينيه مفزوعتين لرؤيتي
والكلب ما زال ينبح.



17

علا صوت نفير سيارة أجرة تعبر نهر الطريق الفاصل بيني وبينه، تراجع هلال مذعورًا بعدما كادت السيارة تصدمه، سقط على ظهره لما ارتطمت قدمه بحجر كبير، لم أدرِ بنفسِي إلا وأنا متشبثة بحافة باب العربة، أمسك التباع بيدي الأخرى وجذبني بقوة لداخلها، انطلقت السيارة مسرعة بعدما ابتلعتني. مصادفة ثانية تتكرر بحذافيرها أرسلت من السماء لنجدتي.. لكن إلى متى؟!

تمتت بالصلوات التي تعلمتها من أبينا إسطفانوس، رحت أردد كلماته لتسبق دموعي علها تجف على وجنتي، أدعو أبانا الذي في السموات ليغفر لنا ذنوبنا كما يغفر نحن للمذنبين إلينا، لا أريد رؤية هلال لمرة ثالثة، ارتفع صوتي وأنا أقول: "لتكن مشيئتك، لا تُدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير".

من بعيد رأيت هلال ينفذ جلبابه وهو يتابع العربة ببصره، ربما كان يقول شيئًا لمن تجمّعوا حوله لكني لا

أسمعه، ثم اختفى عن ناظري. برد الصعيد أجبرنا على غلق نوافذ العربة، بخار أنفاس الركاب يتكثف على الزجاج الخلفي فيحجب عَنَّا الرؤية، بجواري فتاة صغيرة صحبة أمها، جثت بركبتيها على المقعد وراحت ترسم على الزجاج قلبًا كبيرًا بأناملها، ابتسمت لها ونظرت معها من خلال القلب الذي سمح إطاره لنا برؤية ما خلفنا، لكني لم أعد أرى "هلال".

عُدت لبيتي، أشعر بانقباض يلازمي طوال اليوم، ربما يكون مبعثه نومًا متقطعًا أو إجهادًا مستمرًا بسبب طلبات أهل القرية التي لا تنتهي للتبرُّك ببركتي كما يظنون، عقولهم صارت في آذانهم، كلما أصابتهم مصيبة ذهبوا لبيت القبطية، كلهم يريدون الإنجاب ويؤمنون بقدرتي، ولا يستوقفهم أبدًا أنني محرومة منه إلى الآن..!

لازمتني كوابيس متكررة بعدها لأيام عديدة، صارت رفيقة منامي منذ أتى هلال من الماضي القريب وراح يحوم كل فترة حولي حتى تعبت من الهرب وصرت قريبة من الافتراس. على يساري نافذة كبيرة، لمحت

منها شجرة عليها عصفور صغير يقفز من غصن إلى غصن في رشاقة وخفة، حسدته على ما هو فيه من نعمة، حتى لَمَّا حَطَّ غراب كبير على مقربة منه فأطاره فزعًا، يكفي أنه لا يزال قادرًا على التحليق.

- اتأخرنا يا هدى على معادنا، هَمِّي شوية.. اتلححي..

علا صوت رِزق واقفًا قرب باب البيت فلحقت به مسرعة، جلست بجواره بعد قليل في الممر الطويل أمام غرفة وكيل النيابة، ننتظر الإذن لنا بالدخول، طال انتظارنا بلا سبب، أناس تروح وتجيء علينا، بعضهم يخرج مجبور الخاطر وآخرون تسوّدُ وجوههم . فجأة هَلَّ علينا الشيخ رجب بسحنته الصفراوية وخلفه خادمه الذي رمقني بنظرةٍ حقيرةٍ وهو يعبت بشاربه، بصق الشيخ على الأرض بعدما تخطانا، أمسكت بيد رِزق بقوة، أعصابه كلها مشدودة، لكنه أطبق على كَفِّي بعدها في هدوءٍ وأفلتت منه عبارات سباب خفيضة.

دخل الشيخ رجب بدون استئذان بعدما نفح الحاجب نفحة خفية بأصابعه التي انسلت من بين عباوته،

أبدينا تذرنا وعلا صوت رزق، استفسر نادر بك من حاجبه عمًا يجري بالخارج ثم سمح لنا بالدخول أيضًا، جلسنا في ركن الغرفة الفسيحة نستمع لشكوى الشيخ رجب الذي أبدى تحفظًا على وجودنا، لكن نادر بك صمَّ على بقائنا، بسمل الشيخ وحوقل وتبدلت ملامح وجهه ونبرة صوته وهو يحكي لوكيل النيابة أن قبطيًا من أهل القرية هداه الله منذ فترة فأسلم ونطق الشهادتين. تملل رزق في جلسته وسَعَلَ بصوتٍ عالٍ، لكن نادر بك طلب من الشيخ الاستمرار وهو ينظر لرزق نظرة مؤنبة للمقاطعة، عاد الشيخ يستكمل حكايته بأن الرجل مات منذ أيام على دين الإسلام وترك ولدًا مع امرأته القبطية، وهو يريد ضمَّه لحضائنه بدلًا من تركه معها!

اعتدل نادر بك في كرسيه فجأة كزاوية حادة قائلاً بضيق:

- وإنت مالك ومال الطفل يا شيخ رجب علشان تاخده في حضائتك زي ما بتقول؟!!

- ما هو أنا كده بقيت في حُكم عمه يا باشا، والشرع
بيقول إن الحضانة تروح لأفضل الأبوين دينًا، والأب
مات على دين الإسلام والحمد لله، وأمه نصرانية
وكافرة ومالوش أعمام، يبقى إحنا كمسلمين أولى
بتربيته!

- جبت الكلام الفارغ ده منين يا شيخ رجب؟

- يا باشا ما يصحش تكلمني كده وكمان قدام نصارى
أغراب عئنا، ثم إني حاصل على دراسات من الأزهر
ومتعين من الأوقاف يعني أنا عا ..

قاطعه نادر بك وقد علا صوته في حدة قائلاً:

- اسمهم مسيحيين أو أقباط، وهُمّا مش أغراب عئنا،
وعلى فكرة يا شيخ رجب أنا جدي كان شيخ أزهر،
ووالدتي اتعلمت في مدارس راهبات.

مصمص الشيخ رجب شفتيه وهو يتبادل نظرات
مريبة مع خادمه المبتسم في خبث، تجاهلا كلام وكيل
النيابة كله وقدم الشيخ طلبًا مكتوبًا بضم الحضانة،

راسماً ابتساماً لزجة على شفثيه الغليظتين لكن نادر بك رفضه وأزاحه بضيق من على سطح مكتبه، أمره بعرض طلبه على القاضي في قضية يرفعها بمعرفته إن أراد، توتر الموقف بينهما، علا صوت الشيخ رجب محتجاً على سوء معاملته لكنه خمد بسرعة بنظرة غاضبة من نادر بك، ساد صمت مريب ثم تلقى وكيل النيابة مكالمة هاتفية عكّرت مزاجه، بدا متضايقاً وعصبياً رغم خفضه لصوته مع مُحدّثه، همست في أذن رزق لتغادر فوراً. استأذنا كي ننصرف فسمح لنا نادر بك وضيقة يحجب عقله عن معرفة سبب زيارتنا.

خرجنا مسرعين وأنا ألوم رزق على اقتراحه بالذهاب للنيابة بدلاً من عرض مشكلتنا على رمسيس.. فلا أحد غيره سينصفنا، مطّ شفثيه قائلاً:

- طيب ما نروح المركز ونبلغ رئيس المباحث وممكن أبونا إسطفانوس يكلمه لنا.

- رمسيس أقوى من أبونا ومن المباحث ومن الحكومة كلها.. طاوعني وريّحني، أنا بقيت عارفة الطايعة أكثر

منك بعد كام شهر بس مش أربعين سنة.

سكت رزق وهو يهز رأسه عدة مرات، يبدو غير مقتنع بكلامي، لكنه لم يُعارضني، ذهب معي لاستراحة رمسيس بعدما علمنا بقرار الإفراج عنه، طوال الطريق ورزق يسير خلفي بخطوات مترددة، يُذكرني بأني كنت الشاهدة التي تسببت في حبس رمسيس فكيف سيُساعدنا الآن، يسأل لأتراجع، وأنا أمد الخطى لأتجاهل سؤاله فيعيده؛ لأرد في النهاية قائلة:

- البلد كلها عارفة إنه كان بايت في استراحة المحكمة طول فترة حبسه وأنا قلت لنادر بك الحقيقة غصب عني.. صدقني رمسيس هو الوحيد اللي يقدر يساعدنا في الموضوع ده وربنا بيسامح، يبقى رمسيس مش حيسامح؟!

- وهو أخو المرحوم جوزك في إيده إيه يعمله غير إنه يقول إنك اتجوزتي تاني بعد ما جوزك مات في العراق؟ أنا مش فاهم إنتي خايفة منه كده ليه؟ جوزك

وربنا افتكراه وانتى اتجوزتى واحد من دينك، هو
الجواز حُزْم؟!

لا أجد ردًّا على أسئلة رِزق التي تتكرر منذ أخبرته
بمخاوفي لَمَّا ظهر هلال مرتين وتعقبني، بالطبع
أخفيت اسم هلال عنه حتى لا يشك في زواجي من
مسلم، لكني الآن لا أجد إجابة عنها مع أنني اتخذت
قرارًا بالتطهر من الخطية، سأقول كل ما حدث، سأذكر
اسم هلال وأروي قصتي مع خضر شقيقه، لكن مرة
واحدة، نعم مرة واحدة فقط أمام رمسيس ليتوسَّط
لي في الكنيسة، لم أعد أستطيع الصبر، ولست قادرة
على تكرار حكايتي، فحتى الآن لا أعرف كيف سأبدأ
روايتها.

استقبلنا الخفير نبوي الديب بابتسامة باهتة، سألته عن
رمسيس، ظل يتفحصنا في ريبة وهو يتحسس
بندقيته، ثم راح يستفسر منَّا عن سبب حضورنا عابثًا
بشاربه وبعدها نطق كفرًا:

- الزيارات الشخصية ممنوعة هنا بأمر من نادر بيه
وكيل النيابة.

تدخّل رزق في الحديث وهو يخفض من صوته مقترّبًا
من نبوي متلفّثًا حوله عدة مرات:

- أصل فيه جماعة أغراب في البلد، فأنا قلت منهم
وقلت أبلغ عم رمسيس.

كلمة "أغراب" كان لها وقع السحر على أذن نبوي
الديب ولا أعرف السبب، لكنها أخافته وأعطتنا هيبة،
أضفت على كلام رزق الثقة، وفتحت لنا الطريق ممهدًا
لدخول الاستراحة، فدخلنا وتركت دهشتي ورائي.

قابلنا رمسيس بفتورٍ شديد، لم يُفاتحني على الإطلاق
في موضوع القضية وشهادتي فيها ضده، بدا لطيفًا مع
رزق وتجاهلني، ظلت ابتسامته غير مريحة وحركته
بالغرفة موترة لنا، عندما انتهينا من الشاي همّ ليُعد
غيره وهو يتحدث عن الخيانة فأربكتني نبرته
ونظراته، لملمت شتات شجاعتي وأخبرته بأنني طالبة

مساعدته في مسألة حياة أو موت تخصني وتخص زوجي، لحظتها التفت رمسيس فجأة نحوي، تلقفني وأنا أهوي بكلماتي بين يديه من علي وقال بنبرة مستفزة:

- أي واحد فيهم؟ الأولاني خضر اللي انتي لسه على ذمته، والا رزق أفندي الغلبان اللي صدقك؟!!

تقلبت ملامحي، حلق رزق في وجه رمسيس مدهوشًا وهو يتمتم ناقلًا بصره نحوي في ذهول:

- خضر مين؟!!

سبقني شيطان رمسيس المكبوت في الإجابة فاسترسل وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- وبعدين حياة أو موت إيه يا ست هدى اللي جاية تغني بيها علينا، مفيش حد مات لسه، حتى الواد خضر جوزك الأولاني عايش وزى الحصان كمان.

أجمت كلمات رمسيس لساني، شعرت لوهلة أن الصورة ثُبَّت على وجه رِزق، علامات الاستفهام تتقاذف من عينيه، لون بشرته استحال إلى صُفرة غريبة، شعرت للحظات أن الأرض تَمِيد بي.. لا أُصدق أن خِضر على قيد الحياة.. ما فائدة كل ما كنت أنوي قوله بعدما وضع رمسيس كلمة النهاية قبل أن تبدأ الأحداث؟!!

- خِضر مين؟!!

كزَّر رِزق تساؤله بصوتٍ متحشرجٍ هذه المرة، أشعل رمسيس الموقد الصغير بحجرته وهو يتفرس في وجه رِزق الذاهل في شماتة، ثم قال بنبرةٍ لا تخلو من تهديد:

- اللي يخون مالوش مكان بيئًا.. مراتك زانية يا رِزق.. كدبت علينا كلنا وهي على ذمة راجل تاني والمصيبة إنه مُسلم كمان، الست هدى هربانة من محمد خِضر أخو هلال اللي بيدور عليها هنا بعد ما ضربت جوزها على نافوخه وسابته سايح في دمّه من كام شهر

نواحي الجيزة، والله أعلم ليه عملت العملة السوداء دي،
ومش بعيد تكون غيّرت دينها كمان وبتكذب.

سقط رزق من فوق مقعده متكومًا على الأرض بعدما
شهق عاليًا، فقد وعيه فجأة، لم يستطع الصمود أمام
فيضان الكوارث الذي انههر من شفّتي رمسيس
كأحجار ضخمة جرفها السيل من عليّ، غرقت في
مصيبتني وفضيحتي معًا، خضر على قيد الحياة ورزق
يُحتضر أمامي ويتأهب لتركها، أنا على ذمة رجلين
الآن، أحدهما يُريد قتلي والثاني سيموت بسببي!

حاولت كالمجنونة إفاقة رزق بلطمه على خديّيه عدة
مرات دون جدوى، صرخت، تحرك رمسيس ببطء،
جذب فحل بصل من مقطف خوص مُعلّق قرب نافذة
مطبخه الصغير، طرقه بكفه وهو يبسطه على الأخرى
فدغّه، ثم قرّبه من أنف رزق، تحرك جفناه قليلًا وباعد
بين شفّتيه، لكنه لم ينطق وظل في غيبوبته.

- اطلب المركز بسرعة بيعتوا عربية إسعاف.. الراجل
بيطلع في الروح يا بَجَم.. اتحرك.

قالها **رمسيس** زاعقًا لنبوي الديب الواقف بباب
الاستراحة متسمرًا فتحرك مسرعًا، دموعي تنهمر
أسرع من الأحداث المتلاحقة، قدماي لا تحملانني،
عيناي زائغتان، **رمسيس** لا يصبوب نظراته نحوي،
يتعمد تجاهلي بعدما ألقى قبلته في وجهينا فأصابت
رزق في مقتل وشرذمت شظاياها روحي، الخوف
يفتك بقلبي ويشتت ذهني، صورة خضر تتصدر
مخيلتي رغم أننا انشغلنا برزق الغائب عن الوعي بيننا.

قبل أن نستقل عربة الإسعاف قال **رمسيس** بنبرة
مُحذرة وعيناه تبرقان محذقتان في وجهي:

- نَظْمَن على رِزق النهارده ومن بكرة مالكيش عيش
معانا هنا، سيبى الطايعة بالمعروف أحسن ما تخرجي
منها في صندوق خشب، أهل البلد لو عرفوا حيهدوا
بيتك على دماغك ويجيبوا عاليه واطيه.

دفعت المقعد المتحرك أمامي، عبرت البوابة ودخلت
من باب جانبي صغير للكنيسة الكبيرة، رزق يجلس

مُطرقًا، شبه نائم، منذ أن لدغه رمسيس بخبر زواجي من خضر، شهر كامل أمضيناه بين المستوصف وعيادة الطبيب ومستشفى كبير بالجيزة ولا أمل في شفائه، لم تتحسن حاله سوى أنه أفاق من غيبوبته، ليجد نفسه محاصرًا بالسكون بلا حراك، لا أعرف ما يدور برأسه، ولا يجد لساني كلمات بعقلي ليطمئنه بها.

قطعنا الممر الطويل بين المقاعد الخشبية ثم انعطفنا يسارًا، أشعر أنني غريبة لأول مرة، تلفني الريبة وتُحلّق الهواجس فوق رأسي وتشتتني الظنون، طرقتُ باب غرفة أبينا إسطفانوس ولم أنتظر ردًا، أدت المقبض ودفعت الباب، بادرني أبونا بإشارة من يده فتوقفت مكاني، اقترب منّا مُرحبًا برزق وهو يقبض بكفيه على يده، مسح رأسه عدة مرات بكفه وقبّل جبهته، نحّاني بجسده، أخذ عني قيادة الكرسي المتحرك وأولاني ظهره طالبًا مني الانتظار خارج الكنيسة لحين انتهاء الصلوات. نظرتة لا تحمل عتابًا أو لومًا بقدر ما تحمل ازدراءً، لا أفهم له سببًا منطقيًا بعد اعترافي بالخطية أمامه.

ثلاثون يومًا قضيتها مع رِزق يكاد يموت مني، شعرت بأن الله غضب عليّ، سلّمني فرحتي فجأة وحرمني من جنتي لأنني كذبت، ما إن تعافى رِزق بالكاد وجلس على كرسيه المتحرك حتى زارنا أبونا إسطفانوس في بيتنا، تذكرت الآن أنه رمقني يومها بنظرةٍ مماثلة، لكنني لم أتوقف كثيرًا عندها لفرحتي بأن رِزق عاد للحياة بيننا.

جلست حتى لا أسقط من فرط انهيار أعصابي المنهكة، أبلغني أبونا ببرود أن الكنيسة اعتبرتني خارجة عن الملة لزواجي من خضر وأبطلت زواجي من رِزق لأنني على ذمة رجل آخر، أعطاني مهلة أسبوعًا لترك الطايعة، تكلم بنبرة رمسيس وبنظرتة نفسها يوم انهيار رِزق.

اليوم أتيت للكنيسة تائبة، أردت مَدَّ المهلة للنظر في الغفران لكن أبونا إسطفانوس رفض، مع أنني على الحافة بين الكفر والإيمان، هؤلاء ينبذونني والآخرون لن يُرحبوا بي.. "غيتيني يا عدرا".

غادرت الحجرة، وطوال سيري برواق الكنيسة لاحظت أن أحدهم يسير خلفي، شماس شاب يُراقبني حتى خرجت فعاد أدراجه. راودتني فكرة الانتحار لوهلة لكنني تراجعته بسرعة لَمَّا فكرت في رِزق. عيد القيامة بعد يومين فقررت الذهاب للسوق لأشتري له هدية، رِزق يقول لي دائماً إن الهدية تُزيل الغُمَّة وتُصَفِّي الثِّبة، سأشتري قطعة قماش جديدة، أفضلها جلباباً له من الصنف الذي يحبه، وسأعود للكنيسة ولن يمنعني أحد هذه المرة.

حملتني قدمي بالكاد حتى وصلت إلى السوق، استقبلني البائعون بريحٍ عدائيةٍ هزتني وزعزعت ثقتي بنفسي فقاومتها، لكنني كلما اقتربت من عربة مُحمّلة بالأقمشة لأتفحصها وأختار من بينها، اخترقت أذني العبارة ذاتها.. "القماش مش للبيع.. امشي من هنا يا ست".

تذكرت تحذيرات رِزق بعدم الذهاب لأسواق المسلمين، لكنه السوق الأقرب عند خروجي من كنيسة النور، انتابتني الحيرة، كيف عرفوا أنني منبوذة من

كنيستي؟ هل أخبرهم رمسيس بهذه السرعة؟ أم أن الكنيسة فضحتني؟ لست أدري.

قررت العودة للكنيسة مرة ثانية بعد أربع محاولات فاشلة للشراء، لكني لمحت نجيب صمويل أحد جيراننا مع زوجته فريال، رحبا بي في مودة. شكوت لصمويل العنت الذي لاقيته من التجار، اصطحبني إلى عربة بنهاية السوق، يبدو أنه على محبة مع صاحبها. بدأت وفريال نُقلب في الأثواب المرصوفة على العربة، لكن النظرات من حولنا تحاصرنا، الألسنة تُغمغم بما في الصدور، تطاول أحدهم علينا وهو يضع قرنين بأصابعه فوق رأسه في إشارة إلى زوجي رزق، حمدت ربي أن صمويل وزوجته لم يعلما بالحقيقة بعد.

اتسعت الابتسامات البلهاء، بعدها علت ضحكات شجعت آخرين على التماذي في إهانتنا، لاحت بوادر مشاجرة بالأيدي بين صمويل وباعة آخرين، تدخلت زوجته لنجذبه بعيدًا وننصرف في سلام، نحن ثلاثة وهم عشرات فلا غلبة لنا، دفعني أحدهم بشدة في

صدري، سقطت على ظهري وكشفت ساقي حتى
منتصف فخذي.

علا صياح فريال ولطمت، تدافع الباعة نحونا، دخل
صمويل في عراق شرس مع مَنْ حوله وهو يسب لهم
الدين والملة، رجحت كفتهم سريعًا، طرحوه أرضًا ثم
دفعوا فريال بجوارنا، انهالوا علينا بالعصي وبعضهم
يُكَبِّر بصوتٍ عالٍ بعدما استمر صمويل في سب دين
المسلمين، فجأة دوت سرينة عربية الشرطة قادمة
باتجاهنا، انفضَّ الباعة من حولنا، مثلما يهرب الذباب
جماعات من فوق الحلوى إذا ما لمح المنشة وهي
تهوي فوق رأسه، أدخلنا الضباط بصندوق السيارة
ونحن لا نصدق أننا نجونا، ربما كنا أول ثلاثة بالقرية
كلها نفرح لركوبنا سيارة الشرطة.

في المركز رفض صمويل الإفصاح عن أسماء الباعة
الذين اشتبكوا معنا وكشفوا عوراتنا، ولم يتهمه أحد
منهم بسبِّ الدين أيضًا، سرنا على دربه وأنكرنا أنا
وفريال، وبقي ما في النفوس يكاد يخترق الصدور

ويتشابك وسطنا أمام الضابط، لكنه أفرج عنَّا جميعًا
وهو يسب لنا الدينين!

عُدت للكنيسة ثانية كي لا أترك رِزق بمفرده، علمت
أنهم أعادوه لبيت شقيقته فلحقت به، حكيت له ما
حدث، رفع جفنيه لأعلى بعد قليلٍ ودمعت عيناه،
مددت كفي وأمسكت بيديه وقبّلتها باكية ثم ركعت
وقبّلت قدميه، لكنه ظل على حاله ينظر للا شيء
ويبكي في صمت.

بعد المساء سَرَت بالقرية إشاعات حتى وصلت باب
بيتي، قالوا إن الأقباط وضعوا سُمًّا في مياه الشرب
وحرقوا المعهد الأزهري، أشاعوا أن القبطية تستدعي
جِنًّا لبيتها، يحرق القمح والبرسيم ويُهلك المواشي كلها
في غمضة عين، علمت أن الطايعة بالكامل محاطة
بعشرات العربات من قوات الأمن المركزي، لا أحد
يدخل أو يخرج منها، مع أن الخطر بالداخل يمرح
بيننا.

دارت عربات نصف نقل بمكبرات صوت تُحذر الأهالي من مغادرة بيوتهم، ينادون علينا بأسماء أزواجنا، تضايقت لما قالوا عني هدى النصرانية وهم يمرون من أمام بيتي كأن رِزق لم يَعد موجودًا، على الأقل لقب القبطية كان أهون، لكنهم ليسوا في حاجة لبركتي الآن. بعد ساعتين هدأت الحركة، ولم نَعد نسمع سوى صوت السكون وصراصير الغيطان القريبة. فجأة عادت كُرّات النار للظهور، لكنها هذه المرة غريبة، أشبه بشهاب أحمر يطير عاليًا، ثم يسقط فوق البيوت أو بينها، ينطفئ بسرعة ولا يحرق شيئًا.

خرجت خائفة ووقفت أمام البيت لاستطلاع الأمر، جيراني القريبون مسلمون لكن بيوتهم غارقة في العتمة، كرات النار اختفت كما ومضت فجأة، عُدت وتطرّحت ثم أسرع الخطي حتى وصلت إلى بيت صمويل بالشارع الخلفي، وجدت عنده تجمُّعًا من رجال كثيرين مسلحين بعصي غليظة، وبعضهم مُسلح "بمقروطة" يحشوها بالخرطوش، توجَّست ممَّا أراه ونقلت مخاوفي لفريال، لكنها سكتت عن الكلام بنظرة

واحدةٍ من زوجها الذي أغلق علينا باب الحجرة وهو
يقول بحسم وعصبية بينما يتطاير الرذاذ من بين
شفتيه:

- والمسيح الحي لناخذ بتارنا منهم الليلة ونلبّسهم
ظُرَح زي نسوانهم، والسما تشهد علينا.



18

غُصت في مقعدي أستمع لإيقاع نشع قطرات المياه من السقف في رتابةٍ تُنبّه ذاكرتي وتُلح عليها، زاعقة بصوتٍ يسد أذني.. "أنت فشلت.. هم أقوى منك ومن القانون.. هم القانون نفسه، وأنت أحد منغذي رغباتهم في النهاية مهما حاولت أو قاومت".

لا أعرف ما إذا كان رمسيس قد أمضى فترة حبسه الاحتياطي كلها بالاستراحة أم بحجز المركز، حال الحجرة التي اقتحمتها عليه وهو راقد بفراشه تشي بأن أيام الحبس الأربعة قضاها هنا، لكن دفاتر المركز وعساكر القسم يؤكدون حبسه بالتخشية. الوحيد الذي لمحت في عينه نظرة ضيق ممّا جرى هو نبوي الديب.. نظرته تنبئ عن بركان بداخله، يريد أن يقذف حُمم الحقيقة قبل أن تحرقه، هو طرف الخيط الذي سيقودني للفريسة، وما عليّ سوى جذبته ناحيتي برفق.

ظننت أنني سأصطاد أكثر من عصفور بشهادة نبوي الديب، ضابط أمن الدولة الذي مكّن رمسيس من مغادرة التخشبية كل ليلة، دفتر حرف " ز " الذي نبحت عنه والذي حتمًا سيظهر لو ضاق الخناق على رقبة رمسيس هذه المرة، لنكشف غموض الحوادث كلها ونقبض على المجهول ونحاكمه. لكن خمد بركان نبوي بسرعة على عكس ما توقعت، انطفأ بريق نظراته وانكسرت، لم يقل شيئًا مما في صدره، اكتفى بأنه كان نائمًا كل ليلة من الليالي الأربع، لا يعرف من دخل أو خرج مع أنه حارس ليلي. أعتني الحيلة وفشلت كما في المرة السابقة، لا أدلة على أن رمسيس خالف القانون، ولا قرينة حتى على أن أحدًا من الضباط قد ساعده على الهرب من الحبس والمبيت بالاستراحة.

اضطر رئيس النيابة للإفراج عن رمسيس في اليوم الرابع فوجدته أمامي، خفتت نظرة التحدي والابتسامة الصفراء أو ربما خيل لي ذلك، كل ما يشغلني معرفة السبب الذي دفع الضابط لتهديبه كل ليلة لكني لم أصل لإجابة بعد، وهو لن يتكلم، فحاولت الانشغال بعلمي.

تلقيت إشارة من مأمور المركز بوقوع حريق في بيت شخص يُدعى حلیم تادرس، في طريقي للمعاينة هاتفني ضابط المباحث مؤكداً أن الحريق عمدي، المفاجأة في أن النار أتت على البيت كله بمن فيه، مات حلیم وزوجته وأولاده الخمسة.

- والفاعل برضه مجهول يا حضرة المأمور؟

سألته باستنكار متوقعًا إجابته، ففاجأني بأنهم ضبطوا المتهم قبل هروبه من القرية واعترف بارتكاب الجريمة، دفعني الفضول لسؤاله عن اسم المتهم، فأكد توقعاتي هذه المرة قائلاً:

- عامل محارة اسمه ياسر الرشيدي من الجيزة لكنه حالياً عاطل.

طوال الطريق كنت منشغلاً بحوادث الفتنة الطائفية التي لا تريد أن تنتهي بهذه القرية الصغيرة، ما الذي يدفع مسلماً غريباً عن القرية مثل الرشيدي لحرق

عائلة قبطية بأكملها؟ مَنْ الذي حرّضه وملاً رأسه حتى ذاب عقله وصار دُمّية بين أيدي غيره؟ زفرت في ضيقٍ ولم أجد إجابة تُريح عقلي حتى ركبت سيارتي، ما إن جلست بمقعدي فيها حتى قلب نبوي الديب توقعاتي كلها فوق رأسي، أخبرني بما أثقل تفكيري وغير بوصلتي، عرفت أن المجني عليه حلّيم تادرس إسكندر هو شقيق رمسيس الأصغر. قبل أن تكتمل دهشتي ألقى نبوي قنبلته الثانية، ليُجهز على ما تبقى مني، حلّيم استأجر البيت أمس فقط من مالكه، وأول ليلة يبيت فيه مع أسرته هي الليلة التي مات خلالها.

- ومين صاحب البيت يا نبوي؟

- تاجر مواشي اسمه الحاج محمد حمدان.

أول ما طلبته من رئيس المباحث عند وصولي أن أرى المتهم، بدا الرشيد مستعداً للاعتراف بجريمته، تفحّصت جسده الممتلئ فلم أجد به آثار تعذيب، بدأت في سؤاله شفويًا مصطحبًا إياه معي أثناء المعاينة، تركته يشرح كيف سكب الكيروسين على مدخل البيت

وبالجهة الخلفية، ثم أشعل النيران وظل واقفاً كي يتأكد من مقتل صاحبه، سألته عن سبب الجريمة فأجابني بانفعال ممزوج بالمرارة:

- الكلب محمد حمدان سرق كلّيتي.

انتشرت الحكاية بالقرية فخيم عليها صمت مريب، لا الأقباط فرحوا بأن الجريمة لم تكن تستهدفهم، ولا المسلمون اهتموا برجلٍ غريبٍ يُصَفِّي حساباته مع آخر ينتمي لهم لكنه ترك بيته لقبطي ليموت بدلاً منه، تقبل الطرفان الأمر بصورةٍ أقرب للتعاادل السلبي في مباريات الكرة، كأننا على موعد مؤجّل مع جولةٍ أخرى، لكنني على الأقل نجحت في نزع الفتيل مؤقتًا.

ظلت أحقق أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة حتى لا تندلع في القرية نارٌ أخرى تأتي عليها كلها، لو انتشر خبر مقتل حلّيم تادرس على يد مسلم لن يتوقف نزيف الدم لأسابيع قادمة.

سمحت لبعض الأهالي المتجمهرين من الأقباط بحضور المعاينة، وقفوا على مسافة كافية يسمعون منها أقوال الرشيدي، وهو يحكي بمرارة شارحًا كيف أن حمدان اتفق معه على شراء كُليته مقابل عشرين ألفًا من الجنيهات، وبعدها تمت عملية النقل بأحد مستشفيات الجيزة تهرب منه حمدان وماطله، لم يُعطه سوى ألف جنيه فقط واختفى بعدها، فصمَّ الرشيدي على قتله، ولم يكن يعلم أنه قبل الحادث بيومٍ واحدٍ قد أجر بيته لحليم شقيق رمسيس، الذي ألحق أخاه بالعمل في شركة الكهرباء من الطايعة، فاستأجر بيتًا بها مع أسرته ومات قبل أن يرى نهار اليوم التالي.

أصدرتُ أمرًا بحبس ياسر الرشيدي أربعة أيام على ذمة التحقيقات. وسألت عن رمسيس كي أعزيه وأواسيه لوفاة شقيقه، أخبروني بانهياره أثناء مراسم العزاء بالكنيسة، خاصة وأن الجثث تفحمت وصُعب التعرف عليها بسهولة. أبلغني نبوي أن رمسيس كان يعتبر حليم بمثابة ابنه الأصغر، وله محبة خاصة عنده هو وأولاده، فرمسيس لم يتزوج.

قال آخرون إنهم شاهدوا رمسيس يُكلم نفسه بالكنيسة، بدا وكأنما مسّه الجن، وأقسم أحدهم إنه لأول مرة يراه غير مبتسم منذ أربعين عامًا.

بعد أسبوعين من وقوع الحادث وأثناء تواجدي بمكتبي دقت طرقتان على باب الحجر، ثم ظهر سكرتيري حاملاً طردًا كبيرًا، وضعه على مكتبي وهو يلتقط أنفاسه ربما جزاء صعوده السلالم بحمله، تفحصته بعيني فأجابني وهو يستعد للانصراف:

- وصل الصبح على مكتب البريد باسم سعادتك، ومُرسل من أسيوط من غير اسم الراسل ولا عنوانه، ومكتوب عليه من برة لا يُفتح إلا بمعرفة معاليك.

- استنى هنا.. افتحه إنت قدامي.

لا أعرف لماذا شعرت بقلقٍ من أن أفتح شيئًا بمفردي دونما شهود، ربما وظيفتي عوّدتني على فعل كل شيءٍ في النور، تجنبًا لشبهات لم نعد في حاجة إليها، بعدما

باتت تلاحقنا بغير حق في مجتمع صار يتربص بنا
أكثر من أي وقتٍ مضى.

فَضَّ سكرتيري الظرف الكبير وكلما نزع جزءًا من ورقه
الأبيض لاح اللون الزيتي أسفله، حتى اكتملت المفاجأة
بظهور دفتر حرف "ز" الناقص أمامي. فتحتة بلهفة،
تصفّحت بعض أوراقه، وجدت الكثير منها منزوعة من
مكانها، البيانات لا تُعطي دلالة على تسلسل الحيازات
الزراعية، قفز هو إلى ذهني أولاً، سألت سكرتيري عنه
فأجابني بتلقائية:

- رمسيس سافر، طلع أجازة من أسبوعين في بلدهم،
يستريح من اللي جرى له وياخذ عزا أخوه الصغير.

- وبلدهم دي فين؟

- أبوتيج.. أسيوط.

عُدت للاستراحة وكلمات رئيس النيابة ترن في أذني..
"أنت في حاجة لإجازة أكثر من أي وقت مضى"،

فكرت في النزول للقاهرة، خطيبتني ثلح عليّ في زيارة قصيرة لكنها باتت ثقيلة على قلبي، لا أريد السير للنهاية في هذا الطريق. دقّ جرس هاتفى المحمول فابتسمت، يبدو أنها مثل الشياطين تحضر بمجرد ذكر سيرتهم، هذه المرة كان صوتها باكيًا حزينًا، تريد أن تستمع لي أكثر ممّا تتكلم كعادتها.

علمت منها أن زوج شقيقتها تعرّض لأزمة كبيرة في عمله، أوقفوه عن العمل مؤقتًا، ثم أحالوه إلى لجنة لتقرر صلاحيته للعمل القضائي من عدمه بعدما أُلقت الرقابة الإدارية القبض عليه، لاتهامه بقبول رشوة من رجل أعمال للموافقة على تخصيص قطعة أرض له مع أنها مخصصة للشباب من أجل استصلاحها، أربعمائة فدان أهداها زوج شقيقتها بجرّة قلم لرجل الأعمال، نظير مليون جنيه وُضعت في حسابه البنكي فلم يستطع تبرير مصدرها.

وقع الحكاية لم يكن مفاجئًا لي، كنت أتوقع هذه النهاية المتأخرة. قطع صوتها المنتحب حاجز الصمت بيننا قائلة:

- اعمل حاجة يا نادر، كلم له أي مستشار زميلك، بلاش
يحبسوه ده ابن ناس ومش حايستحمل البهدلة، وقول
لنا مين أفضل محامي في الحالات دي.

- اهدي طيب دلوقتي وأنا حاتصل بيكي ثاني بعد
شوية.. ربنا يقدم الخير.

ليس لدي ما أقوله، لم تستقر حكاية خطيبي في
رأسي طويلاً، طردتها متعمداً متمنياً أن تنتهي على
خير فعلاً، خير للقضاء وحده ولا أحد آخر، فلا زلنا
قادرين على تطهير أنفسنا. ناديت نبوي في طريقي
للحديقة، قررت سؤاله عن الصليب الذي يدقه على
رسغه وعلاقته برمسيس وحكايته بالطبيعة، جال
بخاطري أن جلستنا الودية الثنائية هنا ستفك لسانه
وتفتح قلبه، خصوصاً وأنه يستريح لي في غياب
رمسيس، باغثه بسؤالٍ صريح:

- قول لي يا نبوي إنت مسلم والا مسيحي؟

- أنا ربي الزمن يا نادر بك.. هو اللي بيحييني وهو اللي حيموتني وياخد روحي فجأة.

أربكني رُدّه، جلست بوسط الحديقة وطلبت منه إعداد الشاي حتى أُعيد ترتيب أفكاري، ولّيت ظهري للاستراحة مستمتعا بتدخين سيجارة مُجهزا أسئلة أخرى في ذهني قبل إلقائها على مسامع نبوي، ممددا ساقي على مقعد منخفض في استرخاء، لمحت الكلب من بعيد يعدو ناحيتي لأفاجأ برمسيس يظهر فجأة من على يساري، وضع صينية الشاي أمامي مبتسما الابتسامة إياها وإن خفت كثيرا، بدت أقرب للمصطنعة منها للحقيقية التي كانت ملتصقة بوجهه طوال الوقت، شعرت أنه يحافظ على وجودها فقط. قبل سؤاله عن عودته المفاجئة، بادرني بقراءة ما في ذهني وكأنه مكتوب على جبهتي فقال:

- أصل اليومين دول معاد المولد في الطايعة وقلت يمكن تحصل مصايب والا حاجة، فرجعت من أسيوط جايز معاليك تحتاجني، إحنا برضه عشرة وأكلنا عيش وملح مع بعض.

أي مولد هذا والبلدة كلها عبارة عن مولد كبير منذ وصلتها! وربما هي كذلك منذ سنين طويلة ولا أمل في بارقة نور قريبة. هزرت رأسي بالموافقة على كلامه فليس لدي ما أقوله، عزيتته في شقيقه، لاحظت أنه ينظر إلي نظرة مختلفة، منكسرة، كمن يُبدي ندمًا على أمرٍ ما. لا أعرف لماذا يُباغتني رمسيس دائمًا بالضربة الأولى، لا يمكنني أبدًا توقع رد فعله، ربما غموضه هو الذي يدفعني دفعًا للسير وراءه، لعلني أعرف يومًا ما الذي يُخفيه عني.

من بعيد وقف نبوي الديب يراقب المدخل، بينما انسحب رمسيس نحو درج التراس المٌطل على الحديقة، جلس يُدخن سيجارة وهو ينظر للسماء شاردًا وبجواره كلبه يلهث، اقترب مني نبوي الديب هامسًا بأن رمسيس قد انكسر لما مات شقيقه الأصغر، وطلب أن أسامحه على مبيته بالاستراحة وقت حبسه، سكت لبرهة ثم قال بنبرة قلقة:

- إحنا عشانين في كرم سعادتك ورضاك عننا، أنا ماينفعش اتنقل مركز تاني، ولا رمسيس ينفع يسيب

الطابعية.. وإحنا خدامينك يا نادر باشا وحكمك سيف
على رقابينا.

- ولو سألتك حتقول الحقيقة يا نبوي؟

هزّ رأسه بالإيجاب بعدما التفت ناحية رمسيس أولاً،
الذي فاجأني بأنه أوماً له برأسه أيضاً، كأنه يسمعنا
بوضوح وموافق على ما نقول، تنهدت لأول مرة في
راحة، لكنني أجّلت سؤالهما إلى وقتٍ لاحق، شعرت
أنهما صادقان هذه المرة رغم سرعة تحول رمسيس
ولم أشأ أن أفسد صحة اعتقادي، ربما هزّه موت
شقيقه محروقاً بلا ذنب. قفزت لرأسي فكرة أخرى،
لماذا لا يكون هو الذي حرّض على حرق علوان وقتله
فاكتوى بناره هذه المرة؟ أعلم أنني لن أجد إجابة أبداً،
فكلنا فرائس للظنون وضحايا للإشاعات حتى ونحن
نكتوي بنار الحقيقة.

ذهبت لغرفتي، ارتديت ملابس خفيفة، لمحت
مسدسي الفارغ فأخذته معي، استدعيت سائق

المحكمة وركبت بجواره، ناديت رمسيس ونبوي وأنا
 قُرب البوابة قائلاً لهما بنبرةِ آمرة لا تقبل اعتذارات:
 - اركبوا معايا.. أنا عاوز أنزل البلد أتفرج على المولد.



19

تابعتهم من نافذة البيت، تفرقوا جماعات باتجاه السوق والعزبة القبلية والمعهد الأزهري، ابتعدت أقدام صمويل ورجاله حتى خفتت بينما علت دقات قلبي، قررت العودة لبيتي، صممت فريال زوجة صمويل على الذهاب معي، ما إن غادرنا بيتها حتى وجدنا جماعة من الشنية يقطعون الطريق المؤدي لبيتي بثلاث عربات صغيرة "توك توك"، كان أحدهم ممسكًا بسيف رفيع مطوحًا به في الهواء بعصبية، حذرنا من التقدم خطوة واحدة وإلا ذبحنا، سبته فريال بأنه جبان لا يقدر إلا على الحریم، اقترب الرجل منّا وعيناه تشيان بأنه قد نوى على الشر لنهايته، في تلك اللحظة زمجر توك توك آخر من خلفنا ودار حولنا نصف دورة ليستقر أمامنا، يقوده صبي صغير صاح بصوت عالٍ:

- اركبي يا أبله هدى بسرعة!

لم نتردد لحظة، طار بنا التوك توك بعدما قفزنا فيه، من ورائنا كان الرجل يجري بأقصى سرعة للحاق بنا،

لكن الصبي الذي يقود التوك توك انعطف في حوارٍ ضيقةٍ وهو يصيح فينا لتتشبت جيدًا بمقاعدنا، اصطدم عمدًا بأقفاص دجاج متراصة فوق بعضها، ربما كانت نائمة، طارت في وجه من يُطاردنا وأفزعته وهي تُنقنق بشدة، أطلق نفير التوك توك عدة مرات كأنها إشارة مُتفق عليها، بعدها أَلقت بعض النسوة مياهاً كثيرة فوق رأس الرجل الذي لم يبأس بعد من الهرولة خلفنا، تبدو الأرض زلقة، فقد لمحته وهو يسقط فجأة على ظهره أثناء عدوه، بينما لسانه لم يتوقف عن ملاحقتنا بالسباب.

ابتعدنا عن الخطر مؤقتًا، لكن الصبي الذي يقود التوك توك بدا متوترًا. همستُ لزوجتي صمويل سائلة إياها عن أمه وبيته، هزّت رأسها بأنها لا تعرفه، هممت بسؤاله عن أهله لكنه راح يجوس بنا في حارات مظلمة، لم نكن ندري أن في أحد منعطفاتها يكمن سيّافٌ مُتلحِّفًا بالعتمة، فلم نلمح سوى نصل سيفه اللامع وهو يخترق جدار التوك توك الجلدي، لتصرخ فريال من الألم وهي تُمسك بجانبها والدماء تندفع منه.

عرج بنا الصبي ناحية الزراعات وهو يسألنا عن الجهة التي نريد أن نذهب إليها، طلبت منه التوجّه للكنيسة كي نسعف فريال، أوماً بالإيجاب وانطلق، فوجئنا برجال يهرولون بالقرب منّا ونجحوا في استيقافنا، لكنهم ما إن تفرسوا في وجه الصبي حتى ارتاحت قساماتهم، فسألهم ببراءة عمّا يدور بالقريّة، أخبروه أن بعض الأقباط حطموا كل العربات الخشبية لبيع الأقمشة والبضائع بسوق المسلمين وأحرقوا محلات أخرى مجاورة لها، أجابهم بثقة:

- ربنا معاكم يا رجالة، أنا معايا حريم منهم واحدة متصابة بسنجة ولازم نلحقها.

دارينا وجهينا بطرحتينا، خفنا أن يعلموا أننا ذاهبون للكنيسة، مالت فريال برأسها على كتفي وهي تئن، لكن الصبي الذكي سبّ لهم دين الأقباط الذين أصابوها فاطمأنوا لنا أكثر ودلّونا على طريق المستوصف. لما ابتعدنا عنهم بقليل اعتذر لنا الفتى عمّا قاله وهو يلتفت لنا بخجلٍ شديد:

- أنا آسف يا أبله هدى.. ربنا يسامحني كنت مضطر
اعمل كده.

رَبِّتْ كتفه برفق فابتسم في طفولة، شعرت لوهلة أنني
رأيتَه من قبل لكن ذاكرتي لا تُسعفني في تلك العتمة،
اقتربنا من الكنيسة ووجدنا حصارًا من عربات نصف
نقل قبلها بخمسمائة متر تقريبًا، صرخت فيه قائلة:

- ادخل على الكنيسة يا وله ما تخافش.

أجابني بلعثة أن العربات لمسلمين ولو استوقفونا
سيقتلوننا هذه المرة فزادنا خوفًا، دار بالتوك توك دورة
واسعة فانزلق بالغيط الملاصق للطريق لَمَّا فقد
سيطرته عليه. استمر يقطع الطريق بسرعة فائقة حتى
دخل ناحية المساكن غرب السوق، على يسارنا رأينا
بيوتًا تشتعل بالنيران، ثم اقتربت منّا عربة بمُكبر
صوت تُحذِّر الأقباط بضرورة ترك بيوتهم لأن
المسلمين يحرقونها.

انتابتنا حالة فزع. لا تزال فريال تنزف، تتعرق بشدة،
تئن بصوت عالٍ، بينما ترتعش ساقي بصورة غريبة لا
أملك أي سيطرة عليها، شاهدنا ملثمين يحملون
مصاييح، يرسمون صلبانًا بطلاءٍ داكنٍ على أبواب
بيوت كثيرة تخص أقباطًا، ليأتي من بعدهم من يُشعل
فيها النار. صوت إطلاق الأعيرة النارية ظلّ مُصاحبًا لنا
بغير توقُّف، أشار لنا الصبي على بيوت أقباط يقف
فوق أسطحها أشخاص مُسلَّحون يُطلقون النيران
بعشوائية على الجانب الآخر حيث بيوت المسلمين،
لكننا لا نراهم من مكاننا بوضوح ومن المؤكد سقوط
قتلى ومصايين منهم مثلنا. استغثت بالعدرا عدة مرات
وأنا أبكي صامتة.

لمحت من بعيد الشيخ رجب يقود عشرات الأهالي
ويهدف فيهم ليحرقوا من يُقابلهم، ثم وقعنا في كمين
أعدّه مسلمون متترسون خلف عربات خشبية مقلوبة
فباغتونا، بدا الجمع شرسًا من هيئة رجاله وعتادهم،
هتفوا الله أكبر عدة مرات رافعين أذرعهم بالشوم
مطالبين بأن نتوقف.

هدأ الصبي من السرعة ليطمئنهم وهو يرفع لهم كفه
من التوك توك هاتفاً:

- صلوا على النبي يا رجاله..

ظنوا أنه امثل فتراخوا وقد علت همهماتهم، لكنه كان
يستعد للدوران، ثم ابتعد بأقصى سرعة، ما إن انطلق
بمسافة كافية حتى دوى صفير رصاصة مرقت بجوار
آذاننا فصرخنا. استمر التوك توك في السير، لكننا
فوجئنا بالصبي منكفئاً على مقوده ولا ينطق، اندفع
متعرجاً لمسافة طويلة ثم سقط في ترعة صغيرة،
والصبي ينزف بغزارة من فمه وظهره، وجهه مبتسم
في هدوء لكنه لم يمُت بعد.

حملته وخرجت به من الترعة، وضعتة ممدداً على
السكة الترابية، بعدما أحاط بنا جمهرة من فلاحي
القرية من أهلنا، أخرجوا فريال بسرعة، أحدهم أطلق
عدة أعيرة تجاه أفراد الكمين الذي تسبب في سقوطنا
بالترعة ليبتعدوا عنا. ارتحت لرؤية من أعرفهم من
جيراني الأقباط، سألتهم عن أهل الصبي الصغير وأنا

أطلب منهم نقله للمستشفى لإسعافه مع فريال التي فقدت وعيها هي الأخرى، قالوا إنهم لا يعرفونه لكنه يُشبه ابن عريان الحلاق.

حملوهما لمستشفى المركز في عربة نصف نقل، وسرت أنا مع آخرين مسلحين عبر الغيطان في طريقنا للكنيسة الكبرى لنحتمي بها بعدما طمانوني أنهم نقلوا رِزق إليها. على ضوء المصابيح القوية شاهدت جثثًا محترقة إلا قليلًا بالحقول التي مررنا بها، اقتربنا من بعضها نحاول التعرف عليها، على رسغ كل منها دُق صليب، إحداها لنجيب صمويل وقد فقأوا إحدى عينيه ففزعت، تردد صوته بعبارات التهديد الأخيرة في أذني، جذبوني من يدي لئنصرف وأنا شبه ذاهلة.

انتابتنى مشاعر متباينة، ماذا فعل بقية رجال صمويل إذن، خسائرنا تدل على سير المعركة لصالحهم. تسرّبت خيوط النور فوقنا ونحن نسير صامتين مُطرقين كأننا في جنازة، هدأت الأعيرة النارية وظهرت مدرعات الشرطة وهي تجوب المدينة، الكردون الأمني يكبر كلما اقتربنا من مربع الكنائس، بالداخل وجدت غالبية

أقباط القرية في انتظار كلمة راعي الكنيسة أبينا إسطفانوس.. بحثت عن رزق بين الصفوف حتى وجدته قرب نهايتها وحيدًا.

ظهر أبونا إسطفانوس بعد ساعتين ونصف الساعة مكفهرًا، الغضب يسود ملامحه ويكاد يطمسها تحته، أمسك بيد رزق الجالس على كرسيه المتحرك بجواري، شعرت لأول مرة منذ مرضه أنه يضغط على يدي برفق، التفث إليه فوجدته يحاول الابتسام لكنه لا يقدر، دمعت عيني وقبّلت باطن كفه، مسح دموعي وهو يُرَبِّت رأسي بوهن.

أمسك أبونا بالميكروفون ليهدئ الجموع الغاضبة، قال كلامًا كثيرًا عمّا حدث، ثم بشّرنا بأن سيدنا في طريقه لزيارتنا اليوم أو غدًا ليطمئن علينا فهلّلت الجموع، ثم أعلن عن فتح سائر الكنائس الثلاث المغلقة منذ فترة، فقبول قراره بتصفيق متواصل لدقائق، علمنا أن القتل في هذه الليلة بلغوا عشرين قتيلاً، منهم تسعة عشر قبطيًا، أخبرنا أبونا أن المسلم الوحيد الذي مات قتله المسلمون بالخطأ، تاجر من قرية أخرى رفض التوقف

بسيارته في كمين مثل الذي قابلناه، حاول الهرب منهم ظنًا أنهم أقباط فاختبأ بيت قبطي شريكه في التجارة، فتح له داره ليحميه، فأطلقوا عليه النار وأردوه قتيلاً معه، ثم حرقوه مع أهل البيت اعتقادًا منهم أنه قبطي مثلهم. هنا ارتفعت الهمهمات بشدة.

بدت الكنيسة كلها غاضبة وحزينة في آنٍ واحد، الجميع يتشح بالسواد ما عدا أنا، حتى الصليب أعلاها علّقوا به قماشًا أسود، رأيتُه وأنا داخلة يرفرف في غضب، حكاية القبطي الذي أوى مسلمًا ومات معه دفعت بعضنا لحكي قصص مؤثرة عن مسلمين أنقذوهم لَمَّا علّقوا بأسطح بيوتهم، فأتوا لهم بسُلّم خشبي لينزلوهم، وآخرون رووا كيف أن مسلمين آووهم بديارهم وقت الضرب لينقذوهم من الهلاك، لكنّ أبانا إسطفانوس لم يُعْطهم الفرصة ليسترسلوا في تلك الحكايات وقطم حديثهم، فرووها في أحاديث جانبية بالتفصيل.

سمعت كثيرًا عن رمسيس وكيف كان يتحرك كالمكوك بالقرية ليُساهم في إطفاء النيران وإنقاذ المصابين

ونقل القتلى للكنيسة. عاد أبونا إسطفانوس يشرح كيف بلغت الخسائر المادية مئات الألوف، أما المعنوية فلا تُقدَّر بثمن، عشرات المحلات أُحرقت وحُطِّمت، البيوت نُهبت وشبَّت في أثارها النيران، أسرٌ كثيرة حُرمت من عائلها وأولادها، لا زال أبونا يتكلم، صوته متحشرج، آهات المصابين والناجين تُقاطعه وهي مجروحة من القلب، جثامين بعض الضحايا توضع كل فترة في صناديق خشبية أمامه، ابتلع ريقه ثم اختتم كلماته قائلاً بغضب:

- شكراً يا مسلمين! أنا عارف إنكم بتسمعونني دلوقتي من بزّه الكنيسة، وعارف كويس مين اللي بينقل لكم كلامنا.. شكراً يا مَنْ كان أجدادكم أقباطاً مسيحيين، وبتعصبكم تريدون أن نصدق ما يقولونه عنكم، أن دينكم هو الذي يُحرضكم على كراهيتنا وسفك دمائنا، دينكم الذي اعتنقه بعض آبائكم لأنهم فقط لم يستطيعوا دفع الجزية وقتها، لكننا لن نُصدق ما يُقال عنكم، مع أننا ندفع أرواحنا ثمناً لتعنتكم وتعصّبكم، سنسامحكم كما أمرنا يسوع، نسامح لأنكم إخوتنا ..

تحشرج صوته بعدها فسكت ليمسح دموعًا سالت
بغزارة، ثم قال بصوتٍ مُنتحب:

- إنما ربنا شايف وسامع ولو سكت كل المسئولين في
مصر فلن يسكت الرب.

ضجّت الكنيسة بالتصفيق المختلط بالبكاء والعيويل،
لمحّت من بعيدِ الرجلين اللذين ذهبا بالصبي الصغير
سائق التوك توك وزوجة صمويل للمستشفى، اقتربت
منهما وسألتهما عنهما بلهفةٍ وقلق، التفت لي أحدهما
قائلًا بصوتٍ خفيض:

- الواد مات أول ما وصلنا المستشفى وأهله أخذوه
يصلوا عليه.. والولية مرات صمويل عايشة وجرحها
بسيط.

انحدرت دموعي رغماً عني، دعوت له بالرحمة وأن
يُعزّي ربنا أهله، لتصعد روحه للسماء في سلام، عدت
أسأل الرجل عن أم هذا الفتى لنواسيها وتُعينها

الكنيسة على مصروفات الحياة بعدما فقدت ابنها، لوى شفتيه وهو يقول:

- اسمه حمادة إسلام.. ابن الست بهية اللي ساكنة بعد بيتك بتلات بيوت.

ظَلَّلْتَنِي سحابة حزن وطفح الغضب من حلقي، خطفت الميكروفون من الشَّمَّاس الذي يدور به على المتحدثين، حكيت حكاية الصبي الصغير معي، بعدما انتهيت علا صوت جارنا مُريد دُميان وهو يحكي أن ابنه الوحيد ميلاد اختفى، ظنَّ أنه خُطف وقتلوه، فأبلغ القس توماس راعي الكنيسة ليُعاونه لكنه طلب منه الدعاء والصبر، حتى هاتفه جاره محمود وطمأنه عليه ومكَّنه من محادثته بعدما عثر عليه مُصابًا بشجِّ في رأسه ومُلَقَى بالغيطان. بكت منال ظريف وهي تروي كيف اقتحم مجهولون مسكنها، قتلوا زوجها واقتادوها وصغارها إلى خارج المسكن وتصادف مرور جارها أبو القاسم فتدخَّل لحمايتها وحال دون الجناة وإياها، واصطحبها إلى مسكن ذويه حيث مكثت آمنة مكفولة برعايتهم.

كبرت دهشتي لما سمعت عاطف بلامون المعروف بتعصُّبه يقول وهو مُطرق بصوتٍ خفيضٍ إن كرات النار سقطت على بيته وحرقتة فلم يتمكن من الخروج فاستنجد بإسماعيل ابن جاره، الذي وضع له سُلماً خشبياً ليهبط عليه مع أسرته ثم اصطحبهم للكنيسة في حماية عمّه المُسلَّح.

لم أتمالك نفسي، علا صوتي من بعيد لَمَّا رفضوا منحي الكلمة مرة ثانية وأنا أنظر إلى أبينا الواقف قرب المذبح قائلة:

- بقوا اتنين مسلمين مقتولين بالغلط يا أبونا، حتفضلوا ساكتين لغاية إمتي؟ اللي ماتوا كانوا بيحبونا وأنت رافض تسمع حكاويهم وعاوزنا نعادي اللي ساعدونا ونسامح اللي قتلونا، ما ربنا برضه سامع وشايف كلام الناس الطيبة دي، لغاية إمتي حتفضل نقول إحنا وهُمَّا؟ ما كفاية بقي.. سيبونا نعيش.. أنا جيت هنا علشان أعيش وبس.

نظر إليّ الأب إسطفانوس بغضبٍ وأشار لأحد مساعديه، ثم انصرف وسط همهمات عالية لم أعرف أهي ثناصرتني أم ضدي. بعد لحظات وجدت مَنْ يقترب مني بهدوء ويدعوني للقاء أينا في غرفته، لمّا دخلت عليه كان بصحبته مطارئة وآباء آخرون وشمّاسون، فأثرت الصمت، رماني بنظرةٍ قاسيةٍ وهو يجلدني بكلماته توبيخًا على مقاطعته، قال كلامًا كثيرًا عن التسامح، بعدها التفت نحوي غاضبًا ثم أخبر الجميع أن الكنيسة فرّقت بيني وبين رزق لكوني خاطية، زانية، كاذبة، كافرة، ثم طلب مني المغادرة فورًا وعدم دخول الكنيسة مرة ثانية إلا بإذن منه شخصيًا.

طلبت الصفح واعتذرت عن صوتي العالي أثناء كلامه، لكنه أشاح عني منتظرًا خروجي، رجوته أن يوقع عليّ أي عقوبة إلا أن يفرقني عن رزق، جال بعينيه بين الواقفين حوله فظلوا تماثيل، عُدت أرجوه أن يؤجّل قراره حتى تهدأ الأمور وننتهي من المصيبة التي نحن

فيها جميعًا الآن، لكنه بعدما تلقى الصمت جوابًا ممَّن حوله، قال بهدوءٍ مَنْ يُلقي درسًا من دروس الآحاد:

- الكنيسة هي التي تمنح سر الزيجة، والزواج التصاق لا يُفرقه إلا الزنا، وأنتِ زانية وخرجتي من الملة بزواجك من مسلم، الكنيسة تمثل الله على الأرض وهي مَنْ تمنح وتمنع، وأنا بحكم سُلطتي أمنعك من استمرار زواجك برزق، واعرفي إننا وافقنا بمنحه تصريح زواج جديد لو أراد أن يتزوج، إنما إنتي محرومة من الزواج للأبد.

لطمت صارخة:

- تاني وتالت حاقولك وأنا ذنبي إيه يا أبونا؟ أنا كنت مُجبرة واعترفت بخطيتي ومش عاوزه أتجوز حد تاني غير رزق وما أظنش إنه عاوز يسبيني، أنا كنت مجبرة على الجواز من خضر ومعرفتش أتطلق منه، واتجوزت رزق وكنت فاهمة إن خضر ميت، والمسيح الحي افتكرته مات، ليه بتحمّلي مسؤولية على حاجة أنا ماليش ذنب فيها؟

هنا اقترب مني أحد القساوسة، جذبني من يدي بعيدًا
عن الجميع وقال لي بصوت خفيض:

- شوفي يا ست هدى، لو جوزك غِط ومديره في
الشغل زَعَق له، ورجع البيت متضايق وزَعَق فيكي
وانتي زعلتي منه وزعلتي في بنتك، وبنتك طلّعت
غضبها كله على قطتها وضربتها فماتت منها، يبقى
مين فيكم اللي قتل القطّة؟



20

سرنا بمحاذاة الجسر ثم انعطفنا إلى أقصى اليمين
لكني لم أجد ريفًا. المكان يعج بالبشر كيوم الحشر،
الوجوه تتسوّل الفرحة، تُقاوم الحزن والفقر، تتلمّس
السعادة في جلاباب بسيط مُزركش، تبحث عن بهجة
مُفتقدة استقرّت بقاع النفس وصعب عليهم استعادتها
بسهولة. على يسارنا نُصبت أرجوحات ثنائية ملونة
تُشبه المراكب، يتصايح الصبية وهم يتمايلون بها،
بعضهم يُكمل دورة تامة، تابعتهم حابسًا أنفاسي ثم
أظهرت إعجابي بهم.

دوي بنادق الرش الخفيفة يتلاشى أمام صيحات
الفرحة عند الفوز بلعبة بلاستيكية بعد إصابة الهدف،
مئات الباعة الجائلين ينادون على بضائعهم، لم أفهم
حرفًا ممّا يقولونه، غالبيتها طيور كثيرة متنوعة،
مربوطة من سيقانها ببعضها، تتحرك في سنتيمترات
قليلة فوق أقفاص جريد متهاكة، تهز رؤوسها في
حركة روتينية لا تتوقف مع نداء أصحابها، وكأنها تُعلن
موافقتها على بيعها ثم ذبحها.

لمحت بيوتًا كثيرة غالبيتها بالطوب الأحمر، السكك
الترايبية تفصل بينها خطوط صفراء منحولة لا تسرُّ
الناظرين، تظهر على استحياء مُعلنة عن موت نباتات..
عمران قبيح يزحف نحو خضرة ناضرة، يُحاصرها قبل
أن ينقضَّ عليها، وهي تُنازع، تُقاوم، تتزحزح ببطءٍ
تحت وطأة الغابة الأسمنتية، تذبل، تجف، تبور،
لتتماهى الخطوط الفاصلة بين اللونين الأخضر
والرمادي، يغلب اللون الأخير ويتصدَّر الصورة. ترتفع
المباني لثنافس النخيل، لكنها لا تتمايل طربًا مثلها مع
نسائم الهواء إنما تكاد تخنقنا من فرط حصارها لنا.

التفتُ لرمسيس مؤنبًا إيَّاه ومُذكِّرًا بأنني طلبت منه
منذ نصف الساعة رؤية ريف حقيقي إلى جانب المولد،
ظهرت ابتسامته الصفراء على الفور وهو يجيبني:

- ما هي دي الفلاحين وبيوتهم وحياتهم يا باشا، البلد
كلها بقت كده إلا الناحية اللي فيها استراحة معاليك،
أما فلاحين زمان تلاقِيهم في الروايات اللي سعادتك
أخذتهم من المكتبة.

من بعيد بدا أمامنا برج كنيسة عاليًا، سألت رمسيس عنها لكن نبوي تبرّع بالجواب قائلاً:

- دي كنيسة خاتم المرسلين يا باشا.

رمقه رمسيس بنظرة حادّة غاضبة، لم أتمالك نفسي وضحكت بصوت عالٍ، أفهمني رمسيس أنها كنيسة النور، لكن الشارع يحمل اسم خاتم المرسلين، فأطلق أهل البلدة من المسلمين على الكنيسة الاسم ذاته تسهيلًا للوصول إليها، ولم يفلح الأقباط في محوه من على ألسنتهم. على يسارنا "صوان" كبير في نهايته وُضعت منضدة خشبية عريضة، تراصّت فوقها لعب إسفنجية زاهية، شباب وفتيات يقفون أمامها في انتظار دورهم لرمي الأطواق عليها، ومَن يفلح في تطويق إحداها فإنه يفوز بها.

شعرت بالطفل الذي بداخلي يستيقظ، يفرك ساقيه ويتمطّع ليقفز بعيدًا عن متناول عقلي الذي تراخى متعمدًا في اللحاق به، نحيت قيود الوظيفة جانبًا

وسرت وراءه مغمضًا. لعبت وربحت من أول رمية لكني خسرت الثانية.

تخلّى نبوي عن اضطرابه وحذره معًا، تركهما وراء ظهره مع كوفيته التي كانت تُخفي وجهه، راح يُصَفِّق وهو يُتابعني بلهفة، أعطيته ثلاثة أطواق ليجرّب حظه فلم يتردد، يده الممدودة سبقت دهشتنا من تصرّفه التلقائي. خابت كل رمياته حتى إن الثالثة اصطدمت بوجه المسئول عن إدارة اللعبة بقوة، فأثارت ضحكات الواقفين من حولنا.

كنت في حالة تركيز شديدة وأنا أستعد لجولة جديدة، أهديت نبوي هديتي الأولى التي طوّقتها، واعدًا رمسيس بأنه سيحصل على اللعبة الثانية إذا ما فُزت بها. لمحت نظرة لوم في عينيه وهو يتلفّت بحذر حوله ويخُتني على الإسراع، من المؤكد أن بعض الأهالي تعرّفوا علينا، ورمسيس شخص غير اجتماعي بطبيعته فتضايق من الجموع المتلصّصة، لاحظت أيضًا أن صاحب الصّوان لم يعد يسمح لغيري بمشاركتي.

وقف الناس على بُعد خطوات خلفي يرقبون المشهد
ويشجعونني وأنا ألهو وحدي، حيّوني بالتصفيق عاليًا
لما فزت، حفّزوني على الاستمرار بعد الجولة الثالثة،
تردّدت، قرأت دهشة على ملامح بعضهم لكن قسمات
وجوههم مرتاحة، رأيت نظرة طيبة تطل من عيونهم،
ربما شعروا بأنني مثلهم لا مثل الآخرين الذين
يخيفونهم ويأتون بهم لي مكبلين بالقيود.

مال رمسيس على أذني هامسًا بأن أي مولد أغرابه
أكثر من أصحابه، أسرّ إليّ بخوفه على نبوي ثم اختتم
قائلًا:

- الراصد غالب.. واحنا كده مكشوفين يا نادر بك
ونبوي عليه تار.

أمسك عقلي بتلابيب طفلي وحبسه بداخلي مرة
ثانية. عُدنا إلى حيث ينتظرنا السائق، طوال الطريق
أشعر براحة حقيقية، تخفّفت من هموم كثيرة فأسندت
رأسي للوراء قليلًا، غفوت حتى وصلنا إلى الاستراحة،
أخذت حمامًا دافئًا وجلست في فراشي أقرأ، تشاءبت

بعد نصف الساعة، فكرت في الاتصال بخطيبتني لمعرفة تطورات الأمور مع عديلي المستقبلي، لكنني قبل الإمساك بالهاتف سمعت أعييرة نارية متلاحقة تُطلق بكثافة، أسمعها بوضوح آتية من ناحية الحديقة.

هرولت حافيًا للطابق السفلي بملابس النوم، وجدت رمسيس يختبئ خلف الأريكة الكبيرة بعدما دفعها نحو الباب ليحول دون فتحه من الخارج، الرصاص يتطاير كالمطر، يُحطم النوافذ، يخترق باب الاستراحة ونوافذ الشرفة ليستقر في الجدران وأحيانًا يرتد بعشوائية. علا صوت رمسيس وهو ينبهني لأنبطح بسرعة، ففعلت بلا تفكير، زحفت على بطني حتى اقتربت منه، أشار ناحية نبوي الديب المتستر بالحائط ممسكًا ببندقيته وينظر إلى السقف في ذهول، عيناه دامعتان وشفتهاه تتمتمان في سرعة بما لا نسمعه، استنتج رمسيس أن طالبي ثأر نبوي عرفوا مكانه وتتبعونا من المولد، ولما شعر نبوي بهم ولمحهم بالحديقة لاذ بالفرار ليختبئ عندي، ولحقه رمسيس كي لا يقتلوه بالخطأ.

سكتت الأعيرة النارية لبرهة، يبدو أنهم يُبدّلون أمشاط
 الأسلحة الآلية التي يُطلقون منها كل هذا الواابل، أشار
 رمسيس لنبوي على يده ليريهم كفه المدقوق أسفله
 الصليب فرفض بإصرار، طلبنا منه ألا يتحرك أو يتكلم
 حتى لا يعرفوا مكانه، راح رمسيس يزحف نحو الهاتف
 الأرضي ليتصل بالمركز، هتف نبوي بصوتٍ مُتَحَشِرِجٍ
 وهو ينظر لي نظرة متوسلة:

- وحياة حبيبك النبي يا باشا تُضْرَبُ عليهم بطبنجتك..
 لو عرفوا إن ماعندناش سلاح حيفربلونا.

انفعلت وتوترت أكثر، شعوري باقتراب الموت منّا
 وحصاره لنا وعجزي عن الدفاع عن نبوي يكاد يفتك
 بما تبقى من أعصابي.

هَمَّ نبوي بالاقتراب ناحيتي، أمرته بعصية بألا يتحرك
 من مكمنه، ثم أضفت بنبرةٍ حرصت على التماسك فيها
 لأطمئنه:

- طبنجتني فوق في الأوضة يا نبوي ما تتحركش أنا حاجيبها.. حنتصرف ما تخافش.

نجح رمسيس في الوصول للهاتف واتصل بالمركز، لكن الخوف دفع نبوي للهرولة نحو السلم لإحضار طبنجتني بدلاً مني، ما إن تحرك بضع خطوات من مكمته حتى انهمر سيل الطلقات عبر الضلقات الخشبية التي تحمي نافذة التراس، تطايرت قطع الخشب الخضراء صغيرة في الهواء، انتفض جسد نبوي الديب الضخم ثلاث مرات، أطلق صراخاً عاليًا، اندفعت نوافير الدم منه ثم ترنح، سقط وسط الصالة فوق منضدة زجاجية فهشمها مُحدثًا ضوضاء هائلة مثل جبلٍ انهار فجأة ثم سكت الضرب بعدها.

جثوت على ركبتي، شاهدت مُلثمين يفرّون باتجاه الغرب والكلب ينبح مهرولاً خلفهم، نهضت بصعوبة وأطرافي ترتعش، اقتربت مذهولاً من نبوي الذي ينزف من صدره وفمه وساقه، لا يزال ممسكًا ببندقيته، باليد ذاتها التي تحمل صليبًا مدقوقًا على رسغها، نظر إليّ نظرة عتاب قصيرة، مال رأسه على كتفه وأغمض

عينيه، ثم تحجرت قبضته فوق ماسورة البندقية
بعدها نطق الشهادتين بصعوبة.



21

التقطت أذني بضع كلمات قانونية باللغة الإنجليزية، أمرت السائق بالإبقاء على محطة الراديو قبل أن تمتد يده لتغييرها، اعتدلت في جلستي ورحت أنصت لكلام الضيف باهتمام، فهمت بعد قليل أنه اللورد الشهير "نورمان بيركيت" عضو مجلس العموم البريطاني وهو محامٌ قدير أيضًا حسبما قرأت عنه، كان حوارًا مُعادًا فالرجل مات منذ نصف قرن. سأله مذيع هيئة الإذاعة البريطانية باحترامٍ شديدٍ عن عدد القضايا التي كسبها طوال حياته، فأجابه بنبرة واثقة:

- أخشى أن أبدو مغرورًا، لكن من السهل عليّ تذكر القضايا التي خسرتها فهي ثلاث فقط على مدار عمري المهني.

تنحى المذيع ثم قال:

- هل كنت تعتقد أن موكلك بريء دائمًا؟

تخيَّلت اللورد بيركيت يضع ساقًا فوق أخرى ليُداري ارتبَاكه وهو يرد:

- الحقيقة أنني حصلت على البراءة أحيانًا لأشخاص مذنبين بالفعل.

شعرت بنبرة انتصار في صوت المذيع وهو يُباغته بسؤالٍ تالٍ:

- إذن كنت تستخدم حيلةً قانونية في سبيل الوصول إلى براءة مَنْ لا يستحق؟

تغيَّرت نبرة اللورد الإنجليزي بعد برهة صمت وهو يُجيب في جدية بالغة:

- لا أحب استخدام كلمة حيلة قانونية وأفضّل أن يكون سؤالك كالتالي: "هل تقبل المرور عبر الثغرات في نطاق القواعد القانونية والموروثات الثقافية والاجتماعية وما قد يؤثر في الرأي العام لكي تحصل على البراءة؟"، وفي هذه الحالة ستكون إجابتي: نعم.

كدت أرى خجل المذيع وهو يقول للورد بيركيت:

- لكنك بالتأكيد تشعر ببعض الندم على مساعدة المذنبين، أليس كذلك؟

عَلَّت ضحكة استنكار بسيطة ثم أجابه اللورد بثقة:

- قطعًا لا أشعر بأي ندم.. أنا أمرُّ من ثغراتٍ تركها المسؤولون عمدًا أو سهوًا، ولا يُمكن أن تُحاسبني على ذكائي بينما تكافئ الآخريين على غيابهم بترك قواعد قانونية جامدة وأفكار بالية كما هي دون تجديد.

زفَرتُ في ضيقٍ ثم طلبت من السائق إغلاق الراديو، انحرفت عربة المحكمة بنا إلى أقصى اليسار ثم اتخذت الطريق السريع إلى القاهرة في إجازة قصيرة لإراحة أعصابي بعدما مات نبوي الديب. لا يمكنك مساعدة أحد على الحياة إذا فشلت في اختيار القصة المناسبة لإقناعه بها.. أما أنا ففشلت في مساعدة نبوي رغم اقتناعه بقصتي، لكني فيما يبدو اخترت قصة أودت بحياته، عندما اطمأنَّ إلى حمايتي بطبنجة

فارغة من الرصاص، أنا خدعته ولا أحد غيري مسئول
عن مقتله.

ثلاثة أسابيع مرّت عليّ، لا أستطيع أن أسامح نفسي
على ذنب نبوي الذي تعلّق برقبتي، حتى القصاص لم
نفلح فيه، فالفاعل بات مجهولاً كالعادة، وكل ما قيل
لي عن القضاء والقدر وأن العمر واحد والأجل معلوم
لم يُغير في قناعاتي شيئاً، سمعت الكلام بأذن
وأخرجته من الثانية، بحثت عن أهل نبوي لأتكفل بهم،
فلم أجد له زوجة ولا ولدًا، مات نبوي كما عاش..
وحيدًا، غريبًا، خائفًا.. وفي النهاية مخدوعًا في قدرتي
على حمايته.

- الله يسهل لك يا بني..

قلتها لصبي يشحذ بإلحاح ثم أغلقت النافذة، جلست
شاردًا أمام عجلة القيادة بسيارة المرحوم أبي،
الشيفروليه السوداء القديمة، أقود بالفطرة مثلما
علّمني القيادة، لكني لا أرى معالم الطريق جيدًا،

أطياف مهزوزة تمر أمام عيني، خطيبتني بجواري لا تتوقف عن البكاء في صمت طوال طريق العودة من دار القضاء العالي، شقيقتها تجلس بالأريكة الخلفية شبه منتحبة حتى علا صوتها فأخرجتني من شرودي.

جلسة اليوم كانت أولى جلسات محاكمة عديلي المستقبلي إذا ما مضيت في طريق الزواج لنهايته، حضر معه ثلاثة من أكبر المحامين بمصر، نادى الحاجب "محكمة" ووقفنا ثم جلسنا، راح القاضي يُنادي على المتهمين ويواجههم بتهمهم، رأيت زوج أخت خطيبتني مرتديًا ملابس السجن البيضاء، واقفًا وراء القضبان بقفص المجرمين، ربما من حوله ممن ضبطهم متلبسين بجرائم إبان عمله كضابط شرطة، وربما غيرهم ممن حقق معهم أثناء عمله بالنيابة العامة، الآن يقف بينهم، لدهشتي يبدو واحدًا منهم، يُشبههم، يُردّد عباراتهم نفسها، ينفي التهمة وهو يُقسم بأغلظ الأيمان على براءته، يتحرك بالقفص في توتر مثلهم، عيناه زائغتان وشفثاه ترتجفان، أصابع يده ترتعش، وقفته مرتبكة عصبية، كلماته مندفعة، كلما

نظر أحد منّا إليه لبرهة انكسرت عيناه وأطرق. شعرت من كلام المحامين أن ثغرات القضية واسعة، تكفي لمرور بغل كبير منها في سلاسة، الشهود مضطربون في شهادتهم، متضاربة أقوالهم، يبدو أن هناك اتفاقاً خفياً فيما بينهم لفتح هذه الثغرة تحديداً. تماسك عديلي بعد سماع أقوال الشاهد الثالث، اعتدت وقفته، ارتاحت قسماً وجهه الأصفر، وراح الاستعلاء والتكبر يتسلقان ملامحه.

رُفعت الجلسة للاستراحة، انشغلت خطيبتى وشقيقتها به، تبادلا حديثاً طويلاً معه من خلال الأسلاك، حييته من بعيد بإيماءة من رأسي لدى مُغادرتي القاعة، لديّ منصبى وهو حُجة كافية تكفينى للابتعاد عن القفص ومن فيه.

وقفت خارج القاعة أدخن سيجارة بركنٍ منزوٍ. دار بذهنى حالنا وحال القضاء كله على مدار نصف قرن مضى. لماذا يظهر بيننا هذا المرتشى الفاسد كل فترة حتى ولو بعيدة؟ ما معنى أن يحضر مندوب عن هيئته التي كان يعمل بها ليُقدم مستندات تبرئ ذمته وهو

مَنْ ضُبط مُتلبسًا، وكلنا كنا نعرف بفساده واستغلاله
لنفوذه؟ هل يرغبون في عودته لوظيفته لو تَمَّت
تبرئته أم أنهم لا يُصدقون فسادَه؟ هل عاد صالحًا
للحكم بين الناس بعدما فسدت ذمته وخرب ضميره؟!
أم أنهم يؤدون واجبهم في الدفاع عنه والسلام؟!

أغمضت عيني ضيقًا فخيل لي أنني أرى رجلًا طويلًا
شامخًا ذا هيبة، يُشبه الجنرال الفرنسي شارل ديغول،
يقف أمامي مبتسمًا، يتفوه بكلمات قليلة لا أفهم منها
حرفًا لكن ابتسامته مطمئنة، ربما حاول أن يُخفف
عني، تذكّرت مقولته الشهيرة وهو يتهيأ لرئاسة الدولة
منذ سنوات بعيدة: "إذا كان القضاء بخير ففرنسا في
أمان".

فجأة اقترب من ديغول رجال غاضبون بعصي غليظة،
وولدت نساء بلا سبب، قذفه صبية بالحجارة من
بعيد، ثم انهالوا جميعًا على الرجل صفعًا وركلاً
وأوسعوه ضربًا، تهاوى الرجل الشامخ ببطء لكنه لم
يسقط بعد.

أفقت من خيالاتي وشرودي على ضوضاء بالغة بالقرب مني، فتحت عيني فوجدت أناسًا يُمسكون بتلابيب رجل طويل يُشبه ديجول بأنفه البارز وشعره الفاحم القصير، ويتهمونه بأنه تسبّب في سجن ابنهم للأبد بسبب شهادته، وراحوا يضربونه بالفعل. ابتسمت في ضيقٍ من أحلام اليقظة التي أصابتنني، ثم ابتعلت مرارة ابتسامتي وأنا أفكر في دولةٍ مثل فرنسا التي أصبحت على ما هي عليه الآن لأن ديجول لم يضرب قاضيًا في مكتبه مثلما حدث للسنهوري باشا في الخمسينيات عندنا، ولم يفصل ديجول آخر لرفضه الانضمام للتنظيم الطليعي الفرنسي، ولم نسمع يومًا عن إعلامي في قناة برلين اليوم يشكر القضاء الألماني النزيه، أو رجل أعمال بريطاني ينشر إشادة بالقضاء الإنجليزي الشامخ في صحيفة الجارديان، ربما لو حدث ذلك لاعتبروها جريمة لا تُغتفر، وإهانة بالغة لا يمحوها إلا سجن قائلها.

هززت رأسي أسفًا على ما جال بخاطري، انتبهت إلى أصوات أقدام بجواري وجمهور الحضور يغادرون،

يبدو أن وقفتي خارج القاعة طالت دون أن أدري، أخذتني الشجون والذكريات وسراب الأمنيات، فقد رُفعت الجلسة بعد انعقادها لدقائق مرة ثانية، وأجّلت القضية شهرًا لسماع بقية الشهود، وجدت خطيبتني وشقيقتها تغادران باكيتين لاستمرار حبس عديلي المتهم على ذمة المحاكمة بعدما تبخّرت كل الآمال بقرب براءته كما توهموا.

وصلنا بيتهما وتركت السيارة دائرة، دعّتني خطيبتني لتناول الغداء، تحجّجت بأنني سوف أزور أمي، وبعدها ألتقي بعض الأصدقاء لتناول السحور معهم، فغدًا أول أيام شهر رمضان، إجازتي طالت هنا لكني لا أفعل شيئًا سوى اجترار أحزاني على نبوي الديب. قبل أن تغادر خطيبتني السيارة أخبرتها بأنني لم أنس موضوع شقتنا وشراء أثاثها بالقسط لأهدئها، لكنها أشاحت لي بيدها في لا مبالة صريحة، ثم قالت بنبرة منكسرة لَمَّا تأكّدت أن شقيقتها ابتعدت عنّا:

- حناجل كل حاجة يا نادر لغاية ما جوز أختي يطلع براءة.. والا هو ممكن يتسجن فعلاً وهو مظلوم؟

- إن شاء الله.

لا أعرف على أي شيءٍ قدّمت المشيئة، تركت لخطيبتى حرية اختيار المعنى الذي يُناسبها. تحركت بالسيارة وأنا أردد كلمة مظلوم التي اختتمت خطيبتى بها كلامها، مَنْ المظلوم؟ الناس التي نُهبت حقوقها وأرضها على يد عديلي، أم هو الذي ظلم نفسه وظلمنا معه لَمَّا سعى لتولي مهنة القضاء؟! قبل أن أصل إلى بيتي تلقيت اتصالاً هاتفياً من رئيس النيابة، أخبرني بوقوع مجزرة بشرية بالقرية راح ضحيتها أقباط كثيرون واثنان من المسلمين، أحدهما طفل عمره اثنا عشر عاماً والآخر تاجر جاوز الخمسين بقليل. ظلت صامتاً لا أجد ما أقوله، حتى لَمَّا ابتعدت في إجازة عن الطابوعة اشتعلت فيها النيران، لكنها هذه المرة أتت عليها بالكامل فيما يبدو، كلهم صاروا مثل ياسر الرشيدي، غضبوا فحرقوا ثم ظنوا أنهم استراحوا والنار حتماً ستطلب المزيد.

قطع رئيسي إجازتي، اختارني لتحقيق القضية مؤكداً أن تلك أفضل طريقة لخروجي من الحالة النفسية

التي أصابتني ولا تريد أن تفارقني، قرر أن يداويني
بالتي كانت هي الداء هذه المرة.

استدعيت السائق وانطلقت للطايعه عائداً لقدري.
الساعة تشير للثالثة صباحاً، القاهرة غارقة في
أضوائها، ما إن عبرنا الجسر المؤدي إلى الطريق السريع
حتى غرقنا في الظلام، أطلق السائق نفيده بلا سبب
وهو يضحك، التفثُّ إلى يساري فوجدته أقلق راحة
عاشقين كانا يتعانقان سرّاً قرب الكورنيش. ظللت
شارداً في الجحيم الذي ينتظرني بالطايعه، السفر في
تلك الساعات من الليل يُحاكي نشوة الخمر وغيوبة
المخمورين.

تمدّت في المقعد الخلفي أمناً مطمئناً في العتمة
وحيداً مع شجوني، حفيف أوراق الشجر وهدير الريح
يضبطان إيقاعي لكن صيغة الاستدعاء تقلقني، نسائم
الفجر تُطير إحساسي بالمكان والزمان، وهو اجس
الفتنة تلطم وجهي فثنّبني، أشعر باقترابي من نهايات
حزينة موجعة، نظرت في ساعتني، مرت خمس عشرة
دقيقة بعد الساعة، لاحت الاستراحة من بعيد مضيئة

بنورٍ خافت، تبدو الغيطان والمباني ناعسة لا تريد أن يوقظها أحد، فلم تعرف بعد أنني أتيت.

بدّلت ملابسي واتجهت مباشرة إلى مكتب رئيس النيابة، ألفتته فرغ من توزيع العمل على وكلاء النيابة وبقي في مكتبه ينتظرني، مُعاينة الجثث الملقاة بالغيطان كانت من نصيبي.. لا بأس فالظرف لا يسمح بالانتقاء.

قرّر رئيس النيابة أن يصحبني إلى المعاينة بسبب شعوره بالاختناق. قبل أن نغادر فوجئنا بضابط أمن الدولة يدخل علينا المكتب، أفهمه رئيسي بأننا على عَجَل من أمرنا، متوجهين لمأمورية معاينة لما أسفرت عنه الأحداث بين المسلمين والأقباط، فركب معنا السيارة ذاتها دون أن يدعوه أحد منّا لمرافقتنا.

ثرثر الضابط طوال الطريق بكلامٍ كثيرٍ عن الوحدة الوطنية وإخوتنا الأقباط شركاء الوطن، كدت أصرخ فيه أن ما يقوله هو الاضطهاد بعينه لولا أن لكزني رئيس النيابة في ساقِي، بعد برهة لم أتمالك نفسي

والضابط يتحدّث عن الخط الهمايوني لبناء الكنائس وربما يستغل الأقباط الأحداث لطلب بناء كنيسة جديدة كعادتهم، فصرخت فيه بغضب:

- خط همايوني إيه اللي من أيام الدولة العثمانية وبتتكلم فيه وإحنا في الألفية الثانية؟! ما بينوا كنيسة والا عشرة حيحصل إيه يعني؟

- لو سبناهم يا باشا من غير الخط الهمايوني حنلاقي جنب كل زاوية بُرج عليه صليب، ولما عرضنا عليهم قانون العبادة الموحد علشان ننظم المسافات وعدد الكنائس رفضوه، إحنا في مؤامرة كبيرة يا بهوات.

راح بعدها الضابط يشرح وجهة نظره باستفاضة، موضحًا أن الأقباط يتسرّعون في تأسيس أماكن للصلاة دون ترخيص ليضعوا الحكومة أمام الأمر الواقع، ممّا يُثير حفيظة المسلمين من جيرانهم، انبريت مقاطعًا أن عددهم قليل بالمقارنة بتعداد المسلمين ومن الممكن تنظيم الأمر بسهولة، ولا يمكن أن يثور المسلمون من تلقاء أنفسهم إلا إذا كان هناك

طرف ثالث يُحرك جهلاءهم، أيّدني رئيس النيابة في
وجهة نظري، لكن الضابط انشغل بالرد على جهاز
اللاسلكي بدلًا من أن يرد علينا، فهمنا من حديثه أنه
سيضطر لمغادرة السيارة والذهاب لديوان المركز لكي
يستجوب متهمين جدًّا قبل عرضهم علينا.

انعطفنا يسارًا لتوصيله، قبل أن يتركنا سأله رئيس
النيابة عن عدد المتهمين الذين تم ضبطهم حتى الآن،
جاء رده بأن التحريات توصلت لتحديد خمسين متهمًا،
جارٍ ضبطهم تباغًا. خمسة وعشرون من الأقباط
ومثلهم من المسلمين، قالها بفخر، فانقلت مني ضحكة
خافتة ثم عقبت:

- الله يرحم المجهول، والله أيامه كانت أرحم وأهون
وأسهل.

تجهم الضابط وهو يرد بعصبية حاول السيطرة عليها
بالكاد:

- إحنا بنحاول نعمل توازن لغاية ما الأيام الأولى تمر بسلام وبعدها نشوف، وما تنسوش يا بهوات نفوذهم بزه مصر، ده الأمريكان أخذوا خبر بالحوادث كلها في الطايعة قبل ما نبلغ وزير الداخلية هنا.. الموضوع كبير مش مجرد قتل وحرق.. بلدنا مستهدف ولازم عينينا تبقى في وسط راسنا.

لكزني رئيس النيابة بشدة هذه المرة لأسكت. ابتسم رئيسي للضابط وهو يؤكد له صحة وجهة نظره مختتمًا بالعبارة المريحة لكل من يُنكر الحقيقة "إن شاء الله خير"، ثم استعجل السائق بنبرة عصبية ليتحرك بالسيارة.

فتحت النافذة ليضرب الهواء وجهي كعادتي كلما اختنقت، نمر ببطءٍ بمحاذاة غيطٍ كبير، لمحت بضع بقرات وجاموستين وعشرات الأغنام ترعى بعشوائية، تضرب رأسها في الأرض بحثًا عن عشب طال قليلًا لتأكله، عدا حمار ربطه صاحبه قرب ساقية بعدما فك العصابة عن عينيه، ووضع له حزمة كبيرة من البرسيم أمامه مكافأة له على طاعته.

هزرت رأسي في أسي محاولاً إحصاء عدد السنين التي ضيعها الشيخ رجب وتابعوه من عمرهم، رافعين أيديهم فيها نحو السماء للدعاء على غيرهم، متمنين تدميرهم وتفريقهم وحرقتهم كل جمعة، يدعون عليهم وعلى آخرين مؤمنين مثلهم، والله لا يستجيب كل مرة، لكنهم مستمرين في الدعاء بغير تفكير. كيف يستجيب لكم لحرقت وتشتيت شمل طائفة لأن أخرى لا تحبها؟ أليس هو ربهم وخالقهم يا أغبياء مثلما هو ربنا؟ هل هو بحاجة لرأيكم في خلقه كي يبدله أو يدمره؟!!!

يضيق صدري ولا ينطلق لساني، أنا مثل الغالبية مكتوف الأيدي، لكنني أشقى أكثر بأسئلتني، يا ليتني كنت حمارًا، فهو تقريبًا الوحيد الذي لا يُترك بمفرده ليرعى ويأكل. إنما بقدر ما يُطيع، بقدر ما سيضع ركبوه الغذاء أمامه.

وصلنا منطقة الزراعات الشرقية، هبطنا من الطريق المرتفع لأحد الغيطان الذي شهد حرق أربعة عشر قبطيًا دفعة واحدة، أفهمنا الطبيب الشرعي الذي

التقانا هناك أنهم قُتلوا بالرصاص ثم نُقلوا إلى هنا تمهيدًا لمحرقة كبيرة فيما يبدو، ولولا أن الريح هادئة لتفحمت الجثث كلها، وما أمكن التعرف عليهم أبدًا.

أمضينا أكثر من اثنتي عشرة ساعة في معاينة الجثث ومسرح الجريمة، عثرنا خلالها على بقايا زجاجات حارقة وبطاقات شخصية ممزقة للمجني عليهم مُلقة بجوارهم وفوارغ طلقات نارية.

عقب معاينة الجثة الأخيرة وسط الغيطان كنا قد ابتعدنا عن السكة العمومية بمسافة كبيرة، وكان المغرب قد حان وقته، تَلَفَّتْنَا حولنا فلم نجد سوانا، ليس معنا سوى زجاجة ماء كبيرة أنا ورئيس النيابة، كسرنا صيامنا بسرعة، لكنَّ البَرْد قارس والمسافة طويلة حتى الاستراحة لتناول الطعام الذي لم يكن بطبيعته مُشجِّعًا على الانتظار.

- اتفضلوا معانا يا بهوات بسم الله.

نادى علينا أحد المجندين المُكَلَّفِين بحراسة مسرح الجريمة وقد أخرج صُرَّة قماشية بها بعض الأُرغفة وقطعة جبن. دعانا لمشاركته بودّ شديد، كان المجند شرقاويًا فألحَّ علينا بكرم حقيقي، لم نتردّد في قبول عزومته، قدّم لكُلِّ منّا رغيفًا وقطعة جبن كبيرة، لاحظت على آخر خيط نور قبل العتمة عيدانًا خضراء زاهية في رغيفه تسر الناظرين فسألته عنها، ابتسم وبلا تردد قدّم لي الكثير منها، مُقطعة بعناية، أخبرني أنها عيدان "فِجَلَة" قطفها من الغيط الذي نجلس فيه، غسلتها جيدًا ببقية زجاجة الماء ثم وضعتها في رغيفي والتهمته بنهمٍ وتلذّذ. أثناء انشغالي في إعداد الرغيف الثاني بينما أمضغ بقايا الأول باستمتاع، كان رئيس النيابة يقطف عيدانًا خضراء أخرى لحشوها برغيفه، فجأة ظهر أمامنا ثلاثة فلاحين مبتسمين ببشاشة، يرفعون مصابيح إنارة قوية، يتقدمهم كبيرهم عمدة الطابِعة مُرحبًا بنا بلهجة صعيدية أصيلة قائلاً:

- منورين غيطان "البرسيم" يا باشوات.

بيت القبطية - 21



22

حتى الموت لم تعد له قداسة. لَمَّا مات الخفير نبوي الديق رفضت الكنيسة الصلاة عليه لحمله بطاقة مسيحية مزورة، ومن قبلها رفض الشيخ رجب الصلاة عليه أو السماح بدفنه بمدافن المسلمين متحججًا بالبطاقة المسيحية ذاتها، فلا يوجد لديه ما يدل على إشهار إسلامه مرة ثانية. حار رمسيس يومها بجثمان نبوي بين الجامع والكنيسة، حتى تدخل نادر بك وكيل النيابة وأصدر تصريحًا بدفنه في مدافن الصدقة، وصلوا عليه في الخلاء.

مثلنا مثل بهائم نفقت على الطريق، فلما حار بها صاحبها أشار له الناس ناحية الترعَة، فلا أحد يهتم بدفنها. اليوم ذهبت مع فريال زوجة المرحوم صمويل لاستلام جثته مع آخرين من الأقباط من أهل القرية ماتوا أثناء الأحداث، المفاجأة أننا علمنا بوجود جثمان التاجر المسلم في صندوق خشبي مثلها مثل جثامين الأقباط الآخرين في بيت بولس سمعان.

انبرى أحد الحاضرين زاعقًا بأن الميت مسلم كما أكد أبونا بالكنيسة، ثم قلب الصندوق بعصبية ليسقط الجثمان على الأرض، الغريب أن الواقفين لم يستنكروا ما حدث، أدرت وجهي فلا أحتمل رؤية جثة وأيضًا محترقة، اتصلوا بالكنيسة فأمرتهم بتسليمه للمركز أو المسجد والانصراف في هدوء بدون مشاكل، رفض الشيخ رجب الصلاة عليه واحتشد مع رجاله بالمركز رافضًا تسلّم الجثمان من الأساس بحجة أنه لا يعرفه وربما كان قبطيًا، وأن ما فعله "ملعوب" منّا!

ألحنا على الضابط كي يُسلّمنا جثة صمويل فقط، فلا شأن لنا بالمسلم الذي قُتل، لكنه صمّم على تسلّم الشيخ رجب لجثة التاجر المسلم أولًا ومن بعدها يتم تسليم جثامين الأقباط، وأصدر أوامره بنقل الجثث كلها للمشرحة مرة ثانية.

جلسنا أمام المركز انتظارًا للفرج، بعض النسوة يولولن، زوجة صمويل تنتحب، بعضنا ذهب للكنيسة للتدخل والإفراج عن موتانا لكنهم لم يتحركوا. مرّت ساعتان حتى وصلت سيارة بها الطبيب الشرعي ومعه آخرون،

علمنا أن شقيق التاجر المسلم المتوفى جاء لإنهاء إجراءات تسلّم الجثة بعدما تعرّف عليها بالمشرحة، تهلّل وجهنا وانفرجت أساريرنا فسوف يتم تسليمنا تصريحًا بدفن جثمان صمويل الآن.

حلّ بي التعب بسرعة، أصبحت لا أستطيع الوقوف طويلاً في الأسابيع الأخيرة، فجلست فوق قفص من جريد، لكنني رأيت فجأة.. خضر زوجي!

جزعت كأنني أرى شيطانًا، فركت عيني غير مصدقة، لا تفصلني عنه سوى بضعة أمتار وهو يترجّل من السيارة، حاولت النهوض فلم تقوَ ساقاي على حملي، شعرت بدوار شديد فترنّحت، سمعت صوت خضر وهو ينوح:

- الله يرحمك يا هلال يا أخويا..

تلفتّ حولي، وقعت عيناى على الجثمان.. هلال هو الميت.. هل ضاقت الدنيا كلها حتى يحتمي تاجر الكليم المسلم ببيت قبطي فيقتل معه؛ لأجد شقيقه

خِضْر حَيًّا أَمَامِي مَرَّةً ثَانِيَةً بِسَبَبِ رَفْضِ الشَّيْخِ رَجَبِ
دَفْنِ هَلَالٍ؟!!

مَنْ الَّذِي قَتَلَ الْقَطَّةَ كَمَا قَالَ أَبُو نَا؟!

التفت خضر نحوي، برقت عيناه ببريقٍ مُرِيبٍ وأخذ
فمه يتسع، تعلَّقَ رذاذُ أبيضٍ بطرفي شفثيه ثم انقضَّ
عليَّ ككلبٍ مسعورٍ، مُمسكًا برقبتي صارخًا:

- الولية دي مراتي.. السَّت القبطية دي لسه على
ذمّتي.

ظنوه مخبولًا لكنه ازداد إصرارًا، حاول الناس تفريقنا
لكنه ظل ملتصقًا بي يضغط بيده على رقبتي وأنا
أتنفس بالكاد، ضربه بعضهم على ظهره وحاولوا
الدخول بيننا لإبعاده، لكنه ظل يضغط أكثر ممسكًا
بيده الأخرى بذراعي ثم طرحني أرضًا، انشقت الأرض
فجأة عن رمسيس وبيده جريدة نخل، لدهشتي راح
يلهب ظهر خضر بها وهو يسبُّه ليتركني، صرخ خضر

متألماً حتى خرج ضابط المركز وعساكره إثر الصباح والجلبة، فابتعد الجمع كله خطوات عديدة للوراء.

اقتادوني وخضر للداخل ببطء، وسط تجمُّع بشري يضرب كفاً بأخرى وينسج عشرات القصص كالعادة، عدا رمسيس الذي طمأنني بأنه سيُرسل لي محامياً. فات الأوان وحدثت الجُرسة لَمَّا زاد تجمُّع المارَّة وعلا الصباح، انهمرت الفتاوى ومحاولات فض الاشتباك، خلصونا بالكاد، داخل المركز اتهمني خِضر فقط بالزنا، لم يُشر من قريب أو من بعيد لمحاولتي قتله بحجر على رأسه، نظراته لي تشي بأنه يؤجِّل عقابي على محاولة القتل لأجلٍ قريب، سيقتص مني بيديه فيما يبدو، أما الآن فكل ما يريده أن ينتزعي من زوجي.

أخرج بطاقة العائلية المدون بها بياناتي من جيبه بيدٍ مرتعشة، صدره يلهج بسرعة، شفته السفلى تدلَّت قليلاً، لُعبه يسيل على أحد جانبي فمه فيمسحه بطرف جلبابه، ليعلو صوته مطالباً بحقه فيّ.. في جسدي.. في روعي التي كادت تموت. يبدو أنني لم

أتحمل أكثر، فقد سقط من ذاكرتي بقية المشهد بالمركز.. ومن المؤكد أنني فقدت الوعي.

أفقت لأجد نفسي مفترشة الأرض بحجرة المأمور، بجواري سيدة مسلمة من جيراني، لكني للغرابة لا أتذكر اسمها، قدّمت لي شربة ماء وبعض الطعام لم أستطع أن أقربه، شعرت بالألم يضرب جنبات بطني، طلبت عرضي على طبيب المستوصف، رفض الضباط بحجة عرضي على النيابة المسائية أولاً، علا صوت خضرم خارج الغرفة وهو يُهدّد شخصاً آخر معتقداً أنهم هربوني من المركز.

انفتح باب الغرفة ليراني دون أن يسمحوا له بالدخول، طالني سبابه فأبعده، بدا مثل كلب مسعور وهم يجذبونه للوراء، أخرجوني لَمَّا هبط الظلام، ركبت سيارة المركز وذهب خضرم في سيارة أخرى، وضعوا عليّ حراسة مُشدّدة، طوال الطريق لم أتوقف عن البكاء، مررنا بالكنيسة، بدت لي بعيدة ببرجها العالي وصلبها الكبير، صار الحزن كفنًا يُغطيني وشعرت

بأنني فقدت إنسانيتي، لم أعد أستطيع الصبر، روعي
تتسرب مني ولا يتبقى سوى الحطام.

مثلت أمام نادر بك بسراي النيابة، سمح لي بالجلوس
فتهاويت على أقرب مقعد، قبل أن يفتح محضره
بالسؤال المعتاد عن اسمي وسني وعملي طلب من
سكرتييره جرجس أن يغادر الغرفة، قدّم لي كوب ماء
وابتسم في هدوءٍ طالبًا مني أن أحكي له الحقيقة كلها
إن أردت أولاً، وعدني أنه لن يكتب في محضره إلا ما
سوف أقوله رسميًا.

خرجت مني تنهيدة تحمل حيوات مبعثرة عشتها،
وآلام تنوء بها روعي قائلة:

- ماعدش ينفع خلاص يا نادر بك.. الخلاص دلوقتي
إني أقول الحقيقة كلها وفي المحضر، بس قبلها ليا
عندك طلب واحد بس، وأبوس إيدك توافق عليه..

- خير يا ست هدى؟

- لو حتحبسوني وديني المستشفى..

- خير بتشتكي من إيه؟

- أنا حامل يا باشا من رزق.. وأمانة عليك ما حد
يعرف.. خصوصًا خضر.



23

تضطرب ساعتى البيولوجية في شهر رمضان، أنشط طوال الليل كوطواط، وفي النهار أصبح خاملاً مثل جوال مملوء بالرمل. ارتديت ملابسى في كسل، فقدت الكثير من حماسى تبعاً خاصة وأن السنة القضائية قاربت على الانتهاء، لم أعد مقتنعاً بكلمات رئيس النيابة وحججه بأننى عرفت طبيعة العمل وسيكون العام القادم سهلاً، أضغاث أحلام لا شك، لقد رأيت هنا ما لم أره، ولا أحسب أننى سأصادفه مرة ثانية في حياتى، إن كان في العمر بقية.

هبطت الدرج كأننى أهبط قبراً، اليوم جلسة الجُئح التي تُنظر فيها قضية هدى حبيب بالمحكمة، لست راغباً في حضور مشهد النهاية، لم تعد أعصابى تحتمل المزيد من الاحتراق لكننى مضطر، لأول مرة أشعر بتأنيب ضمير على قضية حققت فيها، يا ليتنى ما حققتها، كان من السهل عليّ الاعتذار عنها، لكن شيئاً ما دفعني دفعاً لتوليها حتى قدمتها للمحاكمة، ليس الفضول، ولا الرغبة في تحقيق العدل، إنما فقط الدفاع

عن حقها في الحياة، لن يتعاطف معها أحد غيري، ولا أدري سببًا محددًا لهذا الشعور الذي تملكني ولا يزال يحركني حتى الآن.

حاولت عبثًا استبعاد رِزق زوجها من الاتهام، لكن تحريات الشرطة أمسكت العصا من المنتصف، أفادت بأنها لم تتوصل لحقيقة الواقعة ومدى علمه بوفاة زوجها من عدمه، لم تؤكد التهمة ولم تنفها عنه، بالطبع العدالة عمياء، والقانون يُملي على أذنيها نص الجريمة التي ارتكبها رِزق، لثشير له بأصابع الاتهام وهي مطمئنة، اشترك في جريمة الزنا، تحوّل شريك الحياة الذي لا يعرف أنها متزوجة إلى شريك في جريمة من أحط جرائم قانون العقوبات، ربما لو اتهمناه بالقتل لكان أهون عليه، على الأقل لم أتخذ قرارًا بحبسه على ذمة القضية وهذا أضعف الإيمان.

على باب الاستراحة وجدت رمسيس ينتظرني، اقترب وحيّاني وهو يُقدم لي ظرفًا كبيرًا بيدٍ مترددة، لم أمد يدي إنما سألته عن محتواه، لم يرد مكتفيًا بذراعه الممدودة المرتعشة وإطراقة أقرب للندم منها

للاحترام. فضضت الظرف بفضول، وجدت به الصفحات المنزوعة من دفتر الحيازة الذي أرسل لي بالبريد من قبل على مكتبي، تصفحتها في دهشة ثم رفعت عيني نحوه سائلاً باستنكار:

- والظرف ده وصل هنا بالبريد يا رمسيس؟

- لأ يا باشا.

قالها وظل مطرّقاً ولم يزد.

كنت أريد سؤاله عن ضابط أمن الدولة وعلاقته به، وعمّا إذا كان هو الذي أخرجه من الحجز وقت حبسه وتركه ينام في الاستراحة، عن الحيازة الزراعية للأقباط وحوادث الحرق وكرات النار، لكنني تلعثمت فجأة بلا سبب، اضطرب لساني بدون مبرر، ورُحِت أردّد كلاماً غير مفهوم كمن يهذي، لكنني في نهايته قلت جملة واحدة مسموعة بوضوح: " ضابط أمن الدولة "

هَزَّ رمسيس رأسه بالإيجاب بعدما تلفّت حوله في قلقٍ قبلها.

طويت الأوراق مكتفياً برده على ما لم أقله، استقلت السيارة لكن قرب البوابة أمرت السائق بالتوقف، التفت نحو رمسيس وأشارت له، اقترب مهرولاً، تفرست فيه طويلاً ثم قلت وأنا لا زلت متوتراً:

- دي آخر حاجة والا لسه في الجراب يا حاوي؟

- صدقني آخر حاجة، وحاحكي لك بالأمانة عن الناس اللي ماتت ومين قتلها من الأقباط، والأرض اللي خدناها، واللي سعادتك حتحكّم بيه عليّ أنا راضي به، لكن والمسيح الحي أنا عبد المأمور وعمري ما مدّيت أيدي على حد ولا قلت لحد اقتل ولا احرق.. بالصريح.

وصلت إلى مبنى المحكمة، توجّهت إلى غرفة رئيس النيابة مصطحباً رمسيس معي الذي أفاض بالحقيقة طوال الطريق، أمرته بحمل ظرف أوراق الحيازة المنزوعة من الدفتر بيمينه، وضعها أمام رئيسي ووضعت ساقاً فوق أخرى بينما تراجع رمسيس خطوة حائراً، لاحظت أن جفنه يرتعش وإن بدا متقبلاً عقابه أيّاً كان. بداخلي اعتقاد ينمو ببطء أنه قد تغير بعد

موت أخيه، ربما أدرك أن مَنْ كان يمد له يده من قبل لم يكن يريد مساعدته، إنما كان يجذبه ليُجبره على السير خلفه، يبدو اليوم وقد تحرّر من قيوده، فقط يحتاج لدفعة أخيرة نحوي ليعترف ويتطهر من ذنوبه كلها.

قرأ رئيس النيابة الأوراق بعناية، ثم جال ببصره بيننا سائلاً في دهشة:

- الأوراق دي كانت عند رمسيس طبعا يا نادر بك وهو اللي ورا بيع الأراضي دي كلها للأقباط مش كده؟

تأمّلت رمسيس، وجدت عينيه متعلقتين بشفتي، وكفيه ترتعشان، أدت وجهي لرئيس النيابة قائلاً بحسم:

- لأ يا فندم.. الأوراق وصلتني النهارده على الاستراحة بالبوسطة زي المرة اللي فاتت وأنا جبت رمسيس معايا علشان لو سعادتك حابب تستفسر منه عن حاجة فيها، لأنه يعرف المشترين وظروفهم، والأهم إن عنده

كلمتين مهمين عن حوادث قتل قديمة أظنه عاوز
يقولها ويريح ضميره .. بس الأكيد إن الظرف ده
حيكون آخر حاجة حتوصلنا بالبوسطة، مش كده والا
ايه يا عم رمسيس؟

ظهرت الابتسامة الصفراء بالكاد باهتة على ملامحه
وهو يحلف بأغلظ الأيمان إنها الأخيرة.

توجّهت إلى غرفتي وتركت رمسيس يحكي قصته
لرئيس النيابة، لعلّه يُدرك أحد المجهولين الذين لم
نستطع إدانتهم. فرشت أوراق قضية أحداث الطايعة
كلها على سطح مكتبي، عشرات الملفات ومئات
الأوراق أمامي، سألنا شهودًا واستجوبنا متهمين، أخذنا
أقوال الضباط والأهالي الذين لم يروا شيئًا والذين
رأوا أيضًا، ومع ذلك أفاضوا جميعًا في شهادتهم، سألنا
غيرهم من المصابين فآدموا قلوبنا حزنًا على حالنا.

لم أعد أرى أقباطًا ومسلمين، رأيت مهووسين
متعصبين من الجانبين، يعيشون في جحيم طوال
حياتهم، فقط ليثبتوا لتابعيهم أن الآخرين لن يدخلوا

الجنة في الآخرة. طويت أوراقى وراحت الأسئلة
تتقافز أمامى.. مَنْ الذى نزع الرحمة من الأولين
واستبدل القسوة بالمحبة لدى الآخرين؟ ما قيمة أن
تُكفّر غيرك وتشغل نفسك بمصيره في الآخرة وتنسى
أن تعيش دنياك في سلام؟

انتشلتني من شرودي ثلاث طَرَقات على باب مكتبي
أشبه بدقات المسرح الشهيرة، ثم وجدت ضابط أمن
الدولة أمامى يختال في مشيته مع أن مظهره يئم عن
أنه لم ينم منذ أيام، تهاوى على أقرب مقعد، فرك
عينيه حتى كاد يُخرجهما من مقلتيهما، ابتسمت وأنا
أتساءل بيني وبين نفسي، إذا كان يفعل ذلك في
عينيه فما بالناس بعيون الآخرين؟ نظر لي بدهشة ثم
طلب منى فنجانًا من القهوة وهو يُخرج علبة سجائره
من جيبه، اتسعت ابتسامتي قائلاً:

- رمضان كريم يا باشا.

ارتبك وأعادها لجيبه في حرج، راح يشكو من اختلاط
الأيام وساعات الليل والنهار بسبب كثرة العمل، تركته

يُخرج كل ما في جوفه ثم سألته عن سبب زيارته في برود، لم أكن راغبًا في مناقشات عقيمة كالمعتاد، فاجأني بأن لديه محاضر تحريات مهمة تُحدّد الجُناة في حوادث سابقة، انتبهت له وهو يُرتّب أوراقًا بعناية داخل ملف كرتوني أحمر ثم وضعها أمامي، قرأت ثم ضحكت ضحكة مكتومة، بالطبع وصله أمر اعتراف رمسيس أمام رئيس النيابة وكان لا بد له من تدارك الموقف حتى لا ينقلب عليه، طويت الأوراق ونحيتها جانبًا فقال الضابط مُستغربًا:

- إيه يا نادر بك.. في حاجة مش مضبوطة في المحاضر؟

- لا أبدًا بالعكس.. المجهول اللي ارتكب كل الحوادث قبل كده عرفتوه ما شاء الله، وحددتوه بدقة، المجرم "خليفة" موجود أهو.. له اسم ثلاثي ومحل إقامة.. بس يا خسارة الحلو ما يكملش، الله يرحمه مات في مواجهة مع قوات الشرطة من فترة وهي بتطارده في الجبل وماعرفتوش أنه خليفة وقتها.. البقية في حياتك يا باشا.

قام الضابط واقفًا بصعوبة وهو يتشاءب ثم قال بهدوء:

- أنا عملت اللي عليا يا نادر بك، المحاضر كلها مُسَدَّدة عندك بمتهم، مفيش قضية واحدة ضد مجهول، إحنا كده دورنا خلص.

- طيب وبالنسبة لأحداث الطايعة مفيش متهمين تانيين والا خليفة حيشيل بقية المحاضر برضه؟

لم يرد الضابط، إنما اقترب من النافذة وظل يتابع باهتمام شيئًا ما لا أراه من مكاني ثم التفت ناحيتي قائلاً:

- على الأقل أنا مرتين قلت لمعاليك حاجتين صح، اسم خليفة الثلاثي، وبعدها لقينا جثته بعد ما قاوم واضطرينا نتعامل معه وطلع هو فعلاً لما اتعرّفنا على الجثة ولقينا البطاقة، يعني بقى حقيقة واضحة زي الشمس مش مجرد بيانات والسلام.

- الساعة العطلانة برضه ممكن تدلّك على الوقت الصح مرتين كل يوم.

ابتسم الضابط لأول مرة رغم سخريتي من كلامه واستمر ينظر عبر النافذة، لا أعرف لماذا خطر في بالي الآن أن أسأله عن عدم تسليح الخفير نبوي الديب رغم أن حياته كانت مهددة، أجابني بأن أغلب الخدمات العادية بالطايعه بلا ذخيرة، بعد انتحار خفير ومن قبله عسكري من الأمن المركزي خلال الأعوام الخمسة الماضية، فصدر قرار بمنع التسليح إلا للضرورة القصوى والخدمات المهمة.

تعجبت من منطقه لكنه ظل ينظر عبر النافذة ويبتسم، ثم رفع يده لي بالسلام محيياً وخرج دون أن ينطق كلمة واحدة، قمت من مكاني واقتربت من نافذة الغرفة لأرى هذا الشيء الذي لفت انتباهه وهو يتكلم معي، فوجدت أمامي غيظاً واسعاً في وسطه خيال مائة كبير تأكل الطير من رأسه.. فلم أستطع الابتسام.

- محكمة..

دخلنا القاعة يسبقني القاضي بخطوةٍ واحدة، من خلفي بمسافة كاتب الجلسة كان مهرولاً كالعادة، ترتب قضية القبطية كما أطلق عليها أهل القرية الأخير في "رول" الجلسة، تهمتها "زنا زوجة" كما هو مدوّن على ملف القضية بخط رديء. سألت نفسي بدهشة: كيف تكون زانية من تحب وتتزوج بعد موت زوجها وتريد أن تعيش في سلام؟! لكن القانون لا يعرف الدهشة فيما يبدو.

القاعة ممتلئة عن آخرها حتى إن هناك عشرات الواقفين في نهايتها. أهالي القرية مُمَثَّلون في القاعة تقريبًا بالكامل، راعت شرطة المحكمة المساواة بينهم، ففرقتهم مثل جماهير الكرة، جلس المسلمون على يميننا وبقي الأقباط عن يسارنا، انتشر جنود الأمن المركزي في الممر الفاصل بينهما، ظهورهم لنا وعيونهم على الحاضرين.

فاجأنا القاضي بنظر قضية هدى حبيب في بداية الجلسة، ربما ليفض هذا الجمع من أمامه عقب نظرها، فلن يهتم الحضور بعد ذلك بقضية مُسعد الذي سرق

دخلنا القاعة يسبقني القاضي بخطوةٍ واحدة، من خلفي بمسافة كاتب الجلسة كان مهرولاً كالعادة، ترتب قضية القبطية كما أطلق عليها أهل القرية الأخير في "رول" الجلسة، تهمتها "زنا زوجة" كما هو مدوّن على ملف القضية بخط رديء. سألت نفسي بدهشة: كيف تكون زانية من تحب وتتزوج بعد موت زوجها وتريد أن تعيش في سلام؟! لكن القانون لا يعرف الدهشة فيما يبدو.

القاعة ممتلئة عن آخرها حتى إن هناك عشرات الواقفين في نهايتها. أهالي القرية مُمَثَّلون في القاعة تقريبًا بالكامل، راعت شرطة المحكمة المساواة بينهم، ففرقتهم مثل جماهير الكرة، جلس المسلمون على يميننا وبقي الأقباط عن يسارنا، انتشر جنود الأمن المركزي في الممر الفاصل بينهما، ظهورهم لنا وعيونهم على الحاضرين.

فاجأنا القاضي بنظر قضية هدى حبيب في بداية الجلسة، ربما ليفض هذا الجمع من أمامه عقب نظرها، فلن يهتم الحضور بعد ذلك بقضية مُسعد الذي سرق

جاموسة جاره التي تشاركها فيها وحجب عنه لبنها بحجة أنها فحل جاموس، أو اتهام أبانوب بالسرقة عندما نثر حبوب القمح أمام حظيرة دجاج جارتها فانسابت الفراخ خلفه حتى باب داره، فاختار أكبرها لتكون وجبة لأطفاله، ثم أنكر السرقة وراح يُلقي اللوم على الدجاجات، فضلاً عن قضايا زراعة البصل.

ثُودي على المتهم، التفت الجلوس جميعاً ناحية قفص الاتهام، وقفت هدى لَمَّا سمعت اسمها، ممصوفة صفراء الوجه كأنها مسلولة، ترتدي جلباباً أبيض وطريحة من اللون ذاته، رغم حجزها بمستشفى المركز طوال الفترة السابقة بسبب حملها، لم أكن أنوي حبسها لكن التحريات الشرطة نبهتنا إلى خطورة الإفراج عنها على حياتها، فالجميع يترصدها، الكل بات كارهاً لها، وربما يقتلها أحدهم دفاعاً عن الدين كما يظنون، صارت مثل الأجر ب بعدما كان بيت القبطية قبلة المسلمين قبل الأقباط ليتبركوا ببركتها، لكنها أصبحت دجالة.. زانية.. والآن كافرة.

سألها القاضي عن التهمة المنسوبة إليها، لدهشتي أومأت بالإيجاب، يبدو أنها لم تفهم السؤال، لكن القاضي لم يُراجعها، دَوَّن بمحضر الجلسة أنها معترفة بجريمتها، نادى الحاجب على رزق زوجها فلم يتلقَّ جوابًا، عاد القاضي يسأل هدى إن كانت تريد أن تقول شيئًا، فأومأت لمرات متتالية، سكتت القاعة كلها، ساد السكون حتى كدت أسمع مجرى الدمع على وجنتيها وهو يُدميها.

تكلّمت هدى فهزّتنا.. روت تفاصيل حكايتها بشجاعة، اتسع صدر القاضي رغم كل محاولات محاميها للمقاطعة كي يُسكتها، حتى لا تُصعّب مهمته أكثر، لكن القاضي لم يلتفت إليه. استمرت هدى تحكي تفاصيل معاناتها مع خضر وسعادتها مع رزق كأنها ترسم لوحة عن زوال الليل وبزوغ نور النهار، فجأة سمعنا ضوضاء بنهاية القاعة، طرق القاضي بالدُّقماق ثلاثًا فسكتوا، وجدنا خضر زوجها الأول يحاول دخول القاعة والشرطة تمنعه، سمح القاضي له بالجلوس بأول صف،

لكنه لم يسكت وظل يُبرطم بكلمات كثيرة لم نفهم منها سوى سبّه للأقباط.

حذّره القاضي من الكلام والمقاطعة وإلا أدخله القفص فخرس صوته، ما كادت هدى تستأنف كلامها حتى علت همهمات أخرى، دخل رِزق زوجها الثاني على كُرسية المتحرك وشقيقته تدفعه، توقّفت به في منتصف القاعة وهو يتبادل مع هدى نظرات حانية، أشار له القاضي ليتقدم إلى الصفوف الأولى، سبقه محاميه وأثبت حضوره مُقدِّمًا أوراقًا طبية تُثبت عجز موكله عن الكلام، أشار له القاضي بالجلوس بأول صف بدلاً من القفص، لكنه انسحب مع شقيقته لمنتصف القاعة رافضًا الاقتراب من موضع خِضر الذي حافظ على ابتسامة بلهاء ونظرة حائرة بلا معنى. ظل خِضر يلتفت ناحية رِزق كل فينة وأخرى، يُتمتم بكلماتٍ ويُبرطم بعباراتٍ وهو يرفع رأسه للسقف، يبدو كمن يدعو على آخرين، نَبّه القاضي للمرة الثانية بأنه سيضعه في القفص للإخلال بنظام الجلسة وسيحكم عليه بأربعة وعشرين ساعة حبسًا.

تلاقت عيناى بعيني هدى، لمحت نظرة فزعة تطل
منهما، ربما جال بخاطرها أن القفص سيجمعها بخضر،
شفتاها تتمتمان بسرعة غريبة، ربما تدعو أن يهدأ
خضر ولا يُشاركها قفص الاتهام، لكن حدث ما لا
نتوقعه.

هَبَّ خِضْرُ فِجَاءً مَنَدْفَعًا كَالثُورِ الَّذِي أَفْلَتَ مِنْ قَيْدِ
عَقْلِهِ بِاتِّجَاهِ رِزْقٍ، تَمَكَّنَ الْحَرَسُ مِنْ صَدِّ هِجْمَتِهِ
الْغَاشِمَةِ فِي آخِرِ لِحْظَةٍ وَسَيَّطَرُوا عَلَيْهِ، عَلَى الْفُورِ أَمْرَ
الْقَاضِي بِإِيدَاعِهِ الْقَفْصَ وَحَبْسِهِ، انْهَارَتْ هَدَى عَلَى
الْفُورِ وَسَقَطَتْ. تَدَارَكَ الْقَاضِي الْمَوْقِفَ بِتَصَرُّفٍ ذَكِيٍّ
وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهَا مِنَ الْقَفْصِ لِتُكْمَلَ كَلَامُهَا وَسَطْنَا. وَقَفْتُ
تَدَافِعَ عَنِ نَفْسِهَا، تَفْصِلُهَا قَضْبَانِ حَدِيدِيَّةٍ صَدَّةً عَنِ
خِضْرِ الْمَحْبُوسِ خَلْفَهَا وَهُوَ بَارِقُ الْعَيْنِينَ. شَعَرْتُ
لَوْهَلَةٍ بِطَائِرِ الْعَدَالَةِ يُحَلِّقُ فَوْقَنَا، تَلِكُ نَهَائِيَّةٌ عَادِلَةٌ
تُرْضِي الْجَمِيعَ وَكُلَّ مَنَّمَا يَقِفُ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي
يَسْتَحِقُّهُ.

انتهت هدى من روايتها وهي تؤكد على إمكانية
هروبها من الطابعية لَمَّا رأت هلال لأول مرة، مثلما

هربت من قريتها منذ شهور طويلة، لكنها اختارت ألا تكون مثل الجبناء، فلم تشد الرِّحال دون رجوع. قالت إنها لا تطلب سوى محاكمة عادلة لمرّة وحيدة في حياتها، سئمت العيش في المسافة الفاصلة بين الحلم والحقيقة، بين الظلم والمساواة، لا تريد سوى العدل، خوفها لا يزال مخبأً بين ضلوعها ولا تريد أن تنقله لأطفالها القادمين للدنيا، أشارت لبطنها ونظرت بعينين باكيتين نحو رِزق، ولم تُكمل كلامها، فقد سبَّها خضر في تلك اللحظة وحاول جذبها من ذراعها بيده عبر القضبان لكنه لم يفلح، فصرخ:

- اللي في بطنها ده ابني يا حضرة القاضي، لَمَّا هربت كانت جبلى.. أنا عاوز حقي في ابني ومراتي يا حكومة!

أسكته القاضي بصعوبة حتى ساد الهدوء، ثم التفت نحوي سائلاً عن طلبات النيابة العامة. وقفت ونظرت في وجوه الجالسين المُتَنَمِّرين، لا أصدق أن كل هؤلاء يحاكمون امرأة كل ذنبها أنها تريد الحياة.. ما كل هؤلاء الأراذل الذين لا يرحمون؟ ما كل هذه الشماتة

التي على وجوههم؟ ما كل هذا الغل والتشفي في ضحية بائسة؟ دوري قارب على الانتهاء، ومصير هدى الآن بين يدي القاضي مهما وقفت في صفها.. وكيف أفعل وأنا سلطة الاتهام؟!

ثار في ذهني السؤال الذي لم أجد إجابة عنه منذ بداية التحقيق في قضية القبطية، هل الدين والقانون في خدمة المجتمع، أم أن المجتمع والقانون هما اللذان في خدمة الدين؟!!

نبّهني القاضي إلى ضرورة أن أتكلم بعدما طالت وقفتي صامتًا أفرس في الوجوه المتعلقة بي في تحدّ لا يفهمه، لم أستطع ترديد العبارة النمطية التي نردها في كل المحاكمات "النيابة تطلب تطبيق مواد الاتهام".

ابتلعت ريقى بصعوبة، وقلت بصوتٍ عالٍ حتى تسمعني هدى:

- النيابة تفوّض الأمر للمحكمة.

عَلَّتْ الدهشة وجه القاضي ولم يُعَقَّب، ارتاحت قسَمات
المحامي المُنتدب عنها وهو يستهل مرافعته، فالعبارة
التي قُلَّتْها تعني أن النيابة تطلب البراءة أو عقوبة
مُخَفَّفة للغاية تترك للقاضي حرية تقديرها، تلتمس منه
رحمة ورأفة لم تقدر هي على تطبيقها.

جلست وأنا أتصَبَّبُ عرقًا مع أنني لم أقل سوى كلمات
قليلة، أكاد أسمع ضربات قلبي، طوى القاضي أوراق
القضية بعدما استمع لمحامي رِزق أيضًا، نظر صوب
خِضر أولًا ثم نقل بصره إلى رِزق، كلاهما يُغمغم بكلامٍ
غير مسموع، التفت القاضي ناحية هدى ونادها
بصوتٍ خفيضٍ فهَبَّتْ واقفة، بعدها علا صوته قائلاً:

- الحكم آخر الجلسة.



24

مددت أصابعي مترددة، تلامست مع باطن كف رِزق،
 أطبق عليها في وهن، التفت ببطءٍ ناحيتي، لاحت
 نصف ابتسامة بالكاد من بين شفثيه المضطربتين،
 انحدرت دموعي أسفًا على حاله وما سببته له، همست
 له بأنني لم أكن أعرف أن خِضر ما زال على قيد الحياة
 ولم أقصد قتله، هزَّ رأسه محتفظًا بالابتسامة الخافتة
 ظاهرة بوضوح لثطمئني.

يؤلمني أنني لم أستطع قول الحقيقة كاملة، لكي أهرب
 من جريمة الزنا التي اتُّهمتُ بها يجب أن أعترف
 بمحاولتي قتل خِضر واعتقادي بأنه مات بالفعل وإلا
 لما تزوّجت من رِزق، في التحقيقات أخبرت نادر بك
 بما حدث، نظر لي وقتها في دهشةٍ لكنه تظاهر بأنه لم
 يسمع حرفًا ممّا قُلت، لم يُثبت شيئًا بمحضره عن
 محاولتي قتل خِضر، اكتفى بإنكاري لجريمة الزنا، ترك
 الحقيقة ناقصة حتى لا تسطع شمسها وتحرقني،
 فظل عليّ بتجاهلها.

أغمضت عيني معصرة بقية الدمع الذي لا يكف عن
الانهيار، توجّست كثيرًا من كلمات نادر بك بتفويضه
لأمرنا إلى المحكمة، لماذا تغيّر موقفه منّا و تخلّى عنّا
بسهولة؟ لماذا تركنا وحدنا للقاضي نواجه مصيرنا ولم
يُدافع عنّا؟ هل يريد أن يذبحنا غيره وينقض يديه من
دمننا؟! لا أظن.

اعتدلت في جلستي كزاوية قائمة ونظرت نحوه وهو
يغادر القاعة خلف القاضي، يسير مُطرقًا في أسي،
يبدو نادمًا لكني لا أفهم شيئًا ممّا يدور حولي، القاعة
تحوّلت إلى سوق، الضوضاء عالية.. الكل يتكلم في آنٍ
واحد، لا أحد يسمع غيره، الوجوه غاضبة والأيدي
تلوح في عصبية، أجلس بجوار رِزق في نهاية القاعة
وبجواني عسكري هزيل يكاد يغلبه النعاس كل برهة،
من الناحية الأخرى يقف زميله متراخيًا على مقربة من
مقعد رِزق، يبدو أنهما تيقنا من عدم قدرتنا على الهرب
من مصيرنا، يحيط بنا من الأمام أكثر من عشرة
مجندين بملابسهم السوداء، مُسلحين بالعصي،
متشابكي الأيدي، نرى القاعة والحضور من خلال

المسافات الفاصلة بينهم، شكّلوا بأجسادهم سياجًا أشبه بقضبان غليظة حالت بيننا وبين أهالي الطايعة، لا نعرف مَنْ مِنَّا المحبوس، وَمَنْ مِنَّا الخائف من الآخر أكثر.. فرّقونا عن بعضنا، لكننا مبتعدين من داخلنا منذ زمنٍ بعيدٍ على ما يبدو ونتظاهر بغير ذلك.

- محكمة..

قالها الحاجب بصوتٍ جهوري كأنه يُهدّدنا، لكنه بثَّ الهيبة في نفوسنا فوقفنا جميعًا عدا رزق، جلس القاضي على منصته بينما بدا نادر متوترًا بعض الشيء وهو يتخذ مكانه أقصى اليمين، انسابت أصابعي من كف رزق بعدما ابتلّت عرقًا، لكنه بسط كفّه وهو ينظر نحوي فأعدتها مسرعة وأمسكت بها بكلتا يدي، نطق القاضي باسمي أولًا ثم أتبعه برزق دون أن يرفع بصره إلينا، ثم قال بنبرة حاسمة وهو يُثبّت عينيه على منتصف القاعة:

- حكمت المحكمة حضورًا ببراءة رزق ألفي حكيم من التهمة المنسوبة إليه، وبحبس المتهمه هدى يوسف

حبيب سنة مع الشغل وغرامة مائتي جنيه.

سكت القاضي لبرهة من الوقت طالت لكن لم يجرؤ
الحضور على خدش قداستها، ثم أردف:

- مع إيقاف التنفيذ.

لم أعد أستطيع العيش في الظل، حياتي كلها على
هامش السعادة والاستقرار، هاربة دائمًا من أشباح
كثيرة، فقر وظلم وقهر واضطهاد، وهي لا تتوانى عن
مطاردتي وتلحق بي دومًا، لماذا يتعامل معي القدر
كئبته رقيقة، يُطلق رياحه نحوي كل حين لتتلاعب
بي؟ هل لو انقلبت حجرًا صلدًا بلا مشاعر لكان حالي
أفضل ولنعمت بالاستقرار؟

صرت وحيدة.. منبوذة، أخجل من نفسي إذا ما رأني
أحد أثناء سيرتي بالطريق، أخاف إذا ما ظهر ظلي على
واجهة المحلات بالنهار، أو إذا مررت تحت فوانيس
الشوارع ولمبات الحارات بعد الغروب فيلمحون

خيالي.. لا شيء يُغرق همومي ويبتلعها بعدما أنهكني
التعب وأذلني الناس، الوحيد الذي قبل استضافتي هو
نادر بك وكيل النيابة، سمح لي بالمبيت في المبنى
الصغير بجوار استراحة رمسيس الذي كان مُخصَّصًا
للخفير نبوي، حتى صار قبلة الغرباء والتائهين.

تأهبت للخروج خفية، تسللت من وراء أشجار
الاستراحة ومضى خلفي كلب رمسيس صامتًا، لم
يشعر بأنني غريبة، لم يُخفني أو يُهاجمني، وربما
صحبني ليطمئني. جلست على ضفة النهر وتركت الماء
يُداعب قدمي، أمواج النيل الصغيرة تنكسر بهدوء
قرب الشاطئ، تسجد بخشوعٍ لخالقها، مُطلقة تنهيدة
طويلة كأنها تُعبّر عن آلامها قبل أن تلفظ أنفاسها
الأخيرة. انتابتني نوبة ضحك هستيرية ثم بكيت
بشدة، أمسكت رأسي بكلتا يدي حتى لا ينفجر دماغي،
أردت أن أرد عليهم يوم المحكمة، أن أقول شيئًا بعد
صدور الحكم الذي ربما لم يعجب أحدًا سوى رزق
المتهم البريء، أن أذكرهم بحسنة واحدة من حسناتي،
لكنهم لا يتذكرون محاسن أحيائهم، فاخترت الصمت

مُجبرة كعادتي، أحسست بأن حركة الريح التي أسير
عكسها وضجيج المازة الذي يصمُّ أذني بنميمتهم قد
علقا في الزمن.

تُبَّت الصورة أمامي على أناس لا يتحركون بينما
شفاههم تُتمتم بكلماتٍ لا أميزها، أياديهم تلوح في
غضب، عيونهم تنهمر منها نظرات الشماتة، واقفين في
أماكنهم، مُتجمِّعين وأنا بعيدة بمسافة وحدي، حولنا
فراغ كبير يزيدني وحشة، حالة ترُقُب غريبة، حتى
أوراق الشجر سكنت وصمتت مثلي عن حفيفها
المعتاد، بهتت خُضرتها ونَضبت نضارتها، راحت تتأهَّب
للاصفرار والسقوط، مع أن الخريف لم يأتِ بعد.

هربت إلى النهر المقدس لأتطهر بمائه، لأترك به همومي
وأتخلص من آلامي. لم يبقَ لي غيرك يا عدرا.. لم يبقَ
لي غيرك يا أم النور.. لا تتركيني وحدي فأنا اليوم
غريبة، وحيدة، تائهة.. بعدما تخلَّى الجميع عني..
النفوس المطمئنة فقط هي التي تعرف طريق العودة،
وأنا لم أطمئن يوماً حتى الآن.

أمسكت حصة صغيرة مفلطحة، وزنتها في يدي ثم طوّحت بها بعيدًا في النهر، راحت تتقاذف عدة مرات متلاحقة قبل أن تغرق للأبد وكانت تظن أنها ستعبر النهر قفزًا، هزّ الكلب ذيله في سرور وجلس بجواري، شاهدت قرص الشمس يغوص ببطء في النيل وهو يحمرُّ خجلًا أو خوفًا قبلها. تحسّست بطني المنتفخ في أسي، أخيرًا رضي عني الرب ومنحني بذرة من رِزق، صرت حُبلى، وربما يكون ولدًا كما كان هلال شقيق خِضر يتخوّف من ابن القبطية الذي سيرثه لكنه حدث من غير شقيقه، منح ربي ابنًا لرِزق الذي انتظر كثيرًا حتى عوّض الله صبره، لكن متى؟ لَمَّا راحت عافيته، بعدما فُرِّقت عنه، بعدما استردني خِضر منه؟!!

غامت الدنيا واسودّت أمام عيني.. لماذا يأتي طفل لهذه الدنيا القاسية الآن؟ لا إجابة قريبة عندي سوى لكي يقتله أولاد خليفة في المستقبل القريب لَمَّا يصير شابًا!

عقلي ما زال عاجزًا عن تصديق ما رأيته لَمَّا أفرجوا عني من المركز بعد الجلسة، يومها رجوت الوصول

المُكَلَّف بحراستي للسماح لي بزيارة بيتي.. بيت القبطية.. قُلتها لأول مرة وابتسمت، لكن الصول نظر لي مدهوشًا ولم يُبادلني الابتسام.

جَفَّف عَرَق الحَرَج بمنديله الكبير، أطرق لوهلة، لا يريد أن يواجهني بعينيه، ألححت عليه مرات ومرات حتى وافق. علمت منه أنهم هدموا نصف البيت أو يزيد أثناء فترة حبسي بالمستشفى، تشابهت عليَّ الطُّرُقَات والسُّكك، تغيَّرت النفوس فبدَّلت الوجوه، سددت أذني وأغمضت عيني مُتلمِّسة خطواتي بالكاد خلف حارسي، رأيت بيتي أنقاضًا، نصف البيت تساوى بالأرض والنصف الآخر ضُرب بمعاول قوية فتصدَّع، وزحفت به الشروخ كتحابين تنهش ذكرياتي في نهم.

بيت القبطية الذي كان مقامًا مُقدَّسًا للمسلمين والأقباط على السواء، يطوفون حوله ويمسحون كفوفهم بجدرانه ثم يضعونها على وجوههم وهم يُتمتمون بالدعاء لي، الآن هدموه ودهسوه بأقدامهم، وصاروا يلعنونني جهرًا بعدما أضحى بيتي مكانًا نجسًا كما قالوا!!

أخبرني الصول أن قرارًا بالإزالة قد صدر منذ أيام على بيوت كثيرة للأقباط ولست المقصودة وحدي، لكني أعلم أن بيتي لم يكن مخالفًا، رزق لم يُخالف القانون يومًا، ومع ذلك لم يُنصفه القانون أبدًا، لكنهم يمحون ذكراي من رؤوسهم.

غادر رزق بيت القبطية ليعيش مع شقيقته ولا يجرؤ أن يدعوني لبيتها علنًا، طلب أن ألقاه في السر حتى لا نُثير أهل القرية ومن قبلهم الكنيسة. ما يُطمئن قلبي أن رزق صفح عني وغفر لي، أخبرتني شقيقته أنه سيُغير ملته ومنتزوج مرة ثانية لَمَّا يتم طلاقه من خُضر.. لكن رزق صار حطامًا وأصبحتُ ركامًا، ننتظر سويًا سبل الكراهية ليجرفنا بعيدًا وهو آتٍ لا محالة.

عُدت أنظر إلى أمواج النهر المتكسرة على ضوء القمر، كم تُشبه حياتي كلها، لا تكتمل فرحتي أبدًا، كلما شعرت بأنني على طريق السعادة زالت وتبخرت قبل أن أمسكها بيدي، ومضات الحرية في حياتي لا تُشبع ولا تُسمن من خوف. خلعت جلبابي وفككت ضفيرتي، قررت النزول للنهر، هَبَّ الكلب واقفًا منتبهًا، رَبَّتْ رأسه

لأطمئنه، سأبقى قرب الشاطئ فأنا لا أجيد السباحة
 عكس التيار أو معه، لن أستسلم لسلطان أحد بعد
 اليوم، ربما لم أتمكن من اختيار حياتي كما أحببت أن
 تكون، لكني اليوم ربما أستطيع اختيار نهايتي وحدي..
 على الأقل اخترت شيئاً بإرادتي.

غمر الماء جسدي دون رأسي، أغمضت عيني مرتاحة
 لقراري، سيكون لي بيت جديد هنا، ولن أترك الطايعة
 للأبد.



25

رأيت امرأة تُشبهها تجلس القرفصاء على ضفة النيل،
 نور مصباح قريب يُلهب شعرها المنسدل على كتفها
 حتى ظهرها، يجعله كخيوطٍ مجدولةٍ من القمر، تلك
 أول مرة أرى فيها شعرها من غير طرحة!

تغسل ثوبها وتبدو شاردة، حين سمعت وقع خطاي
 التي تتحطم أسفلها أوراق الشجر الجافة، لوت رأسها
 قليلاً نحو يوبان على ملامحها القلق.. التمسث لها
 عذراً.. فالمرء لا يعرف من الذي قد يعترض طريقه في
 الليل، تلك إحدى مفاجآت القدر، بل المفضلة لديه
 دائماً.

استندت مكتوف اليدين إلى جذع شجرةٍ عجوز،
 تواريت خلفه أرقبها من بعيد، أشعر دوماً أن وراءها
 شيئاً غامضاً يجذبني. الأحداث كلها تحركت منذ
 وصولها لتكون هي شبح نور طابع، تُعيد كتابة
 الأسطورة من جديد.. ثرى هل الأساطير تُعيد نفسها
 مثل التاريخ؟!

ظلت أنظر لها شاردًا غارقًا في أسئتي حتى نفدت
مني جميع الأجوبة. أعرف أن مهنتي لا تسمح لي
بالتلصص على امرأة بعينين يُحركهما الشك ويشيرهما
الفضول وتدفعهما المعرفة، ثم يصدّهما حاجز كبير
بيني وبينها، صنعه المجتمع بعناية وشكونا لبعضنا من
وجوده، بينما نرتكن عليه من الجانبين مرتاحين له.
أخاف أن تنتحر هدى، لكني أؤمن بأن للخيل عِزَّةً لا
يفهمها المرء بسهولة، تحزن ولا تبوح.. تتألم ولا
تنكسر.. ولما يفيض بها الكيل تموت.. لكنها تموت
واقفة.

لمحتها تتحسّس بطنها وهي تهز رأسها، ربما لتنفي
هواجسي، ثم صرخت في ألم، صيحتها لها وقع غريب
على أذني مثل صدمة كهربية مؤلمة من جلد لا يرحم،
ظلت واقفة كأنها تُصغي لأمرٍ ما لا أسمعه، تُحدّق
حولها في ارتياحٍ وسكون الليل يلفني معها ولا تراني،
عصبت هدى عينيها بقماشية عريضة ثم تحرّكت باتجاه
النهر.

شعرت بثقل قدمي وسخونة في رأسي، صارت الصورة مشوّشة أمامي، عُدت لاستراحتي بعدما غلب يأسي قلقي، تدثّرت ببطانية ثقيلة وغطيت رأسي ونمت، ثم أفقت على يد رمسيس تُرَبّت كتفي، نظرت له بدهشة ولسان حالي يسأل: هل قابلتها فعلاً أم كنتُ أحلم؟! !!

مرّت الأسابيع المتبقية من السنة القضائية في هدوء، اكتفى الجميع بما حدث لهم ومنهم، وربما اعتبروه فاض عن حاجتهم فقرروا أن تكون هُدنة بينهم، أخبرني رمسيس بالأمس أن آلام الوضع فاجأت هدى مبكرًا عن موعدها بشهرين ويحتاج لنقلها لمستشفى المركز، رُتبت الأمر مع رئيس النيابة وأوصلها سائقي قبل الفجر بقليل والقرية نائمة.

لظروف عملي في ذلك اليوم لم أتمكن من رؤيتها، فقد صدر قرار بنقلي وكان يتعين عليّ الانتهاء من القضايا المؤجّلة قدر الممكن، أمضيت الليلة بمكتبي أعمل حتى خيوط نور الصباح، ثم أغمضت عيني مسترخيًا على

أريكة لساعتين، صحت على دقائق أجراس الكنيسة الكبيرة وقد عادت عالية بعد توقّف لأسابيع، ثم تبعتها أجراس ثانية فثالثة ورابعة. عُدت للاستراحة، صعدت غرفتي متثائبًا، وجدت صليبًا ذهبيًا صغيرًا يتدلّى من سلسلة بجوار سريري، التفت لرمسيس الذي يسير في ذيلي مُطرقًا، أخبرني في أسي أن هدى تركته بالاستراحة قبل ذهابها للمستشفى، ثم قال بصوت متحشرج:

- البقية في حياتك يا باشا.. الست هدى تعيش انت.

سمرتني كلماته في مكاني، ليسترسل بعينين دامعتين شارحًا كيف ماتت بعد الولادة بالمستشفى، بعدما نذفت كثيرًا ولم يجدوا مَنْ يتبرّع لها بالدم من المسلمين أو المسيحيين.

ظلت صامتًا أحملق في وجهه الحزين، هربت الكلمات من فوق طرف لساني، رحلت هدى فجأة وتركت لنا صدمة، مضت تاركة دنيانا قبل أن ترى ما عاشت لأجله، كلهم رفضوا التبرّع بدمائهم.. كلهم صاروا ذلك

المجهول الذي يقتل واحدًا مئًا أمام أعيننا كل يوم..
كلهم صاروا قضاة وجلادين، ثم بكوا بخرقة كأنهم
ضحايا.

قهر واقعي أحلامي وبخرها، دائمًا الواقع يغلب الحلم،
يستعيد حقوقه منه بسرعة، لا يترك الأحلام تحجبه
زمنًا طويلًا. أحيانًا بعض الأمور تتجاوزني، تتعدى
قدراتي، لن يفيدني مقاومتها أكثر من طاقتي، وأحيانًا
أخرى يكون استمراري في المقاومة مؤديًا للهلاك.
وقتها لا بد من هُدنة واستراحة محاربٍ فلم أعد قادرًا
على إرغام القدر على فعل ما لن يفعله، أعظم
التضحيات التي يمكنني القيام بها في هذا الزمن
الرديء أن أقنع بما يمكن فعله وما لا أستطيع منعه،
لكي أواصل حبي للحياة أو حتى مجرد الحياة.

أطبقت على الصليب بيدي ثم تركته مكانه ودمعت
عيناي، حزمت حقيبتني بلا ترتيب استعدادًا للسفر.
قبل أن أغادر الغرفة عُدت ودست صليب هدى
بجيبتي، أمسكت بكتابي توفيق الحكيم ووضعتهما
بالمكتبة في المكان ذاته بين مجلدات ضخمة،

دفتهما بحيث لا يراها أحد بسهولة كما كانا، لا حاجة لي بهما، وغيري يعجبه حاله، لا شيء تغيّر!

التفتُ لرمسيس الذي حمل عني حقيبتني، سألته بحذر.. خائفاً من الإجابة:

- ويا ترى المرحومة هدى خلّفت والا ماتت هي والجنين؟

- جابت ولدين توءم يا باشا.. ووصتني أسميهم " نادر" و " كمال" .. لكن المستشفى رفض تسجيل اسم الأب؛ لأن خضر رافع قضية عليها.. وبيقول إن العيال عياله، والنهارده ساب الطايعة وهرب.

- ليه يهرب؟! هو خايف من مين؟

- لأن عليه تار أخوه هلال مع الجماعة السنية اللي قتلوه، والتار كبير عليه ويخاف ياخده بعد ما هددوه، فهرب الجبان قبل حتى ما ياخذ عزا الست هدى أو يشوف العيال.. ربنا يعزينا كلنا.

ابتلع رمسيس ريقه بصعوبة ليحبس دموعًا ترقرت
بمقلتيه ثم أردف بنبرة خفيضة:

- داهية تاخده وقبر يلمه عن قريب.

في سراي النيابة لملت بقية متعلقاتي، تركت فقط
طاقم مكثبي الذي أهدتني خطيبتى إياه، التقيت وكيل
النيابة الجديد الذي سيحل محلي، كله حماس للعمل
ورغبة في تحقيق العدل حسبما بان لي من حديثه،
ابتسمت في مرارة وصافحته في ود، وتمنيت له
السلامة، نظر إليّ في دهشة لكنه لم يُعقب على
كلامي.

لاحظت أنه يحمل بيده أوراق بلاغ جديد، طلب رأيي
فيه سائلًا هل يحتاج لعرضه على رئيس النيابة أم أنه
مجرد بلاغ عادي، أخبرني أن عاملاً يُدعى محمد
صميذة وجدوا جثته مبقورة وملقاة بالترعة، سألته بلا
مبالاة:

- وعرفوا مين اللي قتله والا الفاعل مجهول؟

- التحريات بتقول إن القتل بسبب مشاجرة بالمقهى مع مزارع اسمه أحمد الكومي لخلافات على ..

قاطعته بهدوء:

- يعني أحمد قتل محمد.. ده بلاغ عادي بيحصل كل يوم، بلَّغه بالبلاغات المهمة بس!

قبل الرحيل قرَّرت زيارة قبر نبوي الديب لتوديعه بمدفن الصدقة هنا بقرية الطايعة، حيث يُدفن مَنْ لا أهل له وربما مَنْ لا دين له أيضًا. هذا هو مشواري الأخير بعد نقلي بغير سابق إنذار في الحركة القضائية إلى أسوان، حرَّكوني لمسافةٍ واسعةٍ هذه المرة، إلى آخر نيابات جنوب مصر على الخريطة، أيضًا تم نقل رئيس النيابة إلى الإسكندرية، كأنهم يباعدون بيننا قدر ما استطاعوا بعدما اقتربنا.

ظللت طوال الطريق أنظر من نافذة السيارة، موظفو المحافظة يعملون كالنمل في رصف الطريق، استعدادًا

لزيارة الغد من بعض فناني الصف الثاني وقيادات
الحزب الوطني للحديث عن تجديد الخطاب الديني،
ترديدًا لمقولة الرئيس حسني مبارك بالجرائد القومية.

قلبت في الصحيفة بلا مبالاة، تصرّيات مبارك
تحولت لمقالات متناسخة شبه متطابقة من كل رؤساء
التحرير تؤكد على أن الغد أفضل. يا ترى ما الذي
تنتظره أمة غدًا من أملٍ غابت شمسها خائبة يائسة
بالأمس القريب؟! كرهت تساؤلاتي وهزّزت رأسي أسفًا
على حالنا، كل شيء هنا انفعالي.. مؤقت.. قصير
الأجل، لا شيء يتراكم ويتعاظم عندنا على السطح إلا
غبار الفتنة.

شعرت بأن الشهور الماضية كانت مثل ليلٍ طويلٍ
موحشٍ وكئيب، الآن أخرج إلى النهار بعدما لاحت
خيوط النور، صحيح على استحياء لكني أراها من
بعيد، التفثٌ خلفي بعدما تجاوزنا العمال بقليل، لمحت
اللافتة التي تحمل اسم قرية الطايعة ملقاة على
الأرض كجثة هامة، عمّال المحافظة يدهسونها
بأقدامهم بينما هم منشغلون في غرس اللافتة

الجديدة تنفيذًا للتعليمات.. لافتة تحمل اسم القرية الجديد الذي اختارته الحكومة بإرادة منفردة.. قرية السلام.

عُدت لجريدتي، وقعت عيناى على عنوان صغير بصفحة الحوادث "بَرَّأت محكمة الجنايات جميع المتهمين في قضية أحداث الطايعة"، سواء الأقباط أو المسلمين من جرائم القتل والجرح والنهب والسلب التي وقعت وكأن الفاعل مجهول فعلاً. لكن خليفة مات ولا يمكن اتهامه، وعلينا انتظار خليفة جديد!

مررنا بجوار بيت القبطية، تعرفت عليه بصعوبة، ما كنت لأعرفه لولا أن نبهني السائق له، طلبت منه أن يدور ببطءٍ حول أطلال البيت، لمحت بابه الخشبي العريض راقداً وسط الأنقاض يعلوه التراب، لا يزال الصليب الأسود مرسوماً عليه، يا ليتها انتظرت، القدر يُرجئ مفاجآته دوماً للحظات الأخيرة بعدما يستبد بنا اليأس، ها هو خضر قد هرب في نهاية رحلة بحثه عن هدى، ورزق يتماثل للشفاء، يا ليت القدر منحها فرصة أخيرة.

وصلنا إلى حوش الدفن بغرب القرية، اندهشت لوجود الكثير من عربات الأمن المركزي وعشرات من رجال الشرطة. فجأة رنَّ هاتفي مُعلنًا عن وصول رسالة جديدة من خطيبتي، تُخبرني فيها أن عديلي المستقبلي حصل على البراءة وسيعود خلال أيام إلى عمله القضائي مرة أخرى، تركت لي وجهًا مبتسمًا بنهاية رسالتها التي تسألني فيها عن موعد عودتي لنستكمل معًا مشوار تجهيز شقتنا، وجدت أيضًا أنها اتصلت بي خمس مرات ولم أسمع جرس الهاتف. مسحت الرسالة وضبطت هاتفي على الوضع الصامت، تحسّست مسدسي، أخرجته من جرابه وتأملت ساقيته الفارغة من الطلقات، طالما تمنيت استخدامه ولم أفلح، زفرت في ضيقٍ وأعدته مكانه، أمسكت بالهاتف مرة ثانية وكتبت رسالة قصيرة لخطيبتي، ضغطت على زر الإرسال، وتنهّدت بعدها تنهيدة طويلة في راحة.

سألت أحد الضباط عن سبب كثافة القوات التي تنتشر في المكان، أخبرني أن جثمان هدى حبيب سيُدفن بعد

قليلٍ بمدافن الصّدقة، ويخشون غضبة الأهالي بعدما لفظتها الكنيسة وتبرأ منها الشيخ رجب في البداية، لكن خضر قرر بالمحضر أنها أسلمت شفويًا لتتزوّجه فوافق على دفنها. حدّث نفسي لو كانوا وفروا لها نصف هذه القوات من أجل حمايتها حال حياتها لما ماتت مرات ومرات بيننا من قبل!

اخترت ركنًا قصيًّا بنهاية الحوش، رُحت أقرأ الفاتحة على روح نبوي الديب، الرجل الذي عاش مجرد كومبارس في فيلم رديء، أو مثل شخصية ثانوية في رواية طويلة، سينسى المتفرج ملامحه عندما تتغير اللقطة، ولن يتذكره القارئ وهو يقلب صفحات روايته، دمعت عيناى فأدرت وجهي كي لا يراني أحد.

حدثت جلبة، ورأيت على مبعدةٍ بهائم سائبة، ثم هرول جنود كثيرون أمامي، راحوا يُشكّلون كردونًا بشريًّا حال بيني وبين الناس، انتبهت لوصول الجثمان، وقف الشيخ رجب بجوار مأمور المركز يُلقي عِظَةً موجزةً على مضمض، يدعو للمتوفاة بالمغفرة بنبرة باردةٍ ولا يذكر كلمة الرحمة أبدًا، ثم راح يتلو آيات قصيرة من

سورة التوبة انتقاها بعناية، أتوا بالشيخ ذاته ليودع القبطية، يبدو أن اللوائح لا مشاعر لها مثل بعضنا.

غلّفنا صمت القبور رغم أعدادنا الغفيرة حتى سمعتُ بكاءً مكتومًا من خلفي، يعلو ويخفُّ، وجدت رِزق زوج المرحومة هدى دامع العينين، جالسًا على كرسيه المتحرك مُطرَقًا، ومن ورائه رمسيس يدفعه بهدوء، أضاف الزمن سنين إلى رِزق بلا حساب فجأة، تلاقى نظراتنا في صمت، اقتربت منه وصافحته، أخرجت الصليب الذهبي من جيبِي ووضعتُه بين راحتيه وأطبقتهما، ثم غلبتني دموعي مرة ثانية فأدرت وجهي كي لا أراه، بينما نحبه يخرق قلبي ويمزقه.

تأهّبت للرحيل، تلاقى عيناى مع رمسيس في نظرة وداعٍ أخيرة، عرفت هذا الصباح أن النيابة فتحت تحقيقًا موسّعًا في حوادث حرق الغيطان وانتحار بعض الأهالي من فوق الأسطح والتلاعب في أوراق حيازة الأراضي، أصابع الاتهام تُشير له بالطبع لكنها لم تقم باستدعائه بعد.

بدت ملامح رمسيس هادئة ساكنة مثل الموتى وعيناه
 ذاهلتان، لكنه هذه المرة لم يكن يبتسم.

قبل أن أستقل سيارتي لمحت شقيقة رزق جالسة مع
 بعض نساء القرية، كلما اقتربت منهن ارتفع العويل
 ودوى الصراخ، ليُغَطِّي على بكاء طفلي هدى اللذين
 أراهما بالكاد، يبدوان بلا ملامح واضحة، لم أر إلا
 أطرافًا سوداء مهزوزة، ورثا إرثًا ثقيلًا من شقاء
 واضطهاد، صارا مجرد خيالات تتراقص كالطير
 المذبوح، تنتظر قرارًا من القاضي في جولة طويلة
 بإثبات نسبهما لأب من اثنين.. رزق أو خضر، ليستكملا
 بعدها مسيرةً أشبه بقفزة في الظلام، فهل يستطيعان
 النجاة؟!

مضيت لحالي ولم أعرف إجابة قاطعة بعد، وربما لا
 أجدّها أبدًا، رحلت تاركًا الطايعة ورائي مُترخِّمًا على
 هدى حبيب، تلك السيدة التي ماتت منّا ؛ لأنها فقط
 أرادت الحياة.

أشرف العشماوي

9 سبتمبر 2019



إهداء

إلى مَنْ عاشوا في خيالي سنوات طويلة: مُعلِّمة اللُّغة
العربية هُدى يوسف حبيب.. والخفير نبوي الديب..
وحارس الطواويس محمد علوان.. والبائع المتجوّل
صليب لبيب.. وموظف شركة الكهرباء حليم إسكندر
تادرس.. والطفل حمادة إسلام.. والفلاح نجيب
صمويل.. وتاجر الكليم هلال خضر، على روحهم
جميعًا السلام.

أشرف ..